الحب في المنفى

بهاء طاهر

جائزة أفضل رواية ١٩٩٥

دار الهلال

إبريل ٢٠٠١

الفصل الأول

مؤتمر كغيره

اشتهيتها اشتهاء عاجزا، كخوف الدنس بالمحارم.

كانت صغيرة وجميلة وكنت عجوزا وأبا ومطلقا . لم يطرأ على بالى الحب ، ولم أفعل شيئا لأعبر عن اشتهائى.

لكنها قالت لى، فيما بعد : كان يطل من عينيك.

كنت قاهريا، طردته مدينته للغربة فى الشمال . وكانت هى مثلى ، أجنبية فى ذلك البلد، لكنها أوروبية وبجواز سفرها تعتبر أوروبا كلها مدينتها . ولما التقينا بالمصادفة فى تلك المدينة (ن) التى قيدنى فيها العمل ، صرنا صديقين.

قيدنى العمل .،. أى كذب ! .. لم أكن أعمل شيئا فى الحقيقة . كنت مراسلا لصحيفة فى القاهرة لا يهمها أن أراسلها . ربما يهمها بالذات ألا أراسلها . وفي ساعة الظهيرة فى فسحة الغداء التى تتخلل يوم العمل الطويل لمن يعملون كنا نجلس معا .

نشرب القهوة ، تحدثنى عن نفسها وأحدثها عن نفسى ،

ويقربنا الصمت أكثر عندما نتطلع عبر زجاج المقهى إلى ذلك الجبل المستطيل المتعرج، الرابض على ضفة النهر الأخرى كتمساح طويل الذيل.

ولكنى لما بدأت أشتهيها أصبحت ثرثارا . كنت أتحصن وراء جدار الكلمات لكي لا أفتضح، تتدافع كلماتى الفارغة جرارة ومسلية ومتتابعة ، مثل شرنقة دودة عراها جنون الغزل فلا تستطيع أن تكف ، لعلى– وكيف الآن أدرى ؟ – كنت عن غير وعى أغزل من خيوط الكلمات
شباكا حولها . وكانت هى تتطلع إلى بعينيها الجميلتين ، تتسع العينان وهى وتبتسم وتسألني : من أين تأتى بكل هذا الكلام ؟ صنعتى أنا أن أتكلم فكيف تفوقت علي.

ولكنى فى تلك الظهيرة لم أستطع . تبعثرت خيوط الكلمات وتمزقت . حلت فجوات طويلة من الصمت كنت أنظر خلالها ساهما إلى النهر. وجلست هى منكبة على فنجان قهوتها الفارغ تديره فى الطبق ، لا أرى سوى هالة شعرها الكثيف وأنفها البارز المستقيم . وكانت ترفع رأسها فجأة ، تنظر إلى حين أسكت وتقول أكمل .. أكمل .. ولكن الكلمات لا تكتمل.

وخارج المقهى سرنا إلى حيث أركن سيارتى .. سأخذها مثل كل يوم حتى باب المكتب الذى تعمل به ، أتركها وأتظاهر أنا أيضا أنى ذاهب إلى عمل . ولما وصلنا إلى السيارة قالت أريد أن نمشى قليلا هل لديك مانع ؟

مشت بجانبى بطيئة على غير عادتها، ولم نكد نتحرك خطوات حتى توقفت وقالت بصوت حازم : اسمع لا أريد أن أراك بعد اليوم . سامحنى ولكن يحسن ألا نلتقى . أظن أنى أحببتك وأنا لا أريد ذلك . لا أريده بعد كل ما رأيته فى هذه الدنيـــــــا.

وكنت أعرف ما رأته فى هذه الدنيا فسكت لحظة وقلت كما تشائين . وراقبتها وهى تبتعد عنى بخطوات مسرعة.

ولكن تلك لم تكن هى البداية.

فى البدء كان كل شىء يختلف . يومها ترددت كثيرا فى الذهاب إلى ذلك المؤتمر الصحفى. كنت أعرف سلفا أن كلاما سيقال لو أرسلته فلن تنشره الصحيفة فى القاهرة ولو نشرته فسوف تختصره وتخففه . تؤخر فقرات وتقدم أخرى بحيث لا يفهم القارىء ما الذى حدث بالضبط ولا ما هى الحكاية . فكرت وأنا فى الطريق أن أذهب إلى المطار . كان ذلك هو يوم وصول الطائرة المصرية إلى المدينة التى كثيرا ما تطؤها أقدام المسئولين على غير انتظار . ربما يصل أحد الوزراء ويقول تصريحات تسعد رئيس التحرير. يضعها فى الصفحة الأولى ويرضى عنى أخيرا ((الوزير . . يصرح : اقتصادنا خرج من عنق الزجاجة . الوزير يقول : سنبحث التعاون الأوروبى فى انطلاقة التنمية ((

وتحولت السيارة بالفعل إلى طريق المطار. يرتاح رئيس التحرير جدا إلى انطلاقة التنمية هذه . تظهر كل أسبوع فى مقالاته . منذ سنوات طويلة جدا والانطلاقة تقفز عنده من عنق
الزجاجة بلا انقطاع . فلماذا لا أسعد رئيس التحرير إن أمكن .. لماذا أذهب إلى ذلك المؤتمر التعيس فى هذا الصباح الصيفى الجميل ؟.. هل أنا بالفعل غاوي نكد. كما اعتادت منار أن تقول ؟ بل ولماذا أذهب إلى المطار ؟.. من قال إن وزيرا سيأتى أو إن رئيس التحرير متلهف على رسالتى ؟ الأفضل أن أسكت تماما . سأعفيه بذلك من الاعتذارات المحرجة : والله يا فلان الرسالة وصلت متأخرة أو طبعناها فعلا ولكن أخبارا من الرئاسة جات فى أخر لحظة وأكلت الصفحة ، أو : هل تعرف ؟.. أنا أحقق مع الولد علان فى القسم الخارجى لأنه لم
يعرض على الرسالة . أحلته إلى التحقيق فعلا إلخ إلخ إلخ .. لماذا أتعب رئيس التحرير وأتعب نفسى؟ لن ينقطع المرتب وهذا هو ما يهم . فلنستمتع بهذا اليوم الجميل.

دخلت بالسيارة فى جانب من الطريق المرتفع الذى يشق غابة فى اتجاه المطار.

.تركت الشارع المرصوف وتوغلت فى طريق مدكوك يتخلل الأشجار ثم ركنت فى الظل . كانت الغابة رطبة وهادئة والأوراق الجديدة التى عادت تكسو الأشجار منذ وقت قليل زاهية الخضرة ، تكاد تكون شفافة .. تتجمع فى قبة هشة ناعمة تحركها الريح الخفيفة فتتسرب أشعة الشمس من بين ثقوبها المتناثرة ، موجات صفراء تسبح بسرعة فوق الحشائش ثم تختفى لكى تعود كالمفاجأة . وكانت تلك الموجات المتتابعة تنير فى مرورها الزهور البرية الصغيرة الصفراء والبيضاء تزخرف الأرض فى الصيف .. فى المرة الأولى التى سافرنا فيها إلى الخارج فى رحلة الأسبوع السياحية إلى بلغاريا، بهرتنى تلك الزخرفة المنمنمة فى الأرض مثلما بهرت منار . سأقتنى ونحن فى الغابة . ممنوع أن نقطفها ؟ قلت : لا أظن، فراحت تجمع باقة منها وهى تنسق الألوان ، ولما أنتهت نظرت إلى الزهور يديها وقالت وفى صوتها خيبة أمل : ولكنها كانت جميلة فى الأرض ! وبالفعل كانت الزهور الصغيرة قد ماتت للتو ، طوت وريقاتها فوق قلوبها الدائرية الصفراء وتهدلت سيقانها النحيلة على جانبى يدها . وقلت لها : أعتقد أن هذه الزهور البرية لا تعيش إلا فى الأرض ، ثم أمسكت الباقة الذاوية ورميتها بعيدا مستبقيا زهرة واحدة صفراء أكبر من الأخريات ظلت متماسكة ومشرعة الأوراق رشقتها
فى شعر منار وأنا أقول كم أنت جميلة هكذا . وكانت بالفعل جميلة بتلك الزهرة فى شعرها الأسود فقبلتها وعدنا نضحك من جديد ، سعيدين كما كنا من قبل ، لأننا لأول مرة نتمشى وسط غابة خضراء لا يحدها البصر. ولكن فى المساء ، ونحن فى الفندق ، كان لابد أن أدفع الثمن . فى أى مكان غريب من عقلها كانت تحتفظ بتلك الأشياء الصغيرة ؟.. تلك الأشياء التى كنت أنساها فى لحظتها ؟،. وأية قدرة تلك على توليد المعانى التى لا تخطر على بال ؟ ..توجست ليلتها حين سألتنى شبه مازحة : هل جئت حضرتك إلى أوروبا قبل ذلك من ورائى ؟ ..لكنى جاريت لهجتها وأنا أقول : بالطبع مرات كثيرة فى مهام سرية لماذا تسألين ؟ ..فقالت : كيف عرفت حضرتك أن هذه الزهور لا تعيش إلا فى الأرض ؟.. لزمت الصمت ولكن ذلك لم

ينفع أيضا . تحولت لهجة المزاح إلى نوع من الاستنكار الخفيف وهى تقول : ثم ما هذه الطريقة التى تتعامل بها مع الناس هنا..

أية طريقة ؟

هذا التهذيب المبالغ فيه مع عمال الفندق والمطعم والمحلات ، ومع الناس عموما، أنت عندك عقدة الخواجة ؟

ولكن هل لاحظت يا منار أننى أتعامل مع الناس فى مصر بطريقة مختلفة ؟

مطت شفتيها وأخذت تهز رأسها لليمين واليسار و كأنها تصدر الحكم بعد ترو، وهى تقول : لا، ولكن هنا ألاحظ أن الجرعة أكبر حبتين . أكثر من اللازم . أنك أنها عقدة الخواجة.

هممت أن أرد ولكنى تراجعت وتت : ربما يكون الحق معك . سأراجع نفسى. وكنت قد تعلمت من زمن طويل أن أدارى غضباتها الصغيرة الخفية . وكنت كفى كن عادلا. لابد أنها هى أيضا كانت تدارى غضباتك الصغيرة الخفية . لم تكن المشكلة فى تلك الزهور البرية فما هى بالضبط ؟.. هل كان هناك خطأ منذ البداية ؟. ما هو ؟.. كل ما أذكره أنى أحببتها وأنها قالت إنها تحبنى . أقصد لابد أنها أحبتنى فعلا فى وقت ما ، والا فلم تزوجنا؟.. كنت أفقر واحد بين
المحررين الذين تمنوا الزواج منها لما جاءت لتعمل معنا فى الصحيفة . أسرنى مثل الجميع وجهها البشوش بابتسامتها الدائمة وطريقتها الصريحة فى الكلام معى تحدق مباشرة فى عينى من تحدثه . أسرتنى أكثر من غيري واعتدت أن أبذل جهدا كبيرا لكى أكلمها بطريقة عادية مثلما أكلم بقية المحررات . أحرص دائما أن أحول نظرى فى اتجاه غير الذى تجلس فيه فى صالة التحرير الواسعة.

وكانت هى التى بدأت تقطع المسافة من مكتبها إلى مكتبى لكى تستشيرنى كزميل أقدم فى موضوع تكتبه أو لكى ألقى نظرة على الموضوع قبل أن تقدمه للمطبعة .

ثم بدأت تحدثنى عن مشاكلها فى البيت : يلحون عليها أن تتزوج ويعرضونها على الخطاب كما لو كانت سلعة ، لن تتزوج هى أبدا بهذه الطريقة ، ستختار بنفسها. لماذا يكون الاختيار من حق الرجل وحده ؟.. أخافنى كلامها . قلت لنفسى لن تكون صريحة معى إلى هذا الحد لو كنت أنا الذى اختارته . ولكنى حاولت وتقدمت .
وقالت لى وهى تضحك ونحن نمشى بيدين متشابكتين فى طريق الكونيش : ماما قالت ألم تجدى غير هذا الصحفى المفلس ؟ تتركين من أجله الضابط والدكتور ! .. وأدهشتنى منار حين قالت بفخر وهى تضغط على يدى معنى هذا أن ماما تحبك وأنها توافق عليك. !

قبل وقت طويل أدركت أن ماما هى الأهم . كانت تشعر بنوع من العار فى حضور أبيها الذى أحببته أنا من أول لحظة لبساطته وطيبته . ولكن منار كانت تخجل حين يجلس معنا ونحن مخطوبان في غرفة الجلوس بالبيجاما أو بالجلباب ويتحدث بفخر عن إشادة رئيسه فى العمل بالأسلوب الذى كتب به المذكرة اليوم ، أو حين يحكى كيف اشترى بطيخة وهو عائد من المكتب بعد أن أقسم له البائع أنها ((شيليان)) ولكن عندما فتحها فى البيت وجدها بيضاء من غير سوء فنزل من فوره وردها إلى البائع الكذاب ، لأنه لا يترك حقه ولا يسمح لأحد بأن يضحك عليه . كان وجه منار يتضرج عندما يحكى هذه القصص وألاحظ نظرة التأنيب فى عينى أمها دون كلام . ولكن بعد أن تزوجنا لم تكن أمها تبالى بأن تعنفه أمامى . و كانت منار تبكى بالدموع لأنه اعتاد بعد خروجه إلى المعاش أن ينزل إلى الشارع بالجلباب وأن يجلس بالساعات عند الحلاق أو عند البقال أو على دكة البواب . تقول وسط دموعها حرام عليك يا بابا . . سمعتنا يا بابا .. فيعدها وهو يعتذر محرجا ومرتبكا أنه لن يفعل ذلك مرة أخرى.
ولكنه عندما مات فاق حزن منار عليه كل تصور . ظلت تبكيه شهورا طويلة وتناجيه طوال الوقت كأنه جالس بيننا تسأله كيف حاله هناك ؟ لماذا تركها ألا يشتاق إليها ؟ وكنت أسأل نفسى إن لم يكن هناك إلى جانب الحزن نوع من تأنيب الضمير ، وأكد ما جاء بعد ذلك ما كنت أشك فيه . بالتدريج بدأت تتحدث عن أبيها

على أنه كان موظفا كبيرا قوي الشخصية يهابه الجميع فى المكتب بسبب حزمه وشدته فى الحق ، رغم أنه لم يكن يؤذى أحدا وأخذت هى نفسها مع مرور السنين تقتنع بذلك ، تطالبنى فى بعض الأحيان أن أكون حازما مثل أبيها.

وحين أبعدونى عن العمل ولم يعد هناك الكثير مما يشغلنى ، انتبهت فى أول مرة أطلت فيها جلستى عند الحلاق بعد أن انتهى من قص شعري وأخذت أتبادل معه الثرثرة دون هدف . شعرت بالخوف وعدت مسرعا إلى البيت ثم جلست إلى المكتب لأخطط مشروع كتابى . وكانت منار قد بدأت تأخذ صورة أمها بالتدريج. تتهمنى مثلا أننى أدلل الطفلين ومع ذلك تشعر بالغضب إذا ما حاولت أن أعاقب أحدهما وتتصدى للدفاع عنه . ظل العقاب حقا مقصورا عليها و يأتى عادة بعد أن نخرج للنزهة فى يوم الجمعة . اعتادت أن تكتشف باستمرار خطأ ارتكبه أحدهما أو ارتكباه معا : نوع من قلة الأدب كما كانت تقول ، عقابه أن تحرمهما من المصروف أو من زيارة الأصدقاء والأقارب . وحين كانت ترانى ألعب الشطرنج مع خالد تتهمنى بأنى أعطله عن الدراسة ، واذا حملت هنادى وأخذت ألف بها

.هى تضحك تقول : إن هذه اللعبة هى السبب فى أن بطنها كان يوجعها فى الأسبوع الماضى . ولما لاحظت أن خالد يحب الشعر وأنى أشجعه على القراءة ، قالت لا داعى لأن يخيب الولد و هو نابغ فى الرياضة ، ولما . لا ، كفى ! مرة أخرى انتبه وتوقف . إلى أين تريد أن تصل من ذلك . أنها

سيطرت على الطفلين ؟.. ليكن !.. وأين كنت أنت .. لماذا لم تفعل شيئا لتقترب منهما أكثر ؟.. ألم تكن طول الوقت خارج البيت فى الصحيفة أوفى الاتحاد الاشتراكى أو خارج البلد ؟.. على أى شىء تلومها هنا بالضبط ؟.، ثم ما حكاية الحلاق هذه ؟.. ما علاقتها بالمسألة كلها .. كنت أبحث عن السبب . عن بذرة الخطأ . خطئى أنا أو خطؤها هى لكن ما علاقة هذه الأشياء بالمسألة..

فاجأنى وجهى فى مرأة السيارة متجهما وشاردا فأجفلت . قلت لا . لن أعود إلى ذلك . ليس فى هذا المكان الجميل ولا فى هذا الصباح المشمس . لن أستسلم اليوم لذلك الشرود الذى يطفوفيه مشهد مع منار من أى شىء أراه أو طفو دون سبب ثم يسلم

كل مشهد إلى أخر وتمر الساعات على هذا الحال . لا ليس اليوم . إن لم تفلح السكينة فى هذه الغابة أن تنقذنى من ذلك ، فسيكون أى شيء أخر أفضل من البقاء هنا.

وأدرت محرك السيارة

حين دخلت قاعة الفندق لم يكن المؤتمر قد بدأ بعد . كانوا قد وضعوا منضدتين متجاورتين كمنصة وخلفها ثلاثه مقاعد وصفوا فى القاعة حوالى ثلاثين مقعدا وان لم يكن هناك غير ستة أو سبعة من الصحفيين جلسوا متناثرين وصامتين . ربما جاؤوا مثلى لأنهم لم يجدوا شيئا أخر يفعلونه . ومن كنت تريده أن يأتي ؟. . من يهتم الآن هنا أو فى أى مكان أخر؟.. من يعنيه مؤتمر تعقده لجنة اسمها لجنة الأطباء الدولية لحقوق الإنسان عن انتهاكات الحقوق فى شيلى... أى شيلي وأى حقوق ؟. . انتهى يا صاحبى زمن الارتياع عندما ذبحوا الآلاف في استاد العاصمة هناك . انتهى زمن ذرف الدموع على الليندى بعد أن قتله العسكر . قتلوه بعد عبد الناصر بثلاث سنوات . حاربوا عبد الناصر بقولهم ديكتاتور، فلماذا الليندى الذى جاءت به الانتخابات ؟ ..الذئب قال للحمل إن لم تكن عكرت الماء لأنك دكتاتور فقد عكرتها لأنك ديموقراطى . أنت مأكول مأكول على أى حال . ومن يذكر الآن نيرودا ؟. لا أذكر أنى قرأت اسم نيرودا فى صحيفة من بلدى منذ أن قتله الغم بعد أن انقض العسكر على بلده قبل عشر سنوات . أسكتوه أخيرا لكى لايغنى . لكى لا يقول : وعلى شواطىء كل البلاد يعلو صوتى

لأنه صوت من صمتوا ولأن كل من لم يعرفوا الغناء فهم بفمى اليوم قد غنوا.

زمان أيام الشباب ، كنت أقرأ أشعار نيرودا فى صحفنا اليومية ، حتى فى الصحيفة المسائية . أيام كانت الصحف تقول إن انتصار الناس فى أى بلد يعنى الحرية لنا . أيام بكينا على نكروما وعلى لومومبا . أيام كان راديو القاهرة يغنى لبورسعيد والجزائر و الملايو و شعوب كالبشائر تنبت الأزهار من قلب المجازر !.. نعم ، لا أقل من الأزهار من قلب المجازر ! أذكر أيامها صديقا كانت تلمع فى عينيه دموع حين يقرأ علينا قصيدة)) الأطفال فى بلدى يموتون جوعا

والأسماك فى البحر تشرب القهوة ((. الآن لا يبكى على هذا أحد . لا يبكى أحد لأن سادة دنيانا يغرقون البن فى البحر أو يهشمون جبال البيض . الناس الآن أعقل . العواطف الآن أهدأ . الدموع الآن لا تنزل إلا من إدمان النظر للتلفزيون ، بما فى ذلك دموعك أنت أيها المنافق !.. أنت ولجنة أطبائك الدولية..!
كان في يدي كتيب أخذته اعتباطا من بين عدة كتيبات موضوعة على منضدة في مدخل القاعة . رحت أقلب الصفحات . المنصة لاتزال خالية رغم أن موعد المؤتمر قد حل . مرت عيني على سطور في الصفحة المفتوحة من الكتيب : أمتا طرق التعديب في سجون شيلي فهي نفسها التي وصفتها اللجنة في نشراتها السابقة عن ذلك البلد وعن بلاد أخرى في أمريكا اللاتينية وبقية القارات وكان أكثرها شيوعا في شيلي الصدمات الكهربائية على طريقة الشواية . أي وضع أقطاب كهربائية متحركة على جسم الكجني عليه وهو مقيد إلى سرير حديد ومغطى بالشمع . وتحدث الصدمات بهذه الطريقة ألاما قاسية جدا فى العضلات والإعصاب تستمر اثارها لعدة سنين ، إذ يصاب الشخص بارتباك فى حركة العضلات وبحالات أرق مستمر وكوابيس وتسيطر على المريض حالات غريبة يتصور فيها أنه يسلط بنفسه التيار الكهربائى على جسمه ويعيش محنة التعذيب الأول نفسها وآلامه .. وهناك طريقة الصدمات الكهربائية التى تسمى (الإبرة) وهي....

توقفت عن القراءة حين سمعت حركة فى القاعة ورأيت شخصا طويلا أشيب يتقدم ويجلس على المنصة . أخذ يجول بعينيه فى القاعة شبه الخالية بنظرة هادئة لم تشبها أى دهشة لقلة الموجودين . ولما بدأ يتكلم بالانجليزية خمنت من لهجته أنه من ألمانيا أو من إحدى دول الشمال . قال إن اسمه مولر وانه طبيب ، نهص يعتذر للتأخير فى بدء المؤتمر ولكنه سيذكر لنا السبب بعد قليل . وشرح أن اللجنة التى يمثلها والتى تضم أطباء متطوعين من بلاد مختلفة تهتم بحقوق الإنسان بوجه عام ولكنها تركز بالذات على الجوانب الصحية والطبية . وقال إن
اللجنة وجدت فى شيلى حالات خطيرة جدا بين المسجونين السياسيين الذين يبلغون

عدة ألاف . وبدأ يذكر أرقاما عن حالات المرضى فى السجون وعن التعذيب بالضرب وبالكهرباء وبالحرمان من النوم وبالاغتصاب الجنسى وبوسائل أخرى . وقرأ أسماء بعض الذين ماتوا تحت التعذيب.

بدأنا نوجه له أسئلة عادية تستوضح بعض التفاصيل والأرقام ، ولكن فجأة وقف صحفى أعرفه من أهل البلد ، وكانت صحيفته المسماة ((الوطن)) تهاجم باستمرار اللاجئين من شيلى وغيرها من البلدان وتطالب بإعادتهم إلى بلادهم و طردهم .
كانت تنشر مقالات متتابعة عن اللاجئين وتقول إنهم يزحمون البلد وينشرون الجرائم ويلوثون البيئة وانه يجب إنقاذ الوطن من هذا الخطر ، ووجه كلامه إلى الدكتور مولر بلهجة استفزازية قائلا : ألا تعتقد برغم كل ما
يقال عن شيلى انها أكثر استقرارا من بلاد كثيرة ؟ ألا تعتقد أن عدد من يموتون في السجون أقل بكثير من عدد من تقتلهم الحروب الأهلية فى البد المجاورة لشيلى .. ؟

ارتفعت فى القاعة همهمة غاضبة ولم تبال صحفية تجلس فى المقعد الذى أمامى أن تسأل بصوت مسموع : هل وجهتم الدعوة أيضا إلى جنرالات شيلى لحضور هذا المؤتمر ؟ وعلق أخرون على كلامها ولكن الدكتور مولر نقر بإصبعه مرتين على المنصة وقال لمندوب الوطن بهدوء : سيدى أنا لست سياسيا ومنظمتنا ليست سياسية . نحن أطباء نتحدث عن حالات حققنا فيها بدقة وتأكدنا منها ، ومع ذلك فأنا أذكرك أنه قبل الانقلاب العسكري لم يكن أحد يموت فى
شيلى ، لا فى حروب العصابات ولا فى السجون . هكذا يجب أن تقارن إن أردت.

ثم نظر الدكتور مولر إلى ساعته وقال : معذرة . استأجرنا هذه القاعة لساعة واحدة وتأخرنا قليلا لأن مشكلة صادفتنا فى تقديم الترجمة من الاسبانية لشهادة يهمنى أن تستمعوا إليها . وأشار إلى الصف الأول فنهض رجل وفتاة جلسا إلى جواره وهو يكمل : كان المفروض أن يأتى مترجم محترف ولكنه اعتذر فى اللحظة الأخيرة وتطوعت صديقة هى بريجيت شيفر بتقديم الترجمة وأنا أشكرها.

كانت بريجيت تلبس زيا أزرق من قطعتين كمضيفات الطيران وحول رقبتها إيشارب وردى اللون ، وقالت تخاطبنا وهى تجلس بين مولر والرجل الآخر وتبتسم بشىء من الارتباك : ستسامحوننى إذا أبطأت لأن هذه أول مرة أعمل فيها مترجمة .
وكانت كل العيون الصحفية مثبتة عليها لأنها كانت جميلة جدا وقال أحد الصحفيين : سنسامحك بكل سرور . من فضلك خذى كل الوقت . ضحك بقية الصحفيين ولكن الدكتور مولر عاد ينقر بإصبعه قائلا بجدية تكاد تصل إلى التأنيب : كما ذكرت لكم فأن هذه الشهادة تهم منظمتنا بصفة خاصة لأنها تمس
أيضا رجال الطب ، ولكنى أفضل أن تستمعوا بأنفسكم . ثم أشار إلى الرجل كي يتكلم .

و لأول مرة تحولت ببصرى من بريجيت إلى الجالس على يمينها . ولم أستطع من مكانى أن أتحقق من وجهه فقد كان يحنى رأسه بشدة حتى اقترب من ذراعيه اللتين كان يشبكهما أمام صدره ولم أر بوضوح غير شعره الأسود الناعم . بدأ يتكلم بصوت خافت ويبدو أن بريجيت طلبت منه أن يرفع صوته فقد كرر كلماته ولكن دون أن يرفع رأسه وبدأت هى بعد كل وقفة فى كلماته تترجم إلى الانجليزية التي يتعامل بها المراسلون الصحفيون فى البلد.

قال إن اسمه بيدرو إيبانيز ، عمره ٣٩سنة ويعمل سائق تاكسى فى العاصمة سانتياجو . فى بداية السنة كان يقف بعربته فى موقف التاكسيات أمام المحطة الرئيسية منتظرا دوره . رأى شخصا يخرج من المحطة وبيده حقيبة يتوجه نحو الموقف وقبل أن يصل إليه تقدم منه سائق لم يره بيدرو من قبل محاولا أن يأخذ الحقيبة وهو يشير إلى سيارة فى الموقف . ولكن الراكب رفض أن يعطيه الحقيبة أو أن يذهب معه ، وتوجه إلى سيارة بيدرو التى كانت أقرب عربة أمامه . وبعد أن تحرك فى اتجاه العنوان الذى أعطاه له الراكب لاحظ أن سيارة تاكسى أخرى تتبعه . رأى فى المرآة السائق نفسه الذى حاول أن يأخذ الحقيبة ورأى معه أشخاصا أخرين ، وانتبه الراكب أيضا وأخذ ينظر للخلف . بدا مرتبكا وبدا أنه يحاول التغلب على خوفه . وخاف بيدرو أيضا والراكب يقول له أسرع .. أسرع

وهو ينقل بصره إلى الخلف والى الأمام باستمرار . ثم قال لبيدرو فجأة اسمع إنهم يريدوننى إنهم من إدارة الأمن الوطنى . فاشتد خوف بيدرو لأنه يعرف ما هي إدارة الأمن الوطنى . فكر أن يوقف السيارة وأن ينزل الراكب ولكنه لم يطمئن لعواقب ذلك ، وحين طلب منه الرجل أن يترك الشارع الرئيسى وأن يدخل
في طريق فرعى سمع كلامه . قال بيدرو إنه ندم بعدها وانها كانت فكرة سيئة-

فقد كان من الصعب على ركاب السيارة المطاردة أن يفعلوا شيئا فى الشارع المزدحم ولكنهم انفردوا بهما فى الطريق الفرعى القليل الحركة . أسرع قدر استطاعته ليهرب منهم ولكن سيارتهم كانت جديدة وسريعة . ولاحظ ذلك فلم يعد يتلفت وراء واضطجع فى مقعده قائلا لبيدرو بهدوء : اسمع ... أنا اسف لأنى زججت بك فى هذه الحكاية ، لم يعرف بيدرو أبدا مع ذلك ما هى الحكاية . ولكن عندما حاذتهما السيارة فى إحدى إشارات المرور فتح الراكب
الباب فجأة من الناحية الأخرى ثم قفز وبدأ يجري فى الشارع . جرى خطوتين فحسب . وقال بيدرو إنه لما بدأ إطلاق الرصاص انزلق فى مقعده ليحتمى ولكنه شعر بالرصاصة التى دخلت فى جنبه فى اللحظة نفسها ورأى الراكب وهو يسقط فى الطريق والدم ينفجر من رأسه.

كان بيدرو يحكى بصوت رتيب و بريجيت تترجم بلهجته الرتيبة نفسها وهى تنقل بصرها بينه وبيننا فى القاعة ، ولكنى لاحظت وجهها يتصلب بالتدريج وصوتها يرتفع قليلا بينما كان بيدرو يشير بإصبعه إلى الموضع الذى دخلت فيه الرصاصة فى جنبه . واستحثه الدكتور مولر بحركة من سبابته أن يسرع قليلا وهو يشير إلى الساعة فهز بيدرو رأسه كالمعتذر . كان قد نسى خجله وراح يتطلع نحونا ، لاحظت عينيه الواسعتين وتحتهما هالتان سوداوان عريضتان
كحاجبين مقلومين . وسألت نفسى إن كان هذا هو الأرق.

وتغيرت لهجة بيدرو منذ اللحظة التى استحثه فيها مولر . أخذت الكلمات تخرج من فمه متدافعة ومتقطعة . وكانت بريجيت تجد صعوبة فى متابعته وتعتذر لنا أحيانا

وتسترجعه بعض ما قال . ولم تعد الحكاية مرتبة . عاد يشرح مشيرا. هذه المرة إلى صدره وقال دخلت الرصاصة فى صدرى .. وأنا بالطبع لم أكن أعرف الراكب .. أسف . أقصد أن الرصاصة دخلت فى جنبى واستقرت فى صدرى كما قالوا فى المستشفى .. فى هذا المكان .. ولكن أنا لم أر هذا الرجل قبل أن يركب التاكسى وأعتقد أنه مات .. لا .. أنا متأكد أنه مات لأننى رأيت

بعينى الدم ورأيت أجزاء من مخه على الرصيف قبل أن أفقد الوعى .. ولما سألنى الضابط فى المستشفى كنت أشعر بعطش شديد هززت إصبعى هكذا ((لا أعرفه)) فنزع الضابط من ذراعى حقنة الدم الذى كانوا ينقلونه ونزع أنبوب الأوكسجين من أنفى .. قال الضابط سأتركك تموت لأنك صديقق كابتيللو لماذا اختارك بالذات من بين سائقى التاكسى؟ . طبعا كان الطبيب واقفا لما حدث ذلك والضابط كان من الأمن الوطنى . وبعد أن انتزع أنبوب الأوكسجين بدأت بالفعل أموت بالفعل أقصد ضاع النفس تماما وكانت هذه أول مرة أسمع فيها اسم كابتيللو .. لم اسمع باسمه ولم يسمع أخى باسمه . . وحين حاولت أن أقول هذا للضابط اندفع دم كثير من فمى وفقدت الوعى مرة أخرى . . ولكن فى اليوم التالى بدأوا استجوابي أيضا حين أفقت . كانوا فى ذلك اليوم ثلاثة من إدارة الأمن الوطنى وسألونى عن اسرتى هل نحن اشتراكيون ؟ هل نحن من حزب الليندى ؟.. أنا فى الأصل من الريف ولكننا حتى لم نأخذ أرضا عندما وزعوا أراضى الأغنياء على الفلاحين فى الريف ، لا أنا ولا أخى . . لهذا لم يحدث لنا شىء عندما رجع الأغنياء بعد الانقلاب واستردوا أرضهم ، أقصد لم ندخل السجن مع الفلاحين الذين كانوا قد أخذوا الأرض ولكنى لم أستطع أن أقول ذلك . لم أستطع أن أرد .. كنت متعبا جدا . . فمد واحد من الضباط يده وأغلق اسطوانة الأكسجين وشعرت مرة أخرى بالدم فى حلقى وفى فمي، اسمع غرغرته فى حلقى ولكنى لا أستطيع أن ألفظه من فمى فجاء الطبيب بجهاز وضعه فى حلقى وبدأ يسحب الدم . . ملاء منه زجاجات كثيرة . قال الطبيب إنه ينصحنى أن أتكلم لكى أعيش ولكنه لم يفتح اسطوانة الأوكسجين . كل ما قاله للضابط هو أننى لابد أن أتكلم . وبسط بيدرو يديه أمامه وقال لنا نحن الصحفيين فى القاعة بصوت مرتفع وعينين متسعتين : كيف يمكن للإنسان أن يتكلم دون أوكسجين ؟.

ضحك مراسل صحيفة الوطن وتطلع نحوه بقية الصحفيين فى غضب وقال له أحدهم هس ! ولكنه ظل ينظر أمامه دون مبالاة ودون أن يلتفت إلى أحد، وأحس بيدرو أنه ارتكب غلطة غير محددة فزاد ارتباكه وتشتته وعاد يحكى محني الرأس:

أظن هذا فى اليوم الثالث .. لا، فى اليوم الرابع .. عندما جاءوا بأخى فريدى.. وقالوا إنهم اكتشفوا أن فريدى اشتراكى وأننى كذاب .. هل قلت إن أخى طالب فى الجامعة ؟ صرخوا فى وجهى لابد أن تقول كل ما تعرفه عن كابتيللو.. ولكن إذا لم أكن أعرف كابتيللو فماذا يمكن أن أقول عنه ؟.. يومها أيضا لم أكن أقدر على الحركة . ورأيتهم وأنا راقد على سريري يخلعون ملابس فريدى .. رأيتهم يضعون منشفة كبيرة فى فمه .. أوثقوه من قدميه ومعصميه على سرير معدنى بجوار سريرى .. كل ما كنت أستطيع أن أحركه هو عينى .. وصرخت أقول فريدى لا يعرف كابتيللو و أنا لا أعرف كابتيللو .. صرخت ولكن لم يخرج من فمى أى صوت .. ورأيتهم يضعون على جسم فريدى الأشياء الكهربائية .. ووضع الطبيب سماعته على صدر فريدى لحظة ثم هز رأسه للضابط وانسحب .. ولكن الطبيب ظل واقفا لما شغلوا الكهرباء .. وسمعت شهقة فريدى برغم المنشفة التى فى فمه .. ورأيت جسمه العاري يرتفع عاليا ومقوسا ومشدودا حتى تحرك معه السرير كله واستطعت لحظتها أن أتكلم فقلت..

ولكننا نحن ، فى المؤتمر ، لم نستطع أن نعرف ما الذى قاله بيدرو إيبانيز لحظتها . فجأة توقفت بريجيت شيفر عن ترجمتها السريعة اللاهثه .. فجأة ظلت تتطلع إلينا وقد اتسعت عيناها واستطال وجهها بينما راحت شفتاها ترتجفان.

وفى البدء لم يلاحظ بيدرو الذى كان يتكلم خافض الرأس و واصل الحديث بأسبانيته المتوترة .. ولم أميز من أقواله غير كلمات فريدى .. إدارة الأمن الوطنى.. كابتيللو .. الطبيب .. بينما ظلت بريجيت تحدق فينا وهى تزم شفتيها . كانتا تنفرجان بالرغم منها فتزمهما من جديد . لم تبك ولم يصدر عنها أى صوت.

فقط أخذت تتطلع إلينا بعينيها الزرقاومن الواسعتين . وأخيرا أحس بيدرو أيضا بالصمت فرفع عينيه المحفوفتين بهلالين أسودين.

كان من مولر ينظر إليها أيضا من الناحية الأخرى من المنضدة فمد يده ووضعها على يدها المستندة إلى المنصة غير أنها انتزعت تلك اليد بسرعة كأنها لدغت وغمغمت شيئا لم أتبينه وهى تنهض وتبتعد فى خطوات مسرعة ثم اختفت فى ممر مواجه لنا.

ظل مولر يتابعها ببصره للحظة ثم التفت نحونا وقال معذرة . انتهى الوقت المسموح به للمؤتمر على أية حال . كل ما أستطيع أن أقوله هو أن لجنتنا حققت في الواقعة وتأكدت من كل تفاصيلها : استطاع بيدرو أن يهرب من المستشفى بعد بضعة أسابيع وساعده أصدقاء على الهرب إلى خارج شيلى بعد ذلك ثم عولج فى كندا من مضاعفات خطيرة أصابت صدره بسبب الرصاصة والتعذيب أما شقيقه الطالب فريدى – أو الفريو إيبانيز – فقد مات تحت
التعذيب . كل التفاصيل تجدونها فى النشرات الموجودة عند مدخل القاعة . . ونشكر لكم أى تعارن معنا إذا نشرتم عن هذه الوقائع و. . .

قامت الصحفية التى أمامى لتلتقط صورة لبيدرو الذى كان ينظر إلى الطبيب وإلينا بشىء من الحيرة والخجل . وبعد أن أخذت الصورة جلست وهى تقول بصوت مرتفع : لعنة الله على هذه المهنة!

ورد برنار الصحفى الذى يجلس فى الطرف البعيد من القاعة وهو يقوم من مقعده : أية مهنة ؟ . . الصحافة أو إدارة الأمن الوطني أو الطب أو الكهرباء أو قيادة التاكسي ؟

ثم ركل المقعد المعدني بقدمه وقال : أم هذا العالـــــــــــــم ؟

واستمر صليل المقعد لثوان ثم اختفى .

الفصل الثانى

ماض بعيد .. ماض ميت

وقفت عند مدخل القاعة أقلب فى بقية النشرات . على غلاف واحدة منها كانت هناك صورة لبيدرو إيبانيز وإلى جوارها صورة شاب يشبهه خمنت أنه فريدى . كان مثل بيدرو - واسع الفم غزير الشعر ، يعلو عينيه السوداوين حاجبان كثان ، وكان يلبس قميصا أبيض أزراره مفتوحة عند صدره ويحاول أن يبدو أكبر من سنه بشفتيه المضمومتين فى وقار والنظرة الجادة فى عينيه . ولم أندهش عندما رأيت معظم الصحفيين يخرجون دون أن يلقوا نظرة على هذه النشرات . كانوا ينصرفون مسرعين كأنهم يهربون من المكان كله ومن الحكاية كلها .. أعرف أنه قبل الغداء سنكون جميعا قد نسينا بيدرو وفريدى وشيلى وسيبحث المضطرون إلى إرسال برقيات أو أخبار إلى صحفهم عن موضوعات أخرى . ولكن بينما أقف هناك ربتت يد على كتفى وسمعت من يقول :

- كنت أبحث عنك .

التفت وهتفت فى دهشة : إبراهيم ؟!

نعم ! هو بعينه إبراهيم المحلاوى بعد كل تلك السنين ، أصبح أكثر نحولا وشاب شعره ، وإن لاحظت أنه ظل وسيما فى كهولته مثلما كان فى شبابه . حاولت أن أبتسم وأنا أمد يدى لأصافحه ، غير أنه فجأة أحاط كتفى بذراعه اليسرى وعانقنى بقوة . وأدهشنى ذلك قليلا .

وشعر ابراهيم بجمودى فابتعد عنى خطوة وهو يقول : مضت سنوات طويلة منذ التقينا آخر مرة . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلى وجهى المرتبك وقال وهو يبتسم : أعرف أنك تحفظ الكثير من الشعر . ألا تذكر إذن قول أمير الشعراء :

محا الموت أسباب العداوة بيننا ؟ ..

ماتت أشياء كثيرة يا صديقى خلال هذه السنين ولم يعد للعداوة معنى .

قلت بشىء من الخجل : بالطبع بالطبع .. أمازلت تعمل فى بيروت ؟

– نعم ، أنا هنا فى زيارة عمل ، وصلت بالأمس فقط .

ـ آسف لأننى لم أنتبه إلى وجودك فى المؤتمر وإلا لكنت ..

قال إبراهيم وهو يقلب النشرات ويتصفحها ثم يدس بعضها فى حقيبة جلدية صغيرة : صدقنى ولا أنا رأيتك ولا توقعت وجودك . لا أظن أن صحيفتك تهمها أخبار شيلى .

ولاحظت أنى مازلت أمسك فى يدى النشرة التى عليها صورة بيدرو فأعدتها إلى مكانها وأنا أقول : وهل تهم أية صحيفة أخرى ؟ .. سيكون بيدرو إيبانيز محظوظا لو نشرت أى صحيفة فى العالم حكايته فى خمسة أسطر . أمـــــا صحيفتنا بالذات كما تعلم فإن أهم أخبار العالم فيها لم تعد تتجاوز خمسة أسطر. نحن تطورنا .

ضحك إبراهيم ضحكة خافتة ونحن نبتعد عن مدخل القاعة وقال : نعم . لا أنسى أبدا دهشتى عندما رأيت الصحيفة لأول مرة بعد هذا التطوير . كنت فى بغداد وقتها ووقعت فى يدى نسخة فقرأت عنوانا فى الصفحة الأولى داخل مربع كبير «عرفة للسبتية ودلال للتموين» . ظللت أحدق فى العنوان لفترة وأنا أظن أن هناك أخطاء مطبعية ، ولم أفهم إلا بعد أن قرأت الخبر أنه يتحدث عن تنقلات لبعض الموظفين الكبار أو الصغار الله أعلم . لم أفهم أيضا أن السبتية معناها الجمرك إلا بالقرائن . هل كنت تتخيل فى أى وقت أن تتطور هكذا صحيفتنا الثورية ؟

لوحت بيدى قائلا : لا تفتح هذا الباب أرجوك . هل لديك وقت لنشرب القهوة ؟

– بل ولنتغدى أيضا إن لم يكن لديك مانع.

ظلت حرارته تدهشنى رغم ذلك إلى حد ما . ولكنى بذلت جهدا ونحن نسير فى الطريق ونتبادل أخبار من نعرف من الأصدقاء لكى لا يشعر بأى فتور فى حديثى معه . كنت سعيدا بالفعل لرؤيته رغم أننا لم نكن صديقين حميمين فى أى وقت ،

حتى عندما تزاملنا أول مرة كمحررين فى صفحة الأخبار الخارجية أيام الشباب . كان هو ماركسيا متحمسا يقول إننى مثالى وحالم ، وكان رأيى فيه أنه متحجر وبعيد عن روح الناس . أيامها كنت أقرأ ساطع الحصرى والقوميين العرب وأعتقد مع عبد الناصر أن دولتنا الكبيرة ستقوم غدا ، وعلقت فوق رأسى بالفعل فى صالة التحرير الكبيرة التى تضمنا تلك العبارة من خطابه الشهير يوم الوحدة مع سوريا «دولة عظمى تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد» .كتبها لى خطاط الصحيفة بخط كوفى جميل ووضعتها تحت خريطة الوطن الكبير . وكان إبراهيم يحرص على أن أرى ابتسامته وهو يتطلع إلى تلك اللوحة متظاهرا بالاستغراق فى التأمل فأثور ويبدأ بيننا الجدل والشجار . ولكننى حزنت بالطبع عندما قبضوا عليه بعد ذلك ضمن من اعتقلوهم من الشيوعيين فى سنة ٥٩ وكنت أفتقده . ثم نما بيننا بعد خروجه من المعتقل وعودته إلى الصحيفة شىء من الود كما يحدث بين زميلين قديمين إلى أن جرى بيننا ما جرى قبل خروجه من مصر . ولما جاءت محنة السبعينات التى أدركتنى ورقيت فى الصحيفة مستشارا لا يستشيره أحد ، كان هو يعمل فى العراق ، ثم سافر الى سوريا ، إلى أن استقر فى بيروت منذ سنوات لكى يعمل مع صحيفة تصدرها إحدى منظمات المقاومة هناك .

وبينما نسير فى طرقات المدينة الأجنبية التى جمعتنا على غير انتظار كان كل منا يحاول أن يتغلب على ارتباكه . بذلنا محاولة حقيقية لكى نتكلم كصديقين قديمين التقينا بعد فراق طويل ، ولكن فترات الصمت كانت محرجة لأننا لم نكن نريد أن نعود إلى أى حديث حقيقى عن الماضى . وبدأت أحدثه عن معالم المدينة التى كان يزورها لأول مرة . عبرنا ميدانا فسيحا فى طريقنا من الفندق إلى شاطىء النهر . وكانت تحيط بالميدان مبان من الطراز الرومانى الجديد تحدد مداخلها أعمدة سامقة ، ويتوسطه تمثال رجل أصلع يركب حصانا ويشير بسبابته إلى الأفق بطريقة وقورة ، ورحت أشرح لإبراهيم هذا هو المتحف، وهذه إدارة الجامعة . وهذا الفارس قاد معركة لتحرير البلد من الفرنسيين فى القرن التاسع عشر . حاولت أن أتحدث بأقصى ما أستطيع من التفصيل لكى يستمر الحديث .

وكان إبراهيم يتابعنى مغمغما نعم ، نعم ، حقا ؟ ..

ولكن لما لم يعد هناك ما يقال استسلمنا وسرنا صامتين .

أخيرا قلت لابراهيم : معذرة إن كنت قد جعلتك تسير كل هذه المسافة ، فإننا أحب هذا المقهى وأركن سيارتى دائما بالقرب منه . توقف إبراهيم قليلا عند مدخل المقهى ثم قال : ولكن معك حق كنت سأندم حقا لو تركت البلد دون أن أرى هذا المكان ..

ولم أعرف إن كان قد قال هذا الكلام ليجاملنى أم أن المكان أعجبه بالفعل . أما أنا فكنت أحب بالفعل ذلك المقهى البيضاوى الشكل الداخل فى النهر كصدفة ملقاة على اللسان الصخرى . كان يشغل موقعا هادئا من الشاطىء ويقود إليه ممشى طويل ، تزين الزهور المعتنى بها أحواضا ممتدة على جانبيه.

ولم يكن بالمقهى غير قليل من الزبائن فوجدنا مكانا بسهولة عند نافذة مفتوحة، تطل عبر النهر العريض على الجبل الذى اكتسى فى ذلك الوقت من السنة بخضرة غاباته وحدائقه الشاسعة ، وتناثرت وسط أشجاره البيوت البيضاء بسقوفها القرميدية التى تبرز كأهرامات متدرجة كلما ارتفعت فى الجبل ، إلى أن تصبح عند القمة مجرد مثلثات حمراء دقيقة وسط الأشجار .

قال إبراهيم بصوت خافت حين جلسنا

– كل هذا السلام والسكينة .

خمنت أن بيروت طرأت على ذهنه فى تلك اللحظة ، ولكنى لم أعلق . تركته مستغرقا فى تأمل النهر الذى كانت مياهه الرائقة تندفع بسرعة وترفع موجات فضية متلاحقة تتألق بنور خاطف ، وفى متابعة بجعات بيضاء تسبح فى حركات دائرية وهى ترفع رءوسها الشامخة متطلعة إلى النوافذ فى صمت . ولم يكن البط بجسمه البنى ورقبته البنفسجية اللامعة يكتفى بالتطلع نحونا وهو يحوم بحركات قلقة تحت النوافذ ، بل أخذ يحرك مناقيره ، بنداءات متعاقبة ، فاستجابت له سيدة تجلس بالقرب منا وراحت تلقى له بفتات الخبز .

ظل ابراهيم فترة طويلة ينقل بصره بين النهر والجبل ثم قال وكأنه يتابع

تفكيره :

– كم أنت محظوظ لأنك تعيش هنا .

- نعم ، كم أنا محظوظ .

وأحس إبراهيم شيئا فى لهجتى فنظر إلىّ كالمُعتذر وهو يقول :

– أقصد ...

ولم يكمل . وعندما جاء الجرسون سألت إبراهيم إن كان يريد أن يشرب بيرة، فقال :

ـ ليس فى الظهيرة ، اتفقنا على القهوة ..

طلبنا القهوة وقلت وأنا أبتسم: لم أسمع أنك ترفض البيرة فى الظهيرة أو العصر .

فقال باقتضاب : حكم السن .

ثم أشار إلى رأسى قائلا : وعلى ذكر السن ، كيف حدث أن شعرك ما زال أسود حتى الآن ؟ كلنا شابت رءوسنا فكيف بقيت أنت هكذا؟..

أشرت إلى رأسى أيضا وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : توقف نموى .

فضحك إبراهيم بدوره وقال : لو كان التوقف عن النمو ينفع فى منع المشيب لما ابيض شعرى هذا ولرأيتنى وشعبنا العزيز من المحيط الى الخليج وقد رجعنا أطفالا مرحين فى المهد . كلنا توقف نمونا .

أشرت إليه بإصبعى منبها : لا يصح أن يصدر هذا الكلام عن شخص متفائل مثلك .

فهز رأسه وهو يعاود النظر إلى النهر : نعم لايصح هذا الكلام فى مثل هذا المكان . فلنحاول أن ننسى . كيف حال أولادك ، ناصر وهنادى ؟

ـ تقصد خالد وهنادى . خالد فى السنة الثالثة بكلية الهندسة وسيزورنى هنا قريبا . سيمثل مصر فى مسابقة دولية للشطرنج للشباب فى لندن ، وسيمر على فى طريقه الى هناك وهنادى فى الاعدادية ، لكنى لم أرها منذ الصيف الماضى . أكتب لهما ونتكلم كثيرا فى التليفون .

قال إبراهيم محرجا بعض الشيء : نعم أنا بالطبع سمعت بما حدث بينك وبين منار . تجنبت أن أذكر شيئا حتى الآن لكي لا أبعث ذكريات سيئة ولكنني حزنت كثيرا عندما سمعت مسألة الطلاق . كنت أقدركما دائما أنت ومنار رغم اختلافنا في الرأي . كانت تعجبني شجاعتها في الدفاع عن المرأة .

قلت بحماس مبالغ فيه وأنا أبسط يدي : وأنا أيضا أقدرها كثيرا بطبيعة الحال ، وأعتقد أن صفحة المرأة التي تحررها مازالت هي الشيء الوحيد المقروء في صحيفتنا بعد التطوير .

قال ابراهيم بشيء من الحيرة : إذن لماذا ؟.. كنت تحدثني أحيانا عن بعض الخلافات بينكما وأذكر أنني كنت أدافع عنها دائما وأحملك أنت الخطأ . شيء معين كان يتكرر في هذه المشاجرات واعتدت أن ألومك عليه .. أظن أنك كنت تعترض على قيامها بأعمال إضافية في الصحيفة ؟

– نعم . كنت أعتقد أن الأولاد أحق بأن تقضي معهم وقتا أطول في البيت .

قال وهو يهز رأسه دون اقتناع : ولماذا لم تعتبر أن الأولاد أحق بأن تقضي أنت معهم وقتا أطول في البيت ؟ .. أنت الذي كنت معظم الوقت في الخارج ، إما في الصحيفة أو في الاتحاد الاشتراكي أو في مهامك الصحفية في الداخل أو في الخارج ، لماذا لم يكن من حقها هي أيضا أن تفعل مثلك ؟

قلت لنفسي آه ، لقد بدأنا ! الاتحاد الاشتراكي والصحيفة ، هل هذا الحديث عن منار أم عنك أنت يا إبراهيم ؟ .. تجرني الآن خطوة خطوة لكي تبدأ الحساب، أليس كذلك؟ ولكنني رددت بشكل آلي :

– ربما تكون على حق . كنت أعتقد أن الأمومة أهم من أي شيء آخر . أهم حتى من الأبوة . ربما أكون قد أخطأت هنا ، ولكن على العموم لم يكن هذا هو السبب .

- ماهو إذن ؟

تنهدت قائلا : منذ سنوات وأنا أسأل نفسي هذا السؤال يا إبراهيم .

قال بلهجة استنكار : تعنى أنك لا تعرف السبب فى طلاقك من منار ؟

هززت رأسى نفيا وأنا أقول : كانت هناك مشاحنات كثيرة ، تحدث بين كل زوجين كما تعرف ، ولكنها لم تكن هى السبب الحقيقى .

قطب إبراهيم جبينه وهو يقول بصوت خافت : عادة مايكون السبب الحقيقى امرأة أخرى أو رجلا آخر ولكنى لم أسمع شيئا عن ذلك بالنسبة لك ولا لمنار ، حتى بعد هذه السنين .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : ربما كنتما ..

تردد قليلا فسألته بلهفة أثارت استغرابه : ربما كنا ماذا ؟

فنظر فى عينى مباشرة وهو يقول : ربما كنتما ، أقصد رأيى أنك أنت ومنار كنتما تبحثان عن حب كامل ومستحيل فى هذه الدنيا ، لهذا كنتما تتشاجران لأتفه خيبة أمل تبعدكما عن هذا الكمال المستحيل .

- ربما .

حولت وجهى نحو النافذة لأوحى بأننى لا أريد متابعة الحوار ، وسألت نفسى مرة أخرى : هذا أنا ومنار أم أنت يا إبراهيم ؟ .. ألا تتحدث الآن عن نفسك بالذات ؟ .. وهل كان هذا البحث عن المستحيل هو السبب فى أنك تركت شادية أيام الشباب وفى أنك لم تتزوج حتى الآن ؟ .. ولكن من أنا لأقول ذلك ؟ .. إن كنت أجهل نفسى فكيف أحكم على الناس ؟ .. ولكنه يسألنى عن السبب . تقول رجل آخر وامرأة أخرى ؟ لكم كانت الأمور تصبح سهلة ومفهومة ! تقول بحث عن الكمال ؟ .. ولكننا عشنا معا سنين طويلة وقبلنا الحياة كما هى . لم نتوقع منها أن تعطينا ما تعجز عنه . ومع ذلك فإن النهاية فى ذهنى ضباب كامل . ألغام تنفجر فى الظلام . مشاجرات تتكرر كل يوم وإهانات متبادلة وصلح مؤقت وعتاب على ماحدث فى الماضى وتعهدات للمستقبل قبل أن ينفجر لغم جديد ويرجع كل شىء إلى أوله دون أن نعرف السبب . فكرت كثيرا - لكم فكرت - قلت ربما كان لذلك كله علاقة بما حدث لى فى العمل . لم تكن تفصلنى غير خطوة عن رئاسة التحرير ، ثم جاء السادات فضاع كل شىء وأصبحت المستشار الذى لا يستشيره

أحـد . ولكن منار لم تكن بهذا الضعف لتتخلى عنى لذلك السبب . كانت لها مبادىء . المال لم يكن شيئا مهما فى حياتها منذ البدء . حين تزوجنا لم يكن لدينا شىء واستطعنا بفضل منار أن نجتاز الأيام الصعبة التى لم يكن فيها مرتبى ومرتبها يكفيان لكى نعيش ونربى الأولاد . لم تشك قط ولا تغيرت بعد ذلك حين زاد دخلنا وأصبح يزيد على حاجتنا . لم تكن لها مطالب ، بل كنت أنا الذى أحاول أن أعوضها عن أيام الحرمان الطويل . فكيف إذن لم نستطع أن نتجاوز فترة الفشل بعد أن توقف صعودى فى الصحيفة ، بعد أن أخذت أتراجع بسرعة لأقتصر على باب صغير يظهر مرة كل أسبوع فى صفحة داخلية تزحمها الإعلانات ؟ هل كنا نحن أيضا رغم المبادىء والشعارات ، نقدس النجاح و(الوصول) مثل كل الآخرين معنا فى الصحيفة وفى خارج الصحيفة ؟ فلتعترف . فلتعترف بأنك وقد ملأتك الهزيمة والغضب أصبحت نافد الصبر ، مستعدا للشجار لأهون سبب مع منار ومع غير منار . فلم لاتكون هى أيضا قد نفد صبرها وامتلأت بخيبة الأمل ؟ .. وهل تراها أدركت أيضا أن خيبة الأمل هذه تعنى أنها تتخلى عنى بينما أحتاج إليها أكثر من أى وقت ؟ ربما ، ففى البدء كانت هى التى تبادر الى الخصام وهى التى تبادر الى الصلح . وأدرك الآن – أدرك بصفاء كامل – أن تشبثى بحلم عبد الناصر أيامها لم يكن مجرد إيمان بالمبدأ الذى عشت مقتنعا به، بل كان أيضا تشبثا بحلمى الشخصى . بأيام النجاح والمجد والوصول . وأفهم الآن أن منار التى جمدوا وضعها فى الصحيفة مثلى وبسببى قد اعتبرت عبد الناصر خصما شخصيا لها . فبعد أن اختزلوا باب المرأة إلى ربع حجمه تذكرت أنه سبب النكسة والمعتقلات وكل تلك الأشياء التى كثر الحديث عنها بعد أن مات . نسيت منار تماما دموعها الغزيرة حين أعلن التنحى بعد الهزيمة وصرختها الملتاعة «هل كانت تنقصنا هذه المصيبة بعد سيناء؟» نسيت فرحتها عندما رجع عن التنحى ونسيت إغماءتها وانهيارها الطويل بعد موته . أصبح هجومها على عبد الناصر ودفاعى المستميت عنه حيلة لتنفيس توتراتنا لا أكثر ، وتحول الزعيم إلى مجرد لعبة بيتية قديمة يضرب بها أحدنا الآخر فى المشاجرات

ثم نلقيها جانبا لنعود إليها مرة أخرى بعد حين . وظننت حين ألفت كتابى عن عبد الناصر ونشرته على نفقتى أن ضجة كبيرة ستحدث وأننا سنسترد، هو وأنا بعضا مما فقدناه . رددت بالوثائق وبالأدلة التى عاصرتها على كل التهم التى وجهت إليه ، ولكن الكتاب صدر وصدرت معه الأوامر السرية إلى أكشاك الجرائد والمكتبات بإخفائه فلم يره أحد ، حتى من أهديتهم الكتاب من الزملاء والكتاب الذين تصورت أنهم سيهتمون ، لم يعلقوا عليه . لا هجوم على الكتاب ولا تأييد . بل صمت الموت ، والنسخ البائرة التى عادت لتتكدس فى البيت هى شاهد القبر . وفى تلك الهزيمة الجديدة لم تتعاطف معى منار أبدا كما كانت تفعل من قبل . كانت تشير إلى الكتب المكدسة فى الأركان بتأفف وتقول ستجمع لنا التراب والحشرات . ومع ذلك ، فلتعترف أيضا . لم تكن حكاية الكتاب هى السبب ، ولا كانت السياسة هى السبب . ألا تذكر مرة أننا تعاهدنا على ألا نتكلم عن عبد الناصر أو السادات ولا عن أى شىء آخر نختلف عليه ؟ فما الذى حدث ؟ لم نكن هى أو أنا قد أدركنا بعد أن حديث السياسة لا ذنب له فى الهوة التى انفتحت بيننا ، وأننا حين كففنا عن ذلك الحديث أصبحت المشاحنات تأتى أيضا سريعة وعنيفة دون أن نعرف لماذا . أكون أنا المخطىء أو تكون هى المخطئة ولكن الخلاف الذى ينشأ من نبتة صغيرة معروفة البذرة سرعان ما يتشعب من تلقاء نفسه . سرعان ما تستدعى إهانات الماضى وتقصيراته وعندما قلت أنا ذات يوم وعندما قالت هى ذات مرة ، وعندما كنت أعدها أيام الخطوبة ونحن نمشى على الكورنيش بأننى .. ثم كلام ثم كلام ثم كلام إلى أن نجد نفسينا فى النهاية وسط غابة كثيفة من الأقوال نتخبط وسط أغصانها الجارحة وندمى معا دون أن نعرف طريقة للخروج ، ولم يبق حلٌ سوى أن يخرج أحدنا من الآخر . لماذا ؟ ما السبب ؟ ..

كانت يد تربت على يدى فانتبهت وأنا أقول : لم يكن هذا هو السبب .. !

– السبب فى ماذا ؟

لم أرد . فواصل إبراهيم بصوت خافت : أنا آسف صدقنى لم أكن أعرف أن المسألة مازالت تؤثر فيك إلى هذا الحد .

قلت بنبرة احتجاج : أية مسألة . أنت مخطىء !

فرد ابراهيم بشىء من الارتباك : منذ مدة وأنت شارد ، كنت أيضا تحرك شفتيك و ..

ثم لم يكمل . ولكن غضبا كان يغلى فى داخلى على منار وعلى ابراهيم وعلى العالم كله فقلت :

– اسمع يا إبراهيم ، فلنفقأ هذا الدمل ولننته منه !

بدت فى وجهه حيرة وهو يقول : عن أى شىء تتكلم ؟

– حكاية وقفك عن العمل ! .. نعم! أنا الذى طلبت ذلك بحكم مسئوليتى !

فقال إبراهيم وهو يواصل الربت على يدى : إنس ذلك . أنا نسيته، ألم أقل لك محا الموت أسباب ..

ولكنى أبعدت يده بنوع من العنف قائلا : ولكن أنا لم أنس . سأقول لك أسرارا لم تعرفها ..

احتقن وجه ابراهيم ولوح بيده نافد الصبر وهو يقول : أى أسرار تريد أن تشرحها لى فى سنة ٨٢ عن أشياء حدثت فى سنة ٦٩ ؟ ما أهمية ذلك الآن ؟ قلت لك إنى نسيت هذه الحكاية ..

– ومع ذلك فيجب أن تعرف أن هذا المقال الذى كتبته عن بيان ٣٠ مارس وقلت فيه إن الحكومة تتصور أن اليمين يمكن أن يخلص للثورة وأنّه ممكن أن ينفذ الإصلاحات ..

قاطعنى إبراهيم بشىء من التأفف : قلت لك هذه أشياء انتهت ! بيان ٣٠ مارس حقا !! انزل الآن يا صديقى إلى أى شارع فى القاهرة واسأل الناس عن بيان ٣٠ مارس . إن وجدت فى مصر كلها عشرة أشخاص يذكرون ماهو هذا البيان فتعال نتحاسب ! .. ثم بدا أنه يبذل مجهودا لكى يبتسم وهو يقول : ياسيدى أين نحن من تلك الأيام ! ارجع لنا هذا الزمن ثم أوقفنى عن الكتابة كما تشاء . هل يرضيك أن أقول إننى أخطأت حين كتبت هذا المقال ؟ .. كان معك حق فى كل ما قلته عن عبد الناصر أيامها وكنت أنا المخطىء ..

ثم تذكر شيئا فاتسعت ابتسامته وهو يقول : وبالمناسبة هل تعرف لقبك الآن في القاهرة ؟ وصل إلينا في بيروت أنهم يسمونك في مصر منذ كتابك عن عبد الناصر أرملة الفقيد ..

تظاهرت بالابتسام وقلت : نعم ، سمعت اللقب . ولكن أنت على الأقل تعرف أنني كنت أدافع عن عبد الناصر قبل أن يموت وبعد أن مات . لم أغير موقفي وكنت معه عن عقيدة ..

فقال إبراهيم وهو يحول وجهه عني من جديد . نعم ولكن هذا لم يمنع أبدا أنك كنت في عهده ترتقي في الصحيفة كالصاروخ وتسافر في كل المهام الصحفية للخارج أيام كان السفر للخارج أصعب من السفر للقمر ..

قلت منتفضا: ماذا ؟ .. هل رقيت إذن لأنني كنت أنافق أو لأني كنت محسوبا على أحد ؟

- لا أقصد هذا .

- إذن فماذا تقصد ؟ .. كنت أظن أنني صحفي أعرف كيف أكتب .. كنت أظن أيضا أني أول صحفي دخل بورسعيد سنة ٥٦ والقنابل تسقط فوقها وأنني لم أكتب عن حرب اليمن من مكتبي ، بل كنت مع الجنود في الجبال . ولكن هذا كله لا أهمية له الآن بطبيعة الحال ..

رفع إبراهيم يده أمام وجهي وهو يقول : لا أشك في أنك كنت تكتب عن اقتناع المسألة هي ..

ولكني لم أكن أسيطر على نفسي . كنت أرتعد وأنا أتكلم : قل لي من فضلك ما تعنيه بهذا الكلام . ألم يغير كثير من الصحفيين جلودهم لكي يبقوا في مناصبهم ؟ .. ألم يتسابقوا على لعن سياسته التي كانوا يسبحون بها لمجرد إرضاء السادات ؟ .. هل فعلت مثلهم أنا ؟

- بالطبع لا . أنا آسف حقيقة . قلت لك لم أقصد أن ..

- لا ، بل تقصد ! ثم ماذا حدث أيام سيطرت أنت وأصدقاؤك على الثقافة في البلد ؟ .. ألم تفصلوني أيامها من لجنة الثقافة الجماهيرية ؟

- من فعل ذلك من فضلك ؟

- أنتم: الشيوعيون .

- هذه أوهام !

كنت أعرف أن صوتى قد ارتفع وأن عيونا ترمقنى فى المقهى ولكنى لم أبال :

- بل هى حقائق . كنت أحب الرجل وما زلت أحبه . أراد أن يغير الحياة فى بلادنا فحاربتموه أنتم وغيركم .

ضرب إبراهيم كفا بكف واحتد أيضا وهو يقول : لا ! هذا يزيد على الحد ! كيف حاربناه نحن وأين حاربناه ؟ فى معتقل الواحات أو فى معتقل القناطر ؟ أو ربما نكون نحن الذين حاربناه فى اليمن وسيناء دون أن أدرى ! .. انظر إلى الأمور كما هى ياصديقى . لم نكن نحن أبدا السبب فيما حدث . بل ها نحن ندافع عنه الآن رغم كل ماجرى لنا ..

- بعد أن ضاعت الفرصة ..

- ومن الذى ضيعها ؟ولكن قبل أن أرد مد إبراهيم يده فى وجهى بسرعة وقال: اسمع . هل يمكن أن نوقف هذا النقاش ؟ .. اعتذرت لك وها أنا أعتذر مرة أخرى . سامحنى إن كنت قد جرحتك . أعترف أنى أخطأت .. ثم أخذ يدق على المنضدة بسبابته وهو يقول : كل ذلك ماض . ماض بعيد . ماض ميت . ألا تفهم ؟

لاحظت أمامى فنجانا من القهوة فمددت له يدا مرتعشة وحين أخذت منه رشفة وجدته باردا . ركزت عينى فى النهر ومرت فترة طويلة لم أكن أرى فيها شيئا ولكنى أفقت على حركة فوق السطح الساكن وضجيج . كانت هناك بجعة ترتكز على ذيلها وتشب بجسدها تكنس بجناحيها الأمواج بسرعة مخلفة وراءها خطين متوازيين من الزبد الأبيض . وذعرت بطات رمادية صغيرة كانت تسبح متراصة خلف أمها فاندفعت نحو الحاجز الصخرى أسفل النافذة وهى تصيح بأصواتها الرفيعة وتهز ذيولها التى لم ينبت فيها الريش بعد . أما البجعة فسكنت أخيرا وراحت تنزلق فوق الماء بجلال وهى تتلفت ببطء نحو اليمين واليسار .

رشفت بقية فنجان القهوة البارد فى جرعة واحدة وقلت أقطع الصمت :

– اسمع يا ابراهيم . أنا أيضا آسف وأرجوك أن تسامحني . لم يكن هناك معنى لما حدث الآن وأنت هنا ضيفي .. لم تقل لي أولا لماذا جئت إلى هذا البلد ؟

– أكتب موضـوعا للجريدة التـي أعمل فيها و ..

ثم سكت لحظة قبل أن يكمل : وبالمناسبة أشكرك لأنك لم تفعل مثل أصدقائي المصريين الذين يقابلونني في الخارج فيسألونني بلهفة واهتمام كيف الحال في بيروت ؟ .. كأنهم لايقرءون في الصحف ما يكفيهم .

– ربما كنت أنا أيضا سأسألك لولا هذا التنبيه ، مع أن شاعرا كبيرا أخبرنا منذ وقت طويل بما يحدث الآن في لبنان ..

قال إبراهيم باستغراب : شاعر ؟

– نعم ، أخبرنا منذ سنين بما يجري الآن حين قال : نحن من بيروت مأساة ولدنا بوجوه وعقول مستعارة ..

تولد الفكرة في السوق بغيا ثم تقضي العمر في لفق البكارة .

كرر ابراهيم : تقضي العمر في لفق البكارة .. ما أصدقها من صورة ! .. كل الأفكار العاهرة تسمي نفسها الآن مبادىء وتزني بالحقيقة . (ثم رفع إصبعه منبها وهو يقول) ولكن ليس في بيروت وحدها . من هو هذا الشاعر ؟

– خليل حاوي .

قطب حاجبيه قائلا : لا أعرفه . هل هو قريب جورج حاوي ؟

– كيف أدري ؟ .. كل ما أعرفه أنه شاعر وأني أحبه .

وخطر لي أننا في الماضي كنا نعرف رجال السياسة بفضل الشعراء . عرفنا سيف الدولة وكافور بسبب المتنبي .. لا العكس – ولكننا نريد اليوم أن نعرف الشاعر بالسياسي .

نقتل شعراءنا بالصمت ونقتلهم بالنسيان . وأردت أن أسأل إبراهيم : إن صح أن الشعراء هم ضمير الأمة ، فما مصير الأمة التي تنسى شعراءها ؟ ..

غير أني بدلا من ذلك نظرت في ساعتي وقلت :

– ولكن هناك الآن سؤالا مهماً آخر لم نسأله . كيف سنأكل ؟ تجاوزت الساعة

الثانية ومعنى هذا أنهم أغلقوا المطبخ هنا وفى كل مطعم آخر فى البلد .

هز إبراهيم رأسه قائلا : ولكنك لم تفكر .. أقصد أننا لم نفكر فى السؤال المهم فى الوقت المناسب !

طلبنا شطائر خفيفة وأنواعا من الحلوى التى يقدمونها فى ذلك المقهى ووعدت إبراهيم بأن نعوض ذلك بوجبة دسمة فى العشاء ، ورحنا نتكلم ونحن نأكل عن زملائنا فى الصحيفة وعما حدث لهم خلال تلك السنين المليئة بالتقلبات . نتحدث عمن صعد نجمهم على غير توقع وعمن أبعدوا دون إنذار تطبيقا لسياسة السادات فى الصدمات الكهربائية . وسألنى إبراهيم : ولكن كيف جئت أنت بالذات إلى هذا البلد ؟

قلت ضاحكا: أظن أن السبب هو مكتبى .

قال إبراهيم فى دهشة : أى مكتب ؟

أشرت بيدى فى حركة دائرية تصور مكانا وأكملت :

ـ المكتب . الغرفة التى أجلس فيها فى الصحيفة . كان مكتبا كبيرا كما يليق بنائب رئيس تحرير ، وكان هناك كثير ممن ارتقوا يطمعون فيه ولكنى كنت هناك كالهم على القلب ولم يعرفوا كيف يطردوننى منه . أظن أن إبعادى كان مقررا من أول يوم فى انقلاب السادات غير أنهم فوجئوا بأن اسمى لم يكن فى قائمة التنظيم السرى للاتحاد الاشتراكى ولا فى أية قوائم أخرى . وكنت أيامها عضوا منتخبا فى مجلس النقابة فتحملونى على مضض . رقونى إلى مستشار للتحرير لكى لا أفعل شيئا ولكنى ظللت رازحا فى مكانى . ولما فتحوا مكتبا للصحيفة هنا كان ذلك يناسبنى أيضا .

ولم أقل لابراهيم أننى رحبت بذلك الابعاد لكى أهرب من مصر كلها بعد الطلاق .

ولكن طوال حديثنا عن الصحيفة وعن زملاء العمل كنت أفكر فى شادية فى ذلك اللغز الذى لم افهمه أنا ولا غيرى طوال تلك السنوات ، شادية ، الرشيقة الجميلة ، أجمل زميلاتنا من المحررات أيام بدأنا العمل . أحبت ابراهيم وأحبها

وكنت أقول لنفسي هذا هو الانتخاب الطبيعي لان ابراهيم كان جذاباً ايضا بجسده الرياضي الفارع وعينيه البنيتين النفاذتين ، تلفت وسامته النظر على الفور وإن لم يعن بملابسه أبدا على أساس أن الأناقة من قبيل البرجوازية الفارغة ! ظلت شادية وفية له في سنوات الاعتقال وصدت محاولات كثيرة للتقرب منها ، بل قبلت الاضطهاد الذي اصابها في الصحيفة باعتبارها صديقة لأحد «أعداء الثورة» كما كان يقال أيامها . ولكن فور خروج ابراهيم من المعتقل انقطعت العلاقة بينهما وتوسطت أنا أيامها مع من توسطوا من الزملاء للصلح غير أننا لم نفلح ولم تعط هي أو إبراهيم أي تفسير لما حدث . ثم فاجأتنا شادية بأن تزوجت بعد ذلك بقليل من صراف الصحيفة الذي كنا نسميه «عم عبد اللطيف» بسبب وقاره المبالغ فيه وبطء حركاته وإشاراته . وأنجبت شادية طفلها الأول بعد سنة بالضبط ثم أدهشتنا مرة أخرى حين طلبت نقلها من التحرير الى الإدارة وعملت موظفة في قسم الحسابات . بعدها تلاشت شادية التي نعرفها . ترهلت ولم تعد تهتم بمظهرها بالمرة . كانت تلبس باستمرار فوق فستانها في الصيف والشتاء شيئا يشبه المعطف واسع الكمين وبدون أزرار ، وهي تربط شعرها بإيشارب وتكرر للزملاء بضحكة سعيدة أنها تفعل ذلك لأن «سي عبد اللطيف» يغار عليها جدا . أراها تتنقل بين المكاتب وهي حامل أو منتفخة البطن كالحامل، تقف فترة على باب كل مكتب تسأل عن أخبار المحررين والموظفين في الصحيفة وتنقل الأخبار من مكتب الى آخر لأنها كما تقول وسط الضحكة المجلجلة التي تعلمتها «تموت في النميمة» . ولم أكن أصدق نفسي أن هذه هي شادية . هي نفسها تلك المحررة التي كانت تجلس إلى مكتبها هادئة معظم الوقت ولكنها تشتعل بالانفعال والحماس وهي تتحدث عن حركة للتحرير في أفريقيا أو عن تطور الهجرة الى اسرائيل أو عن معجزة الاقتصاد في اليابان . بدا أنها نسيت هذه الأشياء تماما وظللت أتساءل إن كانت هزيمة في الحب يمكن أن تفعل ذلك بالانسان ؟

لم أطرح هذا السؤال أبدا على إبراهيم ولكننا ونحن نجلس الآن في المقهى في تلك المدينة الأجنبية نحتسي القهوة صامتين بعد وجبتنا الخفيفة وبعد أن أبدى

رغبته فى أن نبقى فترة أخرى فى ذلك المكان ، لم أستطع أن أمنع نفسى .

قلت لإبراهيم وكأنى تذكرت شيئا : بالمناسبة وما دمت قد سألتنى عن منار فسأسألك أنا أيضا سؤالا حيرنى كثيرا ، لماذا انفصلتما أنت وشادية ؟ لماذا تركتها أو لماذا تركتك هى ؟

قال ابراهيم دون أن يحول وجهه عن النافذة : وأنا سأرد عليك كما رددت أنت. أتظن أن معرفة ذلك تفيد الآن بشىء ؟

ثم التفت نحوى مكملا : ومع ذلك فإن لى صديقا يقول يجب ألا يخفى الانسان شيئا بعد سن الخمسين . لا معنى بعد ذلك للاسرار ولا لاخفاء أى شىء . نعم ، كنت أحبها حقا ، ولم أحب فى حياتى واحدة مثلما أحببتها . ولما طالت سنوات الاعتقال كتبت لها من السجن أنى أحررها من الارتباط بى . وإلى هنا فلم يكن هناك بأس ، ولكنى .. «بدا على ابراهيم التردد لثوان ولكنه اندفع يكمل» كتبت لها أيضا أنها إن ارادت انتظارى فهى حرة فى أن تسلى نفسها بالخروج مع من تشاء من الرجال ..

قلت مبهوتا : لا يقول الرجل شيئا مثل هذا لامرأة فى بلدنا يا ابراهيم .

- ولا فى أى بلد آخر ياصديقى . ولكن هذا هو ماحدث . لو سألتنى الآن لماذا كتبت تلك العبارة المشئومة فسأرد عليك بأنى لا أعرف . هل كنت أريد بالفعل أن أحررها من الارتباط بشخص لا مستقبل له ؟ ربما . وربما كان هناك سبب آخر، يتغير الانسان فى السجن . العواطف المشبوبة فى خارجه تنطفىء داخل أسواره . كانت رسائلها إلى ، على قصرها ، ملتهبة بالحب والشوق ، وكانت السطور التى أكتبها إليها خابية كالرماد ، فاترة كأداء واجب ثقيل. لابد أنها فهمت بالتدريج أن حبى لها قد مات . كانت شجاعة وأصيلة حين ظلت متمسكة بى كل هذه السنين . ربما راودها الأمل أيضا فى أن الأمور ستتغير بعد الخروج من السجن لكنها بعد الغفران وبعد الانتظار الطويل رأت شخصا آخر غير حبيبها القديم . رأت بالفعل كاتب تلك السطور الفاترة . وكان عبد اللطيف هناك . كانت تشعر بحبه المكتوم لها مثلما تشعر بذلك كل امرأة . وكانت تعرف أن الصراف لا يحلم مجرد حلم أن

تبادله المحررة الموهوبة حبه . ظلت بالنسبة له معبودة عصية أبعد من النجوم ، أظن أن هذا العشق العابد هو ماكانت تحتاج إليه وقتها ، هو ما كانت مستعدة لأن تضحى من أجله بكل شيء ..

لعلها لو انتظرت قليلا ..

ولم يكمل ابراهيم ما كان يفكر فيه .

غمغمت قائلا : نعم ، لماذا ندمر أنفسنا بأيدينا ؟

لم يبد أنه سمعنى ، كان وجهه الآن يكسوه حزن عميق ولكنه هز رأسه وحاول أن يتكلم بنوع من الاستخفاف وهو يقول : ولماذا تسألنى عن شادية وحدها ؟ ما حدث معها تكرر مع غيرها. لم أنجح فى الارتباط بأية امرأة . عرفت فى حياتى بعضا من النساء وحين كنت أعرف فتاة متحررة ومثقفة كنت أجد نفسى دون أن أدرى أشعر بحنين للسذاجة والبراءة ، وحين التقى بفتاة بسيطة ينتابنى بعد فترة الضيق وعدم الاقتناع ، أجد أنى أحتاج أيضا إلى عقل أتحاور معه ، وهكذا .. أظن أنى ضيعت عمرى أبحث عن واحدة تجمع بين كل المتناقضات ولم تخلق بعد ..

- أو ربما كان يلزمك شيء من التواضع .

- ربما ، ولكن الوقت فات على كل حال . فى سنى الآن لم تعد المرأة تشغلنى كثيرا ، سيكون أفضل من هذا أن نتحدث عن أشياء تفيد فى العمل . سأبقى هنا أياما قليلة وأمامى عمل يمكن أن تساعدنى فيه .

انحنيت فى اتجاهه وأنا أخفض صوتى : إذن سأحدثك عن أول شيء يفيدك فى العمل ولن نبعد كثيرا عن الموضوع .. هل ترى هذه الفتاة هناك ، التى تجلس عند النافذة تقرأ فى كتاب ؟

نظر إبراهيم نحوها وكانت تعبث بخصلة من شعرها الأشقر القصير وهى منهمكة تماما فى القراءة ، وتبدو مثل طالبة تلبس بنطلونا من (الجينز) وحذاء من المطاط .

حول إبراهيم عينيه عنها وقال بلا مبالاة : هى صغيرة جدا وقد قلت لك إنى لم

أعد مهتما بالنساء ..

- ولكن صدقنى إنها هى مهتمة بك جدا . لاحظتها تجلس فى صالة الفندق الذى كان فيه المؤتمر بهذا الانهماك نفسه فى القراءة .

- ولكن لماذا ؟ .. ثم استدرك فجأة وهو يضحك : غير معقول ! حتى .. هنا ؟

- وبالذات هنا ! أتظن أنك تأتى مندوبا لصحيفة فلسطينية ، ويسارية أيضا ، ثم تتركك الديمقراطية تغيب عن عينيها ؟

قال إبراهيم وهو مستمر فى الضحك : وهل يتابعونك أنت أيضا ؟

- لا ، أنا صحفى من بلد مسالم ووديع .

ألقى إبراهيم على الفتاة نظرة عابرة أخرى ثم هز كتفيه باستهانة وهو يقول : هذا شىء تعودنا عليه فى كل بلد ، وبما أننى لا أفعل شيئا غير أن أكتب فهو لا يعنينى. الأفضل أن تحدثنى عن شىء آخر ، ماذا عن البلد والناس هنا مثلا ؟

أردت التهرب لكى لا نختلف مرة أخرى فقلت له إننى لا أعرف كثيرا من الناس هنا لأنهم لا يحبون الأجانب ولا يختلطون بهم . فردّ بيقينه القديم الذى لا يتزعزع أنت لاتختلط بالشعب . لو عرفت بعض اليساريين مثلا لرأيت صورة مختلفة من الحياة . ورفض أن يصدقنى حين قلت له إننى لا أرى فرقا هنا بين يسار ويمين وإنهما عندما يتوليان الحكم يتساويان على الأقل فى استغلال بلاد عالمنا الفقير ، ويبتزوننا بالديون . كان إبراهيم يهز رأسه مستنكرا ويكرر اننى أعيش فى أوروبا دون أن أراها ، وانها مازالت رغم كل شىء هى الأمل فى المستقبل ..

وواصل إبراهيم بانفعال : أنا لا أتكلم حتى عن العلم أو عن الحضارة بل عن الانسانية ذاتها يا صديقى . قل لى من فضلك كم طبيبا عندنا فى مثل سن الدكتور مولر أو أصغر منه يتطوعون للدفاع عن المظلومين فى العالم أو حتى فى بلدهم نفسه ؟ أو كم مهندسا أو كم قانونيا أو صحفيا ؟ .. سأقول لك شيئا .. فى المستشفيات وفى المخيمات فى بيروت رأيت ممرضات متطوعات من السويد ومن هولندا ومن انجلترا ومن بلاد أخرى كثيرة فى أوروبا . يعرفن ما الذى ينتظرهن

وسط الحرب الأهلية والقتل المجنون . واحدة منهن لابد أنك قرأت عنها فقدت أطرافها برصاص الكتائب فى تل الزعتر ، لكن زميلاتها بقين هناك ..

- ولكن لابد أنه توجد ممرضات عربيات أكثر منهن ...

أطرق إبراهيم برأسه وقال : نعم ، ويوجد أيضا صحفيون عرب مثلى ذهبوا لأنهم يؤمنون أن القضية قضيتهم ، فلا فضل لهم إذن إن ذهبوا .. نحن ذهبنا ندافع عن أنفسنا لاغير ، والبعض منا أيضا موظفون يتقاضون أجرا . ولكنى لا أتكلم عن ذلك ، أنا أتكلم عمن يتطوع . عمن يعطى من نفسه للآخرين ، بالفعل لا بالكلام العالى الصوت . أتحدث إن شئت عن الإنسانية التي لا تراها أنت هنا وأراها أنا هناك كل يوم . نعم أعرف من العرب عشرة أطباء متطوعين أو عشرين أو ثلاثين . مائة فدائى أو مائتين أو ألفا . ولكن هل هذه ياصديقى هى العروبة التى عشت تحلم بها ؟ .

زفرت وأنا أقول : عندى من الهموم ما فيه الكفاية.يا إبراهيم فأرجوك أن تسكت .إذا سألتنى أين هم العرب فسوف أسألك أنا وأين هم عمال العالم الذين اتحدوا ؟ لا تدعنا نختلف مرة أخرى .

ثم قلت لكى أغير الحديث : ولكن جاءتنى فكرة بعدما قلت ، هى أن نتبادل أماكننا تأتى أنت هنا لتعيش فى أوروبا مع اليسار الذى تحبه وأذهب أنا إلى بيروت ..

فقال مقطبا : ولماذا لم تفعل ذلك من الأصل ؟ .. أنا لا أريد أن أعيش هنا ؟ ولكن لماذا لا تأتى أنت إلى بيروت ؟ ..

- لم تكن أمامى فرصة للاختيار . تعرف أن صحيفتنا ليس لها مكاتب فى أى بلد عربى منذ الصلح . وأنا أحتاج للمرتب لكى أربى الأولاد ، ليس لدى أى دخل آخر .

ولكنى شعرت بأن إبراهيم لا يتابعنى. كان ينظر الى ركن معين فى المقهى وقال :

- إن كنت حقيقة لاتعرف أحدا فى هذا البلد فسأعرفك أنا على أجمل واحدة فيه ..

تابعت اتجاه عينيه فوجدت بريجيت والدكتور مولر يجلسان الى منضدة قرب المدخل .

حولت بصرى عنهما قائلا : أنت من المؤكد لا تعنى ما تقول ! .. دعها فى حالها يا إبراهيم. يكفى ما جرى لها من تلك الترجمة التعيسة .

فنهض وهو يقول : معذرة إن لم يكن عندى وقت لمثل هذه الحساسية . أنا صحفى لدى عمل هنا وأريد أن أتكلم مع مولر ومع هذه الجميلة ...

عندما كان إبراهيم يتجه إلى حيث تجلس بريجيت ومولر ، تابعته (الطالبة) بعينيها دون أن ترفع رأسها من الكتاب . وحولت أنا نظرى نحو النافذة . كانت هناك سحب خفيفة تنتشر فى السماء تغطى قرص الشمس وإن لم تحجبه ولكن مياه النهر فقدت التماعها وبدا سطحها المتموج بلون الزئبق وهجع البجع والبط قرب الشط ، غمر المكان كله سكون غريب لكنه لم يغمرنى .

أخذت كل الأشياء التي تحاورت فيها مع إبراهيم تتداخل ، لا تفسر شيئا ولا تضيء شيئا ولكنها تتقاطع وتتكاثف وتنتهى الى طرق مسدودة . بعثنا الماضى فإذا كل الألغاز حية مثلما كانت فى الأمس البعيد . هل عرفت مثلا لماذا انفصل هو عن شادية ؟ ليكن أنه قد فعل ما فعل فلماذا لم يشرح لها بعد خروجه من المعتقل أنه لم يكن يقصد إهانتها ؟ .. لماذا لم يشرح لها ولماذا لم تغفر له؟ ولماذا كان يجب أن تدمر نفسها بعد ذلك ؟ أين هو العطب الذى ينهشنا ويسبب الدمار ؟ ولماذا فسدت الأمور بينى وبين منار ؟ أعنى الحقيقة ولا أعنى تلك التفاصيل التى تحدث آلاف المرات كل يوم بين الأزواج ، أذكر جيدا تلك الصحراء من الصمت التى عشت فيها مع منار شهورا وشهورا قبل الطلاق . نتجنب أن تلتقى عيوننا ونهرب أن يجمعنا مكان واحد مع خالد وهنادى . كنا محاربين استسلما للعدو لايجرؤ أحدهما أن يرفع عينه فى وجه الآخر من الخزى . ولكن من كان العدو ؟ .. ما الذى اكتشفته فى أو الذى اكتشفته أنا فيها ؟ .. أراها الآن فى ليلة بعيدة أبعد حتى من صدور كتابى الميت . كنا مدعوين إلى العشاء عند أحد الأصدقاء .

وقفت أنتظرها وهى تتزين أمام المرآة . بعد أن انتهت تحسست بيدها العقد الذى ينتهى بقلب ذهبى ، وكان هدية قديمة عدت بها مرة من أحد الأسفار . قالت متبرمة أظن أن كل صاحباتى ستمن من رؤيتى بهذا العقد . كل واحدة عندها أطقم من المجوهرات تناسب أزياءها وأنا لاشىء عندى غير هذا العقد . أفلتت منى العبارة دون قصد وأنا أزفر : لم ينج من هذا الانفتاح أحد .. هل تعمدت هى أن تتحدث عن العقد أو هل تعمدت أنا أن أذكر الانفتاح ؟ لا أظن . ولكنها التفتت نحوى فجأة بعينين محتقنتين وقالت بصوت خافت وشفتين مرتعشتين لاتتكلم عن الانفتاح من فضلك ولا تتخذ هذه المواقف السامية . أنت .. أنت شخصيا أول الانفتاحيين ومن قبل أى انفتاح . لم أكن أنا التى طلبت السيارة المرسيدس ولا هذه الشقة فى جاردن سيتى . كنت قانعة ببيتنا الصغير فى الجيزة ولم أطلب شيئا . قلت ولكنى كنت أحاول أن أسعدك يا منار أنت والأولاد . تعرفين أنى دفعت كل ما أملك من أجل السيارة والشقة . هل سرقت لكى أفعل هذا ؟ .. تكلمت وجسدها كله ينتفض لا ، لم تسرق . فقط كنت تدخر العملات الصعبة وأنت فى مهامك الصحفية الثورية ثم تعود لكى تغيرها فى السوق السوداء وتشترى وتشترى . قلت لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ، فصرخت وهى تنزع العقد من رقبتها إذن لا تعطنى دروسا عن الانفتاح ولا عن غيره . لا تعطنى دروسا من فضلك . استبد بى الغضب وأنا أقول لها لم ألاحظ مع ذلك أنك ترفضين شيئا مما أشتريه ، لماذا قبلت السيارة والشقة دون أن أسمع منك كلمة ؟ .. فقالت وهى تلوح بسبابتها فى وجهى مع كل كلمة : أنا لم أطلب شيئا . وأنا لم أقل إنى ثورية . وأنا لم أحك قصصا عن فقرى فى القرية وعن عذاب الفلاحين وعن العدل الذى ستأتى به الثورة .. ثم ازدادت اقترابا منى وهى تقول : وأنا لم أهاجم الانفتاح ! رددت عليها .. بماذا رددت ؟ لا يهم . لا يهم . ولكن هل كان ذلك إنذارا بأنها قد تحررت من شىء ما ؟ .. ربما فبعد ذلك بقليل بدأت منار مشاريعها الخاصة ، بدأت تدخر لحسابها وبدأت تشترى الفضة من خان الخليلى ثم تعيد بيعها عندما ترتفع الأسعار . وقالت لى ذات يوم بطريقة عابرة إنها

اشترت (ربع تاكسى) وكانت تلك أول مرة أعرف فيها أن الانسان يمكن أن يشترى كسور التاكسى . وذلك قبل أن يصبح التاكسى كله ملكها وقبل أن تشترى من النقابة بالتقسيط قطعة من الأراضى التى أعلنوا عنها فى الغردقة وقطعة أخرى فى الهرم .

ولكن مرة أخرى على أى شىء تلومها ؟ لم تبتذل منار نفسها أبدا وهى تفعل ذلك. ألا تذكر أيامها زميلات محترمات كن يبعن فى مكاتب الصحيفة ذاتها الملابس المستوردة والنظارات والأدوات الكهربائية وزملاء محترمين كانوا يعملون بتجارة «الشنطة» بين القاهرة وبيروت؟ على أى شىء تلومها ؟ .. لا ألومها ولكنى أسأل : كيف وصلت الى ذلك وهى التى لم تهتم عمرها كله بالمال ولا بالاقتناء ؟ .. هل كانت تنتقم منى ؟ .. ولماذا ؟ .. أنت الذى قدمت لها المبرر على أية حال . لم تفعل سوى ما كان يفعله غيرها ولم تفعل أنت سوى ما كان يفعله غيرك . كنت أنت أيضا تشترى وتشترى .. لماذا ؟ .. ومتى بدأت الكلمات تصبح مجرد كلمات ؟ الثورة والعروبة والاشتراكية والعدل ؟ .. كلمات للمقالات وللندوات ولكنها ليست للحياة ! لم أفعل سوى ما كان يفعله غيرى ! ..أن نقنع الآخرين بكلماتنا .. بالعدل والمساواة والثورة والتضحية، ولكننا نعيش مع ذلك كله فى درجة أرفع . فى رفاهية أكثر لكى يواتينا الإلهام ! لم أر ولم ير غيرى أى تناقض فى ذلك كله . ولكن منار كانت ترقبنى وفى عينيها الإدانة حين التقى بأصحابى ونطلق الكلمات الرنانة .. أرأيت ؟ .. الانتفاضة ! ١٨ ، ١٩ يناير .. الشعب يتحرك .. النهاية تقترب! أرأيت؟ الشاه والسادات فى أسوان ، تصور ؟ .. مصر تريد أن تدفن النفايات الذرية لأوروبا فى الصحراء ! تصور ! كلمات وكلمات وكلمات نقولها ونحن نتحسس ربطات العنق الغالية ونتلفت حولنا وكأن الجواسيس يسجلون كل كلمة نقولها . وكأن كل كلمة ستهد الحكم ! .. ماذا لو أننا بالفعل قد عشنا الثورة التى نتكلم عنها ؟ .. لو أنا قد عدنا لقرانا أو لأحيائنا الفقيرة نعيش مع أهلنا دون خطب ودون شعارات ؟ .. هل كان كل شىء سيموت بالفعل؟ .. وماذا فعلنا ليلة زيارة القدس ؟ .. اعتبرنا أننا أدينا كل ما علينا حين اجتمعنا فى المقهى وتناقشنا

وصرخنا وبكينا . طظ! طظ! ما علاقة هذا حقيقة بالثورة ؟ .. وما فائدة تلك الأفكار الآن ؟ وما علاقة هذا الأفندى الجالس على المقهى المطل على النهر والجبل الأوروبى الأخضر بذلك الطفل الفقير الجائع الذى كان يمشى ساعتين كل يوم بحذاء ممزق ، يمشى فى التراب وفىْ الطين وفى الحر وفى البرد لكى يذهب الى المدرسة وهو يحلم طول الطريق بالجنة لأن فيها الكثير جدا من الأكل ؟ .. ومـــا معنى أن استمر فى هذه الحياة الكذبة ؟ .. من أكون .. ولم لا أنزل الآن فى جوف النـهـــر . أرقب من قلب الماء بطون ذلك البجع الأبيض الرجراجة وأصلى أن يحملنى التيار بعيدا جدا ، بعيدا عن البجع وعن البط وعن الأشجار والجبال وعن البشر - بعيدا إلى فجوة مدفونة وسط الصخور أندس فيها وأنزوى ثم تغمرنى الطحالب والنباتات والقواقع والأسماك وتخفينى إلى الأبد ؟

لو أنى فقط أتلاشى !

الفصـــل الثـــالث

هذا المساء أريد أن أتكلم

ربت ابراهيم على يدى فأجفلت .

قال : ماذا بك ؟

أجبت بدون وعى: أنا خائف !

ضحك إبراهيم وقد ظننى أمزح وقال: إذن لا تبق وحدك. تعال، انضم إلينا . طلب الدكتور مولر أن أدعوك .

عرفنى إبراهيم على مولر وبريجيت بكلمات سريعة وتبادلنا بعض عبارات عن عملى وعن الحياة فى تلك المدينة ورأيى فيها . وكنت أحاول التركيز وأنا أجيب ولكن اللغة الانجليزية عصتنى مثلما تعصانى عندما أكون شاردا ومتعبا فآثرت الصمت.

اتجه ابراهيم نحو مولر يستأنف حديثاً بدأه من قبل : معى بالطبع مستندات عن حالات محددة يمكن أن أعرضها عليك ..

وبينما كان إبراهيم يفتح حقيبة يده الصغيرة ليخرج بعض الأوراق شرح لى بطريقة عابرة: هذه حالات عن بعض الفلسطينيين واللبنانيين الذين تخطفهم دوريات إسرائيل من جنوب لبنان بمساعدة جيش سعد حداد ...

وعندما أخرج أوراقه راح يصنفها قبل أن يقدمها إلى مولر وهو يقول : بعض هؤلاء المختطفين عذبوا فى إسرائيل وبعضهم اختفوا إلى الأبد. رفع مولر عينيه عن الأوراق بعد أن تصفحها وقال وهو يهز رأسه : نعم، هذه حالات تدخل ضمن اختصاصنا ولكن من بعيد. ألا يمكن أن تقدم هذه الأوراق إلى منظمة العفو؟.. صوتها مسموع أكثر منا ..

رد إبراهيم : نحن قدمناها بالفعل الى منظمة العفو . ولكن شهادتكم كأطباء عن حالات التعذيب بالذات ..

ولم أعد أتابع الحوار. كنا نجلس إلى منضدة بعيدة عن النافذة فاختفى عن عينىّ النهر ولكنى رحت أتطلع باستغراق إلى السماء وإلى الجبل البعيد.. ماالذى ذكرنى الآن بهذا الطفل؟.. ماالذى فتح كل هذه الجروح ؟ أم أنها مفتوحة دائما وكل مافى الأمر أننى أتلهى عنها فى بعض الأحيان؟.. وماذا عن هذا الجرح الآخر الذى لاينسى أبدا ولا يفلح أى شىء فى أن يلهينى عنه :إننى أنا أيضا، صنعت شقاء لطفلين هما كل عالمى ، أو كانا كل عالمى ؟ .. بم ينفع فى هذا أى تبرير أيها الهارب؟.. وهل يعذبك هذا حقا كما ينبغى أم أنك مازلت مشغولا بنفسك قبل كل شىء؟ بطفلك المقهور فى داخلك منذ أكثر من أربعين عاما أو ربما خمسين عاما؟.. لو أننى فقط أعرف أين هى الغلطة الحقيقية أو متى بدأت؟

مالت بريجيت نحوى وقالت بصوت خافت: فيم تفكر ؟

فقلت دون تدبر – فى أن هذه الحياة كذبة..

تراجعت إلى الخلف وهى تقول بدهشة خفيفة : لم أكن أظن أن هذه هى المشكلة . كنت.. أظنها حقيقية أكثر من اللازم .

ثم عدنا نلزم الصمت. راحت تدخن وتجيل عينيها بين مولر وإبراهيم المنهمكين فى الحوار. ولاحظت أن التعبير الذى بدا فى وجهها فى آخر ذلك المؤتمر الصحفى مع الفريدو إيبانيز مازال باقيا فى عينيها الواسعتين . كانت حدقتاها الزرقاوان تتحركان بسرعة وجفناها يختلجان باستمرار وهى تحاول أن تتغلب على هذا بالاستغراق فى التدخين وببسمة ثابتة على شفتيها . واكتشفت وأنا أنظر إليها عن قرب لأول مرة أن ملامحها كبيرة إلى حد ما. كان أنفها طويلا وبارزا وفمها واسعا قليلا ولكن كل شىء فى وجهها يبدو مع ذلك متناسقاً وجميلا بجبهتها العريضة وشعرها الذهبى اللامع الكثيف الذى كان مفروقا فى منتصفه وقد صنعت منه ضفيرة طويلة تلتف فى دائرة مستوية خلف رأسها ويبرز تحتها

عنقها الأبيض العالى. واكتشفت ايضا وأنا اتطلع اليها أن ابتسامتها لم تكن مفتعلة مع ذلك ، بل إن وجهها باسم بطبيعته . وحاولت أن أعرف من أين يأتى هذا الإحساس ولكنى لم أستطع أن أحدد ..

كان مولر يقول لإبراهيم وقتها : لابد أن نرسل لجنة تحقيق. ونحن فى الحقيقة منظمة فقيرة تعمل بتبرعات الأعضاء ومعظمهم عجائز مثلى.. يعنى حتى لو دبرنا الأموال فستكون هناك مشكلة فى أن نجد متطوعين للبعثة .. أعنى متطوعين شبابا قادرين على العمل ..

قال إبراهيم ألا يمكن أن تفعلوا هذا عن طريق التعاون مع منظمة أخرى ؟ وراح إبراهيم يستعرض أسماء منظمات ولجان لها فروع فى لبنان وبدا أنه مصمم على ألا يترك مولر قبل أن يحصل منه على رد. ولم يكن لنا مكان فى هذا الحوار ، فملت على بريجيت وقلت بصوت خافت: فهمت مما قاله مولر فى بداية المؤتمر أن الترجمة ليست مهنتك .

فقربت وجهها منى وقالت وهى تهمس مثلى: لو كانت مهنتى لما أفسدت المؤتمر.

ثم بسطت كفيها كالمعتذرة وهى تبتسم .

قلت : ولكن مافعلته أنت كان هو الشىء الإنسانى الوحيد فى هذا الاجتماع فاختفت الابتسامة وتصلب وجهها إلى حد ما وهى تقول : أبدا . أنا لست أفضل من غيرى . كانت.. كانت مجرد لحظة ضعف ..

قلت مستغربا: ولكن لماذا تعتذرين عن ذلك؟

هزت كتفيها وهى تقول : كل مافى الأمر أنى لاأحب التظاهر ، لا أريد أن تفهم عنى شيئا غير حقيقى . قلت إنك تكره الكذب، أليس كذلك ؟

حاولت أن أغير الموضوع فأشرت إلى زيها الأزرق وسألتها : هل أنت مضيفة طيران ؟

– لا، ولكنى بالفعل مضيفة من نوع آخر . أنا مرشدة سياحية .

كنت أجاهد لأواصل الحديث بأى طريقة من أجلها ومن أجلى، لكى لا نرجع مرة أخرى إلى الصمت والشرود، فسألتها : وأنت تحبين هذا العمل ؟ عادت إلى الابتسام وقالت : لم أختره ولكنه كان العمل الممكن لى كأجنبية فى هذا البلد. أعرف بالمصادفة عدة لغات.

بحثت عن شىء آخر أقوله ولكننى لم أستطع أن أستمر أكثر من ذلك .

عدت أركن ظهرى الى المقعد صامتا كما كنت ، وظلت لفترة تنظر نحوى فى تطلع ثم انسحبت هى أيضا وأشعلت سيجارة جديدة.

قطع مولر حديثه مع إبراهيم والتفت نحوها بشىء من الغضب: يكفى هذا التدخين يابريجيت! فمالت وربتت على يده قائلة: لاتغضب يادكتور. أنا لا أدخن مطلقا أثناء العمل.. ثم ضحكت وهى تكمل: أنت تعرف أن التدخين ممنوع فى الأتوبيس السياحى على الأقل .

ومرة أخرى لاحظت أنها حين تضحك أو تبتسم ، أو حتى بمجرد أن تحرك شفتيها ، تظهر فى بشرتها خطوط رقيقة متوازية فى ذقنها وعند ركنى عينيها. وقلت لنفسى ربما كان هذا مايعطى وجهها تعبيره الباسم باستمرار. وأمعنت النظر فيها وأنا أتساءل: فمن أين إذن يأتى ذلك التعبير الاخر الذى لا أستطيع أن أحدده ؟

وكان مولر يكلمها وقتها بالألمانية التى أفهم منها بعض العبارات واستطعت أن أميز منها قوله : هل هو عقاب ؟.. ليس هذا حسنا يابريجيت .

اتجه ابراهيم نحوها وقال بلهجة حميمة كأنه يعرفها من زمن طويل على طريقة الصحفيين حين يحاولون إغراء الآخرين بالحديث: بريجيت.. أنت ألمانية أو أسبانية؟

فردت : لا هذه ولا تلك. أنا نمساوية .

قال إبراهيم: ولكن واضح أنك تجيدين الأسبانية تماما. كان بيدرو يتكلم أحيانا بسرعة شديدة وبصوت خافت فى معظم الأحيان لكنك كنت تتابعينه باستمرار. أين تعلمت الأسبانية ؟

- فى الجامعة .

ثم سكتت قليلا وقالت : وهى أيضا لغة زوجى .

خيل إلى أن صوتها تغير قليلا وهى تقول ذلك . وخيل إلى أيضا أنى لاحظت نوعا خفيفا من الدهشة فى وجه إبراهيم حين تكلمت عن زوجها ، ولكنه واصل بلهجته العادية : وزوجك أسبانى أو من أمريكا اللاتينية ؟

رنت فى صوتها نبرة من التحدى لم أعرف سببها وهى تخاطب إبراهيم :

- لا من أسبانيا ولا من أمريكا اللاتينية هو أفريقى من قارتكم. من غينيا الاستوائية .

سألها إبراهيم : وهم يتكلمون الأسبانية هناك ؟

وكنت أعرف أنه يسأل لمجرد أن يقول شيئا، ولكن بريجيت ردت والتوتر يزداد فى صوتها : أنت صحفى، ومن أفريقيا أيضا، ولا تعرف إن كانوا يتكلمون الأسبانية هناك أم لا؟

ثم تراجعت على الفور وقالت : أنا آسفة . لم أقصد ماقلت. هو بلد صغير على أى حال ولم أقابل كثيرا من الناس يعرفون شيئا عنه.

تدخلت فى الحوار لكى أنقذ إبراهيم الذى احتقن وجهه وقلت : إذن حدثينا أنت عن البلد. أعترف أننى أنا أيضا لا أعرف شيئا عن غينيا الاستوائية . هل ذهبت إلى هناك؟

قطبت جبينها وبدا عليها التردد لحظة قصيرة، ولكنها تغلبت على ذلك التردد بسرعة واندفعت تقول: كنت أنوى الذهاب ولكننى طلقت قبل أن أذهب .

ثم ضحكت بريجيت ضحكة مرتبكة وحل الصمت من جديد وزاد إحساسى بالتوتر فأردت أن أقوم ولكن إبراهيم قال لحظتها : سمعتك تقولين إنك مرشدة سياحية وهذه أول مرة أزور فيها المدينة فما هى الأشياء التى تنصحين بأن أراها؟

مدت بريجيت يدها إلى حقيبتها الموضوعة على المنضدة وأخرجت بطاقة صغيرة قدمتها إلى إبراهيم وهى تقول: يمكنك أن تأتى إلى شركتنا فى هذا العنوان وفى هذه المواعيد المكتوبة فى البطاقة . ويمكنك أيضا أن تحجز بالتليفون، وإذا كنت أنا المرشدة فى الوقت الذى تأتى فيه فسأرشدك باهتمام خاص .

ضحكنا جميعا ضحكة بلا روح ولكن مولر قال وفي عينيه نظرة ماكرة :

– أظن أن السيد ابراهيم كان يفضل أن ترشديه بدون الشركة. فقال ابراهيم مواصلا تلك الضحكة الفاترة: نعم بدون الشركة وبدون الإرشاد أيضا..

لكن ابتسامة بريجيت ضاعت فجأة وراحت تنقل بصرها بيننا نحن الثلاثة ثم ركزت عينيها على مولر بنظرة ثابتة وقالت بلهجة حاولت أن تجعلها عادية تماما: أرأيت يامولر ؟ .. ألم أقل لك؟.. ها نحن نضحك ونمزح وكأن شيئا لم يحدث . لم يعبث أحد بأصابعه فى جروح بيدرو ولم يقتل أحد أخاه فريدى . فما الداعى إذن الى التظاهر ؟

كانت تتطلع إلى مولر وحده وكأنها قد نسيتنا وعاد إلى وجهها ذلك التعبير الآخر الذى لم أستطع أن أحدده من قبل . ذلك الجمود الكامل فى ملامحها وعينيها. قناع يسقط على الوجه فيخفيه . أى قناع هو ؟ .. للحزن أم للقسوة ؟.. لا هذا ولا ذاك. فما هو؟.. لكنها لحظتها أسندت رأسها بيدها ومالت برقبتها لتبعد وجهها عنا . وقلت لنفسى هاهو القناع سيسقط ! ها هى الآن ستبكى !

وتوقع مولر ذلك ايضا على مايبدو فمد يده نحوها قائلا بشىء من الاضطراب:

– بريجيت !...

التفتت نحونا بعينين محمرتين الى حد ما ولكن لا أثر فيهما للدموع وقالت بنبرة التحدى الأولى وهى تخاطب مولر : لا تقلق ...

ثم أشارت نحوى بيدها وأكملت : كل مافى الأمر أننى أردت أن أثبت لهذا السيد أن من يتعذب يتعذب وحده. لم أتعذب أنا ولم يتعذب أحد ممن حضروا المؤتمر . لم يتعذب أحد غير بيدرو ...

وراحت تدق على المائدة بإصبعها وتتطلع الى مولر: مهما كانت اللجان الطبية والمؤتمرات الصحفية يا دكتور ..

سأل مولر بنوع من اليأس: وإذن فهل من رأيك أن نكف عن العمل ؟ فحولت بريجيت نظرها عنه وهى تقول بصوت خافت : بل كنت أقصد شيئا آخر..

ثم نظرت نحو ابراهيم ونحوى وقالت : ولكنى لم أقصدكما بالذات. أنا آسفة.

أصبح الجو ثقيلا ومحيراً فقال إبراهيم وهو ينظر نحوى ويهز رأسه متفاهما على أن ننصرف : ولكن لماذا تقولين ذلك ؟.. نحن الذين يجب أن نعتذر حقيقة .

ووضع يديه على مسندى المقعد متأهبا للنهوض وهو يقول : أنا وصديقى كنا نوشك أن ننصرف على أى حال .

غير أنها مدت يدها نحونا وقالت بنوع من الالحاح : ولكن يمكنكما البقاء قليلا مع ذلك. أقصد إذا سمحتما .

عدنا نستقر فى مكانينا بشىء من الارتباك. غير أن بريجيت التى ألحت علينا لنبقى تركتنا وأحنت رأسها وعادت إلى الصمت وزحف على وجه مولر توتر لم أستطع أن أفهمه وهو يراقب بريجيت. بدا لى وهى تتشبث بالمقعد وتشد جسمها الى أعلى أنها تبذل مجهودا صعبا لكى تسيطر على نفسها. وقلت لنفسى وأنا أنظر إليها لماذا تقاومين البكاء يا بريجيت ؟ لم لا تبكين وتستريحين؟.. لعلك فقدت مثلى القدرة على البكاء ؟ أنا أعرف أنى فقدتها من زمن ولكن متى ضاعت منى؟.. ربما كانت آخر مرة بكيت فيها منذ سنين. بعد الطلاق عندما أغلقت على

نفسى باب الحجرة التى أجرتها فى الفندق وأمسكت ورقة الطلاق ورحت أقرأ تلك العبارات الغريبة التى قطعت الى الأبد مابين منار وبينى «أنا مأنون حى... حضر السيد.. ومعه زوجته ومدخولته .. الثيب الرشيدة .. طلقة أولى بائنة.. ولا يحق له الدخول بها إلا.. رقم ١٠٩٦٠».. لحظتها جاء البكاء من تلقاء نفسه.. جاء عنيفا لا ينقطع .. اختلطت لحظات الشقاء بلحظات الفرح.. قبلاتنا المختلسة أيام الخطبة.. وجهها الشاحب يوم ولدت خالداً وهى ترقد على العربة التى نقلوها بها من غرفة الولادة.. يدها الرخوة تمسك بيدى وتقول بابتسامة ظافرة رغم التعب: كنت أعرف أنك تريد الولد!.. تلوح لى عند باب الخروج وتشب على قدميها وتقول أسرع لا تشتر شيئا من السوق الحرة، لا أريد شيئا اخرج بسرعة.. وجهها الجامد و هى تقول بحسم سآخذ الأولاد. ثم منذ متى كانت تربية الأولاد تهمك ؟ .. كل شىء فى لحظة واحدة وسط الدموع، غير أنى وقتها كنت أبكى على نفسى. كنت أرثى لحالى وأرثى لخالد وهنادى – لا أقصد الآن هذا البكاء. أقصد البكاء على أى بيدرو أو على أى الفريد. أقصد بكاء كبكائى صبيا على «أم صابر» الشهيدة وعلى جنود البوليس الذين قتلهم الانجليز فى الإسماعيلية .. كالبكاء على جميلة بوحريد حين عذبها الفرنسيون فى الجزائر .. كدموعى على لومومبا يوم قتلوه فى الكونغو ودموع الناس فى الشارع يومها.. أعنى تلك الأشياء التى غابت الآن بعيدا جدا.. التى حدثت منذ قرون وقرون.. أقصد منذ متى فقدت الاحساس ؟ ولكن فلنقل إنى عجوز فماذا عنك أنت يابريجيت؟... ربما كان الحق معك من يتعذب يتعذب وحده فلماذا نتظاهر ؟

غير أنها الآن تبتسم ابتسامتها العادية وهى تسحب سيجارة جديدة من علبتها وتعتذر : سامحنى يادكتور .

هز الطبيب كتفيه وعادا يتبادلان عبارات قليلة بالألمانية .

ولما انتهيا التفت مولر نحونا وقال بلهجة عاتبة، تكاد تكون لهجة حزينة وهو يشير اليها: هى تعرف أننى أعتبر نفسى مسئولا عن كل مايحدث لها فى هذه

المدينة. والدها هو أعز صديق لى. ذهبنا معا أيام الشباب إلى الحرب فى أسبانيا ولم نفترق من وقتها . كان يريد أن تدرس بريجيت القانون مثله ولكنها فضلت أن تدرس الأدب ووسطتنى لكى أقنعه.. ثم التفت نحوها وهو يقول : من يدرى يا بريجيت؟.. ربما لو درست القانون لكنت معنا الآن هناك فى البلد.. ربما كنت قد عملت مع أبيك وربما كنت قد واصلت العمل فى مكتبه بعد أن تقاعد..

قالت بريجيت: ولكنى سعيدة بعملى هنا يادكتور مولر. أفضله ألف مرة على التنقيب فى كتب القانون وعلى كتابة المذكرات . وأفضل البقاء هنا على العودة الى البلد.

سألها إبراهيم بلهجة تكاد تكون مازحة : ألا تشعرين بالحنين للوطن؟ فردت مبتسمة وهى تشير بيدها بحركة باترة: على الإطلاق!

فالتفت نحوى وقال: وأنت ؟

فرددت عليه بالعربية: أرجوك أن تتركنى فى حالى ياإبراهيم . ليس هذا هو ما ينقصنى الآن.

لم يجادلنى إبراهيم الذى كان قد استرد حيويته فتحول الى مولر قائلا: عندما اشتركت فى الحرب فى أسبانيا ، كنت مع الجمهوريين، أليس كذلك ؟

هز مولر رأسه بالايجاب فتنهد إبراهيم بارتياح ، نظر نحو الدكتور كأنه يراه للمرة الأولى. وأوشكت أن أراهن نفسى أنه سيسأله عن تلك الحرب التى مضت عليها عشرات السنين وكأنها مازالت تدور. ففى أيام شبابنا كانت تلك الحرب التى لم نعشها والتى لم نعرفها إلا من القراءة تعنى لنا أشياء كثيرة : الحلم بعالم جديد.. عالم متحد ضد الديكتاتورية وضد الظلم.. الحلم الذى انهار وإن بقيت لنا منه الرموز : همنجواى ولمن تدق الاجراس.. ومالرو والامل .. وبيكاسو والجويرنيكا.. وأشعار لوركا.. تلك الرموز التى ألهبت خيالنا فى مطلع الشباب، وقلت لنفسى: ربما سيسأل إبراهيم مولر الآن إن كان قد قابل همنجواى أثناء الحرب ! .. ولكنه فاجأنى حين سأله وهو ينظر نحوى :

- إذن ربما تستطيع أن تعطيني صورة أفضل عن الأوضاع هنا..

وأشار نحوى وهو يقول : صديقى يدعى أن اليسار مات في اوروبا وفى العالم فهل هذا صحيح ؟

ضحك مولر ضحكة عابرة وهو يقول : أخشى اننى لا أستطيع أن أفيدك فى هذه المسائل . تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن .

فقالت بريجيت : أو لم تجد أن هذا أفضل يادكتور ؟

غير أن ابراهيم لم يهتم بتدخلها وقال بشىء من الاحتجاج : ولكن لماذا ؟ .. أغلب الظن أنك كنت ماركسيا أيضا عندما ذهبت لتحارب فى أسبانيا .

فهز مولر كتفيه مرة أخرى وبدا أنه يفكر فيما يمكن أن يقوله وخطر لى شىء فقلت لإبراهيم : ربما أستطيع أنا أن أوضح شيئا . أذكر أننى كنت هنا فى أوروبا سنة ٦٨ أيام غزو تشيكوسلوفاكيا، تابعت أيامها حملات الاستقالات من الاحزاب الشيوعية وكثيرون أيامها كان رأيهم ..

فقاطعنى ابراهيم قائلا بشىء من الاشمئزاز والغضب : غزو تشيكوسلوفاكيا.. هؤلاء الرفاق الاوروبيون حساسون حقا! كم مات فى هذا الغزو؟ واحد أم عشرة ؟ وهل سمعت عن رأسمالى استقال من الرأسمالية عندما دارت الرشاشات وقتلت آلاف الشيوعيين فى استاد شيلى وشوارعها ؟.. أو قبل ذلك عندما أصبحت مياه الأنهار فى أندونيسيا حمراء قانية بدماء من ذبحوهم هناك.. غزو تشيكوسلوفاكيا حقا !!

قلت دون انفعال - أرأيت ؟.. ها أنت توافقنى على ما أعنيه. دماء الأمم الفقيرة لا تهم ولو كانت دماء ملايين . أما تشيكوسلوفاكيا فشىء أخر...

وكنت أتكلم لكى أغير جو الجلسة ولكن مولر هو الذى انفعل لأول مرة حين خاطب ابراهيم وقال مقطبا حاجبيه الأشيبين : لم أشهد غزو تشيكوسلوفاكيا

ياسيدى، ولكنى شهدت غزو المجر قبلها. كنت هناك بالمصادفة وكنت أعمل طبيبا متطوعا قبل أن تبدأ الأحداث .. رأيت الدبابات ورأيت القتلى - لم يكن الجنود الروس المساكين يعرفون أنهم فى بودابست . كذب عليهم قادتهم وقالوا لهم إنهم يحاربون الغزاة الانجليز فى بورسعيد، فى بلدكم ...

غير أنى لم أتابع الحوار. لم يعد يعنينى ذلك كله.. رأيت ابراهيم يفعل ماكان يلومنى عليه منذ قليل. كان يتكلم بحماس كعادته من ربع قرن عن اشياء مضى عليها أكثر من ربع قرن، سمعته يتكلم عن حرب بورسعيد وهو يلوح بيديه وقد أحمر وجهه وكأن سفن الانجليز تحاصرها فى تلك اللحظة بالذات. ورأيت الطبيب العجوز لا يقل عنه انفعالا وهو يتكلم عن بودابست ورذاذ خفيف يتناثر من فمه، وسمعت أسماء ناصر وستالين ونهرو وخروشوف وأسماء أخرى كثيرة ، بل وجاء ذكر نكروما فى الحوار وإن لم أعرف السبب..

حولت عينى الى بريجيت . كانت فى البدء تزر عينيها باهتمام وهى تتابع النقاش ثم بالتدريج انطفأ ذلك الاهتمام واختفت وراء دخان سجائرها المتلاحقة.. كانت بين الحين والآخر تنظر الى مولر وتبدو فى عينيها هذه النظرة الجامدة التى حيرتنى فتنتقل عدوى تلك النظرة الى الطبيب المنهمك فى الحوار دون أن تلتقى عيناه بها وأشعر بنوع من التوتر يسرى فى صوته وفى جسمه ، توتر لا يكاد يلحظ ، ولكن بريجيت تشعر به ايضا فتحول وجهها الى ناحية أخرى وكأنما انتابها الندم. ماالذى بينها وبينه؟.. لماذا ترفض تلك الأبوة التى يحاول يائسا أن يفرضها عليها منذ جلسنا معا؟ وما شأنى أنا بذلك؟... ولماذا يعدينى أنا أيضا هذا الجو الغريب الذى لا أعرف سببه ويزيدنى هما ؟

ولكن مولر انتزعنى فجأة من نفسى وهو يقول: معذرة لهذا السؤال ، وارجوك ألا تسىء فهمى. صديقك يقول لى إنك ناصرى، وأنا رغم كل شىء كنت معجبا بناصر أيام ثورته ، ولكن ألا تظن أن عصر هذه الثورات القومية قد انتهى ؟

ولكن عن أى شىء يتحدث هذا الطبيب الآن؟ ولماذا ينظرون الىّ جميعا بهذا الفضول وكأننى سأحل لهم مشكلة تتوقف عليها المصائر ؟.. وما أهمية أن أقول أى شىء فى هذه المدينة الغريبة لهذين الغريبين أو لإبراهيم الذى لا يحبنى؟ وماالذى لدىّ فى الحقيقة لكى أقوله؟.. يمكن إن أرادوا أن أحدثهم عن منار.. ذلك هو الشىء الوحيد الذى أفكر فيه. لا ، ولا حتى هذا. أى شىء عرفته عن منار بعد كل تلك السنين التى عشناها معا؟ قلت : سامحنى يادكتور ، ولكننى الآن مثلك. تركت الاهتمام بالسياسة منذ زمن ولعلى فى الواقع لم أعرفها أبدا. كنت متطفلا عليها. توهمت فى وقت من الأوقات أننى أفهم والآن أعرف أننى كنت مخطئا .

قال ابراهيم والغضب يستبد به : وتلك النظريات التى كنت تجادلنى بها ساعات طويلة ونحن فى صالة التحرير؟ .. وساطع الحصرى والقومية التى تحرك التاريخ وكل تلك الأفكار ؟ .. وقولك لى مرات ومرات إنهم بنوا قوتهم فى الغرب بفضل الدولة القومية وانهم يحاربون الآن وحدتنا لكى لا نصبح أقوياء مثلهم؟ .. لماذا لا تقول ذلك كله بدلا من أن تغمغم بعبارات «لا أفهم .. لا أعرف .. كنت مخطئا؟ ..» لماذا تتلذذ الآن بإهانة نفسك؟.. أم أنك تدارى وراء تلك الإهانة نوعا من الترفع كعادتك ؟ أم أن هذا صحيح وأنك تعتبر نفسك ميتا بالفعل؟.. وإن كان هذا صحيحا فلماذا لا تقوم وتلقى بنفسك فى هذا النهر؟..

قال مولر بمزيج من الدهشة والذعر: لا داعى لكل هذا العنف ياسيد ابراهيم ربما كان صديقك لا يشعر بالرغبة فى أن يتكلم فما الداعى الى هذا العنف ؟...

قلت للطبيب : لا تهتم . تعودنا على هذه الطريقة فى النقاش من زمن طويل. ثم التفتّ مخاطبا ابراهيم: لا شىء مما قلته صحيح. كل مافى الأمر أننى اكتشفت اليوم شيئا مهما جدا. ربما بفضل بيدرو ايبانيز أو ربما كنت أنت السبب أو لعلها بريجيت أو لعلها منار : اكتشفت أننى أكذب .

قال ابراهيم نافد الصبر : عدنا مرة أخرى لهذه النغمة !

ولكنى لم أعد أشعر بالغضب من ابراهيم ولم يستطع أن يستفزنى . كنت بالفعل بعيدا عن الحوار وبعيدا عن الغضب وبعيدا عن المكان كله وحل بى

الاجهاد فجأة فوقفت قائلا لإبراهيم : أنا متعب قليلا ويجب أن أنصرف الآن. هل تريد أن أوصلك الى مكان ؟

فرد ابراهيم بشيء من الارتباك : لا، أنا أعرف الطريق الى الفندق، ولكن أنت.. هل تنصرف الآن لأنى أغضبتك ؟.. أرجوك ألا تفهم أنى.. فقلت محاولا الابتسام: بالطبع لا . سأمر على فندقك غدا كما اتفقنا وسنواصل هذا النقاش . غدا سأكون جاهزا لك !

وبينما كنت اصافح ابراهيم نهضت بريجيت فجأة وقالت بحسم : خذنى معك. انحنت تلتقط حقيبتها ولوحت لابراهيم بيدها ثم طبعت قبلة سريعة على جبين مولر.

★★★

كانت بريجيت تجلس الى جوارى فى السيارة واكتفيت بمتابعة ارشاداتها لكى نصل من أقصر الطرق الى بيتها. سألتنى ونحن نخرج من المقهى عن طريقى ولما قلت إنى ذاهب الى البيت طلبت أن أصحبها الى أقرب محطة أتوبيس أو تاكسى ، ثم لم تمانع كثيرا حين عرضت أن أوصلها الى المكان الذى تريده. كنت أنظر بين الحين والآخر الى وجهها فى مرآة السيارة وأرى ذلك القناع ، ذلك الانسحاب الكامل الى الداخل فأوشك أن أقول شيئا. أوشك أن أقول ياابنتى مازالت الدنيا كلها أمامك فلا تتركى نفسك لتصبحى مثلى ! عودى الى زوجك إن كنت تحبينه وإن كان هذا هو سبب كل الهم الذى يطفو على وجهك . ولكنى كنت أتراجع وأقول أنا بالكاد أعرفها . لا يحق لى أن أقتحم صمتها . ولما أوقفت السيارة اخيرا أمام العمارة التى تسكنها فى حى هادىء فى طرف البلد عرضت بريجيت على أن أصعد معها لكى أشرب شيئا. قلت لها إننى متعب وأريد أن أذهب الى البيت لأرتاح. ولم أكن أكذب لكنها وضعت يدها على كفى الممسكة بعجلة القيادة وقالت وهى تبتسم : اذن تعال. سأصنع لك قهوة قوية تزيل هذا التعب. تعال إذا سمحت . وأنارت بسمتها المفاجئة وجهها .

كانت تسبقنى فى مدخل العمارة الذى تحف به المرايا على الجانبين وهى تمشى بخطوات سريعة فأراها خمس أو ست مرات على اليمين وعلى اليسار بزيها الازرق ، طويلة منتصبة القامة، وأرانى خلفها بخطوتى البطيئة وثوبى الداكن نقيضين كاملين. وقلت لنفسى هازئاً الربيع والخريف . النهار والليل. تعال ياابراهيم هانذا اتلذذ بإهانة نفسى !

كانت شقتها فى الدور العاشر ، شقة من غرفة واحدة واسعة أو تبدو كما لو كانت واسعة لأن الاشياء القليلة المتناثرة فى جوانبها تترك وسطها كله خاليا. بعد المدخل كانت هناك (كنبة) ، كبيرة الى اليسار خمنت أنها تحولها سريرا فى الليل والى جوارها مقعدان صغيران يحيطان بمائدة صغيرة من الخيزران عليها مفرش صغير منقوش بورود صفراء وحمراء ، وفى نهاية الغرفة كان هناك ساتر اسود تغطيه صورة فتاة تلبس كيمونو ابيض بحواف مذهبة وتخفى نصف وجهها بمروحة وردية. ومن السقف كانت تتدلى كرة ورقية بيضاء تحتضن مصباحا وحيدا كبيرا. تركتنى بريجيت ودخلت وراء الساتر، الذى يخفى وراءه المطبخ والحمام. سمعت صوت الماء من صنبور وقالت لى من هناك بصوت مرتفع قليلا : دقيقة وسأكون معك، اعتبر نفسك فى بيتك وخذ راحتك ...

تجولت فى الغرفة شبه الخالية ، ووجدت فى ركن بجوار الشرفة الواسعة رفا صغيرا عليه مسجل للموسيقى وبعض الأشرطة لأغان خفيفة ، والى جوار تلك الأشرطة كان هناك عدد من الكتب . قرأت العناوين وكانت معظمها روايات بوليسية بالألمانية والانجليزية أغلفتها مهترئة وعلى واحد منها صورة فتاة مذبوحة جاحظة العينين وعلى غلاف آخر صورة رجل بيده مسدس يخرج دخانا ويختفى وجهه تحت قبعة . ولكنى وجدت ايضا وسط هذه الكتب ديوان شعر بالالمانية لهاينى ومجلدا يضم اشعار لوركا بالاسبانية . وجاء من ورائى صوت بريجيت وهى تقول بنبرة اعتذار : لن تجد فى هذه الكتب شيئا يهمك .

عدت نحوها وهى تتقدم من المنضدة الصغيرة حيث وضعت فنجانى القهوة. كانت قد خلعت سترتها وحذاءها وظلت بالبلوزة البيضاء الخفيفة والجونلة الزرقاء وخف منزلى.

قلت وأنا أجلس على المقعد قبالتها مشيرا الى الغرفة والى فتاة الكيمونو:

– من أين جاءتك هذه الافكار اليابانية ؟

فقالت بابتسامة خفيفة : لم تأتنى أفكار يابانية ولا صينية . عندما سكنت هنا لم أكن أملك شيئا ابدا وكانت هذه ارخص طريقة لتأثيث المكان ..

وبينما تمد لى يدها بفنجان القهوة سألتها هل أنت بالفعل سعيدة هنا كما قلت؟ ألا تريدين حقا العودة الى بلدك ؟

فهزت رأسها تؤمن على كلامى وكررت مثل تلميذة تحفظ درساً : نعم، أنا بالفعل سعيدة هنا، وأنا لا أريد العودة الى بلدى .

ثم نظرت الى وسألتنى : وأنت ؟ .. عندما سألك صديقك هذا السؤال رفضت أن تجيب، فهل أنت سعيد هنا ؟

– لا ، لست سعيدا هنا .

– هل ستكون أحسن حالا لو رجعت الى بلدك؟

فكرت قليلا قبل أن أرد ثم قلت وأنا أحك جبينى : ليست المسألة سهلة . أنا مثلك مطلق، وأسرتى تعيش هناك. ولكنك صغيرة تستطيعين أن تبدئى من جديد لو رجعت أما أنا ..

لم استطع أن أكمل فتوقفت وقالت هى بعد فترة :

– معذرة ولكنى لم أفهم شيئا . ربما كان ماقاله صديقك صحيحا ، أنت تجد سعادتك فى تعذيب نفسك .

– ربما

شعرت بريجيت أننى لا أريد أن أتكلم فقالت وهى تسند رأسها الى يدها : لا تهتم ثم سألتنى : هل تريد أن تشرب شيئا ؟

– ألا نشرب القهوة بالفعل ؟

– إذن بعد إذنك أنا سأشرب .

تركت فنجانها كما هو تقريبا واختفت وراء الساتر مرة أخرى ثم رجعت وفى يدها كوب طويل تهزه فى يدها وعادت تجلس قبالتى. ولفترة لم يكن هناك غير رنين الثلج فى الكوب ولكننى فجأة وجدت نفسى أقول لها دون تدبر:

– هناك شيء حيرنى مع ذلك ونحن نجلس فى المقهى . شيء عن الدكتور مولر.. اسف للسؤال ولكن اقصد لماذا عندما كنتما تتحدثان معا كأن هناك بينكما..

ثم تلجلجت ولم أكمل ماكنت أريد أن أقول .

غير أنها شربت جرعة كبيرة من كأسها ثم وضعتها على المائدة وثبتت عينيها الزرقاوين على وجهى وهى تبتسم ابتسامة واسعة حركت كل تلك الغضون الرقيقة فى ذقنها وحول عينيها وقالت : بيننا أشياء كثيرة.. أول شيء أنه كان عشيق أمى.

تراجعت للخلف كالملسوع وأنا اغمغم : أنا.. أنا متأسف للسؤال . لماذا تبوحين لى بذلك؟ أنا لم أتصور أن..

قاطعتنى دون أن تغير ابتسامتها: ولماذا لا؟ ألم تقل إنك تكره الكذب؟

– لم أقل ذلك . قلت إننى اكتشفت انى أعيش فى الكذب.

نهضت وأخذت تتمشى فى الغرفة وبيدها كأسها تواصل هزها وهى تتكلم على ايقاع رنين الثلج : حسبت أنك قلت ذلك. رأيت شيئا فى وجهك ..

– ولكن أرجوك مرة أخرى لماذا تبوحين لى بهذا السر أو غيره . نحن لم نكد نلتقى. أشك حتى فى أنك تعرفين اسمى .

– ألم تسألنى عن مولر ؟

– نعم ، سؤالا عابرا. سؤالا خاطئا ولكنى لم أكن أريد أن أعرف اسرارا، نحن غريبان .

وقفت وتطلعت نحوى قليلا قبل أن تقول: ولكن هذا أفضل كما تعرف. الناس لا تبوح بأسرارها للأصدقاء وإنما للغرباء ، فى القطارات أو فى المقاهى العابرة . ولكن هذه ليست هى المسألة الآن . المسألة أنى أريد أن أتكلم . هذا المساء أريد أن أتكلم . ألا تستبد بك أحيانا هذه الرغبة ؟

– أتكلم طوال الوقت، ولكن مع نفسى. فى رأسى حوار لا ينقطع .

– وكذلك أنا ، ولكنى سئمت ذلك .

ذهبت بريجيت نحو (الكنبة) ولكنها لم تجلس عليها، بل جلست على الأرض المكسوة ببساط رمادى ثم أسندت ظهرها الى الكنبة وفردت ذراعها الخالية فوقها. بالكاد مست الكأس بشفتيها ثم وضعتها بجوارها على الارض وفكت الضفيرة الملتفة خلف رأسها وبدأت تحلها ببطء. كانت الشمس تغمرها وهى تجلس هناك ولكنى رأيت من الشرفة السحب البيضاء الرقيقة تزحف مرة أخرى بهدوء نحو القرص الذهبى الذى قارب الغروب . وبدأت بريجيت تتكلم بصوت خافت دون أن تنظر نحوى، كأنما لا يعنيها بالفعل أن أسمعها أو لا أسمعها وإنما المهم أن تتكلم.

قالت : بالأمس جاء مولر ولم أكن قد رأيته من سنين طويلة فرجع كل شىء من جديد. رجعت بريجيت الطفلة بالرغم منى . كنا نسكن.. أقصد نحن نسكن حتى الآن مدينة صغيرة فى الغرب. وكنت ابنة وحيدة . لم أعرف فى صغرى أبى كما وصفوه لى فى شبابه . لم أر فيه ذلك الحماس الذى قاده الى الحرب فى اسبانيا قبل أن أولد بكثير. رأيت فقط ما صنعته به عشرون سنة بعد ذلك. قيل لى إنه كان محاميا قديرا، ولكنى عرفت أنه لا يقبل غير القضايا الصعبة، القضايا الخاسرة فى الغالب . يقبل الدفاع عن الفقراء وعن النقابات بأتعاب زهيدة لمجرد أن يرفع ظلما أو يثبت حقا قانونيا ما للنقابات . خطر لى فيما بعد عندما كبرت أنه اراد أن يعوض الهزيمة فى اسبانيا بأن ينتصر بالقانون لكل المظلومين فى العالم ، أو على الاقل فى النمسا . ولكن النتيجة مع الأسف كانت هزائم كثيرة جديدة . لم يكن حظه مع القانون أفضل من الحرب. كل ما حدث هو أن أصحاب القضايا

المهمة التى تحقق مكاسب كبيرة أصبحوا يتجنبونه، ثم قاطعوه بالفعل. وها هو الآن، بعد كل السنين التى عملها، يعيش فى المنزل الذى ورثه عن جدى، لايملك غير معاش الشيخوخة الضئيل وإعانة صغيرة من النقابة. ومع ذلك فمازلت أذكر عندما كنت طفلة كيف كان منهمكا تماما فى عمله الفاشل، كأنه نسينا أنا وأمى. كان وقته كله لمكتبه أو للمحكمة أو لغرفة المكتب فى البيت يقلّب المجلدات أو يكتب المذكرات. أحببته كثيرا جدا. كنت أشعر حتى وأنا طفلة صغيرة أنه مهزوم وأشفق عليه كأنى أمه لا ابنته. أحمل إليه فى غرفته القهوة أو العصير ثم أجلس أمامه فترات طويلة أراقبه وهو يقرأ أو يكتب ويحك جبينه باستمرار. وحين يلاحظ وجودى يسألنى بدهشة عما أفعله هناك، يسألنى لماذا لا أذهب كى ألعب أو أنام، فأذهب إليه وأقبله فى وجنته. أطلب منه أن يحكى لى حكاية لكى أذهب وأنام. يبدو فى وجهه التذمر لأنى أعطله عن عمله لكنه يحيطنى بذراعه ويبدأ فى تأليف حكايات صغيرة ينتصر فيها العدل والخير دائما. أذكر باستمرار أنه كانت هناك حمامة يطاردها ثعلب شرير ولكنها كانت تستعين بسرب الحمام فتنتصر رغم كل شىء على مكائده. نعم، لم ينجح أبى فى الحرب ولا فى القانون ولكن كان من المستحيل أن تنهزم حيواناته المسكينة! ... أما عمى مولر فكان يختلف. عمى مولر كان باستمرار طبيبا ناجحا. واعتاد أن يأتى إلى البيت كثيرا فى وجود أبى وفى غيابه. فى الحقيقة كان يأتى أكثر فى غيابه. دائما يحضر لى الحلوى ويحملنى ويقبلنى. يسأل أمى التى كانت صحتها عليلة دائما: كيف تشعر سيدتنا اليوم؟.. يمسك معصمها ويمسك يدها ويتحسس صدرها. يأخذها إلى الداخل ليواصل هذا الكشف أو يصرفانى إلى الخارج بحجة ما. وكنت على ما أذكر فى الثامنة من عمرى عندما واجهت مولر. فتحت له الباب حين أتى، ولما قدم لى الحلوى رميتها وأخذت أضربه فى بطنه ورجليه بقبضتى معا وأنا أصرخ: اذهب.. اذهب.. أنا لا أريد أن أراك.. لا أريد الحلوى التى تحضرها.. اذهب!.. أنا لا أحبك!.. وقف لا ينطق بحرف وكانت أمى أيضا تقف خلفى تضع راحتها على فمها وقد اتسعت عيناها. وبعدها لم يعد مولر يأتى، ولكن أمى هى التى أصبحت

تخرج كثيرا. وسكتت بريجيت قليلا ثم قالت : هذا قبل أن تموت أمي. قبل أن تذهب الى المصحة وتموت هناك .

كنت أرهف السمع منذ بدأت ، حريصا على ألا تفوتني كلمة وقد تيقظت حواسي التي كانت منذ قليل هامدة ومخدرة نفذت الى قلبي نبرة ما في حديثها ملأتني حزنا واشفاقاً عليها . وأوشكت أن أقوم فأجلس الى جوارها هناك على الارض لأحكي لها ايضا كل ماأوجعني ، دون كذب ولا كبرياء ولا تستر وراء كلمات أحافظ بها على تلك الواجهة التي تخفي وراءها الانهيار والخراب. غير أني لم أفعل شيئا . ظللت أتطلع اليها مجمدا فوق ذلك المقعد الصغير ، وكانت قد نجحت في حل ضفيرتها وتركت شعرها الذهبي الطويل ينسدل فوق كتفها اليمنى ثم اخذت تمشطه بأصابعها . ولكن قبل أن اجد مايمكن أن أقوله فاجأتني بأن ضحكت وهي تتطلع في وجهي مباشرة وتقول : ولكن هذه ذكرى طفولية . تعلمت من زمن أن اغفر لأمي بل وحتى أن أفهمها وكان يمكن ايضا أن أغفر لمولر .

ووجدتني أقول بعد فترة: هو عجوز جدا .

فرددت ورائي كعادتها : نعم ، هو عجوز جدا .

مدت يدها الى كأسها التي نسيتها ، رفعتها الى فمها ثم عادت تضعها الى جوارها وتقول بصوت مرتفع الى حد ما : اسمع . كل شيء يمكن غفرانه إلا أن تكذب على نفسك وتكذب على الناس عن عمد. أنت الذي قلت ذلك ألم تقله ؟ أقصد، ماذا أقصد ؟.. أريد أن أقول إن اخطأت فكن شجاعا . على الانسان أن يحاول على الاقل أن يتصرف على أنه مخطيء لا أن يواصل الخداع ..

لم أفهم ماتريده بالضبط . هل تتكلم الآن عني أم عن مولر؟ أي أخطاء يجب أن أصلحها وهل بقي وقت؟ .. لكني بدلا من ذلك واصلت الكلام عن مولر ، قلت: ربما كان الآن يكفر عن اخطائه هو الآن يحاول حتى في هذه السن . يحاول أن يساعد الآخرين..

قالت باشمئزاز وكأنى أسأت إليها: يساعد الآخرين حقا !...

– أليس مايفعله الآن، فى هذه اللحظة هو نوع من...

فقاطعتنى بشىء من الغضب.. لا ليس نوعا من أى شىء !.. قلت لك إننى أوشكت أن أغفر له لولا هذه اللجان والاشياء المضحكة..

قامت فجأة وأخذت تسير فى غرفتها شبه الخالية وهى تعقد يديها أمام صدرها . ومرة أخرى استبدت بى الحيرة والاحساس بأنى لست فى مكانى فأردت أن أترك هذه الحكاية كلها وهذا المكان وأن انصرف . ولكنها جاءت ووقفت أمامى وقالت بهدوء ولكن بلهجة قاطعة : مولر هو الذى دمر حياتى ...

قلت فى ذعر حقيقى.. هل كان معك أنت أيضا ؟ .. أقصد هل اصبحتما أنت وهو ..

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقاطعتنى قائلة: عشيقين ؟.. لا . أى خيال هذا؟ .. مولر ؟!.. قلت لك انه ساعدنى على طريقته فدمر حياتى.. أقصد إن كنت لا تستطيع أن تساعد غريقا فلماذا تتظاهر بأنك تمد اليه يدك ..؟ لماذا تعجّل بغرقه؟.. ولماذا تكرر هذا التظاهر مرة ومرتين ومائة مرة حتى تجعل منه حرفة؟...

كان الغروب قد حل ولكنها لم تضىء المصباح، وفى الغرفة شبه المعتمة بدأت تروى حكايتها الحقيقية. عادت تتمشى وهى تتكلم . ترجع احيانا وتجلس الى جانبى ، ثم تقوم مرة اخرى لتجلس على الكنبة أو لترجع الى جلستها المفضلة على الارض تحتها دون أن تتوقف عن الكلام . راحت تخرج أمام إنسان آخر ، تصادف أنها قابلته عندما كانت تريد أن تتكلم ، كل الحوار الذى ظل يدور لسنين فى رأسها . فى مرة أو مرتين لمعت الدموع فى عينيها ولكنها فى هذا المساء ايضا لم تبك . على الاقل لم تبك أمامى إلى أن تركت شقتها بعد ذلك اليوم الطويل..

أضاءت النور قبل أن أخرج فأجفلنا معًا وكأننا ، كلينا ، نفيق من حلم ، أمسكت بكتفيها عند الباب المفتوح وقبلتها فى جبينها .

مالت هي أيضا وقبلتنى فى وجنتى وهى تقول : شكرا لك أنت لا تعرف أى هدية جميلة قدمتها الى !

ثم قالت وهى تصافحنى : اليوم عيد ميلادى السابع والعشرون ..

الفصـــــل الرابع

هشـــة كفراشـــة

فى مطلع الشباب ، عندما كنت فى كلية الآداب وتعلمت قراءة الأدب الأجنبى ، كانت العبارة التى استهل بها تولستوى رواية «أنا كارنينا» تحيِّرنى : كل الأسر السعيدة تتشابه ولكن كل أسرة شقية فريدة فى شقائها . كنت أسأل نفسى لماذا يبدأ روايته العظيمة بهذه الحكمة التى لا تقدم ولا تؤخر ؟ ..

الآن فى آخـر العمر أدرك أنه كان على حق . لا أعرف الكثير عن الأسر السعيدة، هل تتشابه أفراحها أم لا ، لكنى أعرف أن الشقاء ندبة فى الروح ، إن بدأت فى الطفولة فهى تستمر العمر كله . وأفهم أنه لا توجد ندبة تشبه أخرى . ولكنى أسأل نفسى أيضا – حتى وإن لم تتشابه تلك الندوب ، أليس ذلك الشىء المحفور فى أنفسنا علامة يتعرف بها بعضنا على البعض ؟ .. ألا نتشابه نحن أيضا ؟

لماذا اختارت بريجيت أن تحكى لى أنا كل ما قالته ؟ .. هل كنت حقا ذلك العابر المجهول الذى أرادت أن تحكى له أسرارها لكى تفرغ منها أم كان هناك تصميم واختيار ؟ .. ولماذا استطاعت حكايتها البعيدة عن عالمى وعن كل ما أعرف أن تنفذ إلى قلبى بهذا العمق ؟

لماذا حزنت كل هذا الحزن على ذلك الأب المهزوم وعلى بريجيت الوحيدة بل وعلى زوجها الأفريقى الذى جعلتنى كلماتها أراه وأشفق عليه ؟ .. فهمت حكاية عالمك النائى عن دنياى ، فلعلك كان يمكن أن تفهمى أنت أيضا لو حكيت لك . ربما كان يمكنك أن ترى مثلى عالما بعيدا عنك . قرية صغيرة لا تشبه قريتك فى شىء ، قرية فقيرة فى آخر الصعيد ، ولكن يعيش فيها أيضا طفل وحيد مع أبيه .

ومع ذلك فأنا أعرف أنى لن أحكى لك ، وأعرف باليقين نفسه أنى لن أهرب من هاتين العينين ، عينى ذلك الطفل الذى يطاردنى منذ الصباح . لا يجدى ما أرهقنى به ذلك اليوم المشحون . لا يجدى أنى أتقلب فى الفراش بحثا عن نوم لا يجىء . لا يجدى أنى أسأله ما الفائدة ؟ .. ما الفائدة من أن تلازمنى فى مغرب العمر ؟ .. أية دروس سأتعلمها الآن ؟ وبم يفيد تعلم الدروس وقد فات الوقت ؟ .. أم أنك لا تريد أن تعلمنى شيئا ، بل تطلب حقا ما . ولكن ما هو ؟

نعم أراك . أراك كما تأتينى دائما طفلا وحيدا . طفلا ماتت أمه بالملاريا وهو فى الرابعة من عمره . أول ما يذكره هو وجهها فى تلك الليلة ، وجه كالشمع الأبيض يغسله عرق لا ينقطع وأسنانها تصطك . تنتفض وتطلب ماء . يرى أباه يرفع رأسها ليسقيها الماء فيتوقف ذلك الانتفاض فجأة وتميل برأسها على يده يرى حتى الآن حدقتيها تسبحان ببطء فوق بياض عينيها . يرى حتى الآن أباه يوسد رأسها فيبرز وجهها الأصفر وحده صغيرا جدا من ثوبها الطويل الأسود . يراه ينتصب واضعا يديه على كتفيه الصغيرتين متطلعا نحوه فى دهشة وهو يقول «خلاص ياولدى» . يغمره خوف حين يرى نسوة يندفعن إلى الغرفة مولولات وهنّ يلوحن بطرحهن السوداء فيدفن وجهه فى جلباب أبيه .

تأتينى بعد ذلك دائما فى يومك الأول فى المدرسة . كم كان فخورا يومها وقد ارتدى البذلة لأول مرة وأبوه يصحبه معه ليذهبا إلى المدرسة البعيدة فى المدينة . يتذكر كيف كان فى أيامه الأولى يفرح عندما يقول له أحد المدرسين أن يخرج من الفصل ويطلب من أبيه أن يحضر بعض الطباشير أو حبرا للأقلام أو أن يحمل له إحدى الخرائط الكبيرة التى يضعونها على السبورة . بل وأفرح عندما يطلب منى أبى أن أساعده فى نهاية الأسبوع بعد أن يخرج كل التلاميذ والمدرسين فيشمر جلبابه ويربطه فى وسطه ويرفع كميه حتى كتفيه بينما أحمل له جرادل الماء ونمر على الفصول كلها وهو ينتقل من فصل إلى آخر يمسح الأرض بخرقته المبللة مقرفصا فى الأرض . ومتى بدأت أشعر بالعار ؟ .. عندما كبرت قليلا ؟ .. عندما

يتفلم فى وجهى أحد المدرسين وهو ينظر فى ساعته قائلا «لماذا لم يضرب أبوك المسطول الجرس يا ولد ؟ .. اخرج صحيّه !» عندما كان التلاميذ يعيِّروننى إن ما تشاجرنا فى الفسحة ؟ .. أيامها كنا نحن الفقراء حفنة صغيرة فى المدرسة وسط أبناء ملاك الأرض وأبناء الموظفين فى المدينة . يجدون فى إهانتنا متعة وفخرا ويزيد العداء لو تفوقنا فى الدراسة . نجح البعض فى ستر فقرهم ، أما أنا فكيف كنت أستطيع ؟ .. وكيف كنت أملك أن أخفى درجاتى العالية فى كل المواد؟ ولكن حتى بعد أن خرج أبى إلى المعاش وأنا مازلت فى المدرسة الابتدائية ظل لقبى متوارثا لدى أجيال المدرسين . عندما يأتى مدرس جديد ويبدأ كالعادة فى قراءة أسماء التلاميذ ثم يسأل ذلك السؤال الذى لا مفر منه «ما هى مهنة الوالد ؟» .. يتطوع أكثر من تلميذ فى الفصل قبل أن أرد «كان فراش المدرسة» ، فيعرف المدرس وأعرف أنا أنه لن يجد سببا يمنعه من أن يسبنى ومن أن ينزل بى كل العقاب الذى يخاف أن يصيب به أبناء الآخرين . كم مرة تشاجرت مع التلاميذ الذين أهانونى بسبب أبى ؟ .. كم مرة ضربتهم وضربونى وأسلت دماءهم وأسالوا دمى دون أن أجسر مرة واحدة أن أبوح لأبى بسبب جروحى ؟ .. وكم بالغت فى الفخر به بعد ذلك فى الصحيفة وفى الاتحاد الاشتراكى وأمام منار أول ما تعارفنا ! أحكى للجميع عن أبى فراش المدرسة الذى قتّر على نفسه وادخر الملاليم والقروش لكى يعلمنى فى الجامعة . ولكن هل شفت تلك الخطب الكبيرة الجروح الأولى ؟ هل أزالت المهانة ؟ .. ربما .. عندما كان الرئيس واحدا منا ، نحن أبناء الفقراء ، وعندما انحاز إلينا . عندما لم يكن الفقر عارا . ولكن ألم أشعر بالعار القديم نفسه عندما كان على أن أملأ «كشف الأسرة» وأن أذكر مهنة الأب والجد يوم فكر خالد بعد الثانوية العامة أن يدخل الكلية الحربية ؟ .. فما الداعى إذن إلى التظاهر ؟ .. ما الداعى إلى الكذب ؟ انتهت جنة الفقراء . لم توجد يوما جنة للفقراء . كانت تلك أيضا كذبة يجب أن ننساها .

أتلذذ بإهانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تتذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لمْ لا تفكر مثلا فى أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشأتهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخذول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تنجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا ياإبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلا فتدهمنى أحلام أصحو منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقاس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك فى الشعر ؟ .. جربته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطرفة بن

العبد الذى تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثهمد ، تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبّد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت – تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شىء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذّامها . لكى لا تجر نوار منار. أدخل على المتنبى – ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا .. لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم ؟ .. ولكننا سنتصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من؟.. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلع الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شىء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد مئذنة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا – يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذه ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وبيده عصا كالصولجان .. يشير

أتلذذ بإهانة نفسى حقا يا إبراهيم ! ولكن إبراهيم معه حق ! .. كيف يمكن أن يأتى النوم وأنت تعذب نفسك بهذه الأفكار ؟ .. لم لا تذكر بدلا من ذلك الأشياء الحسنة التى فعلتها ؟ .. لمْ لا تفكر مثلا فى أنك صممت على أن تعلن فقرك وعلى أن تقهر فى داخلك إحساس المهانة بسبب هذا الفقر ؟ .. لم تفعل مثل آخرين تعرفهم يقضون عمرهم فى محاولة الهرب من أسرهم الفقيرة وفى إخفاء نشأتهم المتواضعة . لم لا تذكر أنك عندما وقع الانقلاب فى الصحيفة رفضت أن تساير الركب ؟ .. لم لا تذكر ما قلته لمن جاء يوسوس لك : ابعث برقية تأييد للرئيس ! .. الرئيس معجب بك ويعرف أنك صاحب قلم . اكتب افتتاحية ضد مراكز القوى ! صرفته بأدب قائلا لن أرسل برقية ولن أكتب افتتاحية . كنت تعرف أنه سينقل ذلك وأردت أن ينقله . لم تقل خطبة عصماء ولكنك أردت فقط أن يعرفوا أنك لست للبيع فعرفوا ودفعت الثمن . ولم لا تتذكر أنك حاربت السقوط بعد أن تركتك منار ؟ .. إنك حاربت أن تنهار أمام مهانة الحب المخذول ؟ .. إنك رفضت أن تشكو وأن تتاجر بجراحك ؟ .. إنك حاولت فى كل الظروف أن تنجو من السقوط فى بئر الرثاء لحالك ثم أن تجعل من هذا مبررا لكل سقوط ؟ ..

ألا يغفر لى هذا ياإبراهيم ؟ .. ألا يغفر لى أنى حاولت يا إبراهيم ؟ .. ولكن ما أهمية . هذا كله الآن ؟ .. ومتى يسمح لى ذلك الطفل بأن أعقد الصلح معه ؟ .. متى يتركنى ؟ .. لو يأتى النوم ! ..

لكنه لا يأتى .. أغفو قليلا فتدهمنى أحلام أصحو منها فى فزع دون أن أذكر ما هى . أجلس فى الفراش مرة أخرى وأقاوم الرغبة فى أن أقوم وأدخن . أستعين بتحذيرات الطبيب لأمنع نفسى . يزورنى وجهه المتجهم بعد أن فحصنى وقاس الضغط فى آخر مرة . عندما طلب منى بهدوء ألا أرجع إلى عيادته مرة أخرى إن واصلت التدخين . أذكر الصداع العنيف فى أزمة الضغط الأخيرة فتهدأ رغبتى فى التدخين لكن النوم بعيد .

إذن ما رأيك فى الشعر ؟ .. جربته فى مثل تلك الليالى ... أسترجع كل أبيات الشعر التى أحفظها إلى أن يغلبنى النوم . نبدأ بالشعر الجاهلى ؟ .. بطرفة بن

العبد الذى تعشقه ؟ .. ليكن : لخولة أطلال ببرقة ثهمد ، تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد .. هل هى فى ظاهر اليد أو فى باطن اليد ؟ .. لا يهم . أكمل . دعك من وصف الناقة . ادخل على : فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد ... ثم ماذا ؟ .. آه . ومازال تشرابئ الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى .. إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبَّد .

نعم ، بالضبط أيها الأستاذ البعير المعبد ! .. هذا هو أنت – تحامتك العشيرة مع أنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى حلقة القوم ! .. ولكن ربما لأنك لم تذهب إلى الحوانيت ولا إلى الحلقة ؟ .. هكذا لن نصل إلى شيء . ليست هذه ليلة طرفة على أى حال . لا تصلح لما نحن فيه . دعك من الشعر الجاهلى كله لكى لا يأتى بيت : أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذَّامها . لكى لا تجر نوار منار. أدخل على المتنبى – ولكن هناك أرق على أرق ومثلى يأرق . دعك منه الآن أيضا . لن يجلب نوما . من إذن ؟ .. البحترى ؟ .. صنت نفسى ؟ .. جعجعة أكثر من اللازم فى الليل . صلاح عبد الصبور ؟ .. جارتى مدت من الشرفة حبلا من نغم ؟ .. ولكننا سنصل مباشرة إلى طلع الصباح فما ابتسمت وكل ذلك الحزن . أمل دنقل ؟ .. سيجرنا على لا تصالح فنظل حتى الصباح فيما نهرب منه . نريد شاعرا هادئا .. زهير ؟ .. عمر بن أبى ربيعة ؟ .. كثير عزة ؟ .. السياب ؟ .. أحمد شوقى ؟ .. من ؟ .. من؟.. شاعر مريح .. شاعر طيب .. لكنى أدخل فى بهو طويل على جانبيه صفان من رجال صلع الرؤوس عرايا الصدور يبتسمون فى مكر وأنا أمر بينهم مسرعا .. شيء مهم يجب أن أفعله وإن لم أدرك تماما ما هو . أصعد مئذنة أو برجا . أصعد جريا لكن يدا ضخمة تدفعنى إلى أسفل .. أصرخ محتجا – يجب أن أنقذها .. يجب أن أنقذه ! .. يكون مركب صغير وسط أمواج عاتية ومن فوقه طيور كالنسور تحوم وتنقض فوق المركب كالنذير .. يظهر شخص فوق صخرة عالية يرتدى زيا رسميا وبيده عصا كالصولجان .. يشير

بعصاه بطريقة آمرة .. ينهرنى قائلا تأخر الوقت ! .. أحوِّل عينى إلى حيث يشير بعصاه.. أسمع صرخة وأرى عربات إسعاف كثيرة مقبلة .. فأجرى . لا أعرف إن كنت أجرى منها أو أجرى خلفها ...

★★★

مددت يـــدى وأنا فى الفراش وأسكت المنبه .

★★★

فى الصباح أخذت حبة علاج الضغط مع كوب العصير .

كنت أشعر بتعب شديد ولكننى اتصلت بإبراهيم فى فندقه لأقول له إننى أخذت موعدا مع أحد الصحفيين وإننى سأمر عليه فى الفندق لكى نذهب معا .

وكنت قد حددت بالفعل موعدا مع برنار ، هو أول من طرأ على بالى عندما طلب منى إبراهيم أن أقدمه لمن أعرفهم من الزملاء فى البلد . لم تكن علاقتى بالصحفيين تتجاوز المقابلات العابرة فى المؤتمرات أو فى الحفلات الرسمية . واكتشفت بسرعة أن الأمور هنا تختلف عن بلدنا ، حين تدعو من تتعرف عليه بعد أول أو ثانى مقابلة لكى يزورك فى بيتك ، عرفت أن الصحفيين هنا ، مثل غيرهم ، لا يرحبون بالعلاقات الاجتماعية التى لا تفيد . ولم أكن أنا مصدرا مهما للمعلومات أو على علاقة بجهات ذات نفوذ تجعلهم يسعون إلى معرفتى ، فاعتبرت هذه العزلة جزءا من فترة العقوبة التى أقضيها فى المنفى والتى لم أكن أعرف لها نهاية .

ومع أن برنار أيضا لم يدعنى إلى بيته فقد كان يختلف عن بقية الصحفيين الذين أقابلهم . حتى مظهره كان يختلف . هندامه دائما فى الحد الأدنى المقبول ولكنه بعيد جدا عن تلك الأناقة المحكمة التى تميز الصحفيين البارزين، والذين أراهم دائما بياقات القمصان العالية وربطات العنق «الموقعة» ، والسترات من بيوت الأزياء الراقية إلخ .. إلخ . على العكس ، كانت سترة (برنار) تبدو دائما

أوسع قليلا مما ينبغى ، ربما لكى تخفى بطنه الكبير . ولم أره مرة واحدة فى البرامج التى تستضيف الصحفيين فى التليفزيون . لا أظن أنه كان يستطيع أن يتغلب على تلقائيته فى الحديث وأن يعرض أفكاره على الشاشة بطريقة منمقة لا تغضب أحدا كما يفعل الآخرون . ولا أظن أيضا أنه كان لديه الوقت لذلك . كنت أعرف أنه أرمل وأنه يتبنى طفلا فيتناميا من لاجئى القوارب ويرعاه بمفرده منذ ماتت زوجته .

وبينما كنا فى الطريق إلى المقهى الذى تواعدت فيه على اللقاء مع برنار راح إبراهيم يرتب مرة أخرى الأوراق التى يحملها فى حقيبته الجلدية الصغيرة ، وبدا أميل إلى الصمت والشرود . أما أنا فكان خمول الصباح قد فارقنى وحل محله ذلك النشاط الزائف الذى تولده عندى القهوة مع قلة النوم . ولم أكن أستطيع أن أسيطر على رغبتى فى أن أتكلم عن أشياء جادة وأشياء فارغة ، ولكن إبراهيم كان يرد على باقتضاب وكان يحول دفة الحديث دائما إلى العمل الذى جاء من أجله ، ويسألنى عن اتجاهات الصحف التى تصدر فى البلد ، وأيها يمكن أن يساعده فى عمله . وحتى عندما كان يسأل عن ذلك كان واضحا أنه يفكر فى شىء آخر .

وجاءت خيبة أمله الأولى فى الصحافة عندما قابلنا برنار .

تقابلنا فى المقهى المقابل للدار التى يعمل فيها ، وكان ملتقى للصحفيين ، تحرص صاحبته (إيلين) على أن تضع فى أركانه صورا فوتوغرافية للكتاب المشهورين وهى تقف إلى جوارهم أو تضع يدها على كتف واحد منهم . وفى صدر المكان كانت هناك لوحة زيتية كبيرة ، يبدو عليها القدم لا الأصالة ، لامرأة ممتلئة إلى حد ما تلبس ثيابا شفافة وتمسك بيدها اليمنى ريشة طائر بيضاء طويلة وباليد الأخرى ميزانا متوازى الكفتين .

قال برنار بمجرد أن عرَّفته على ابراهيم : قادم من لبنان ؟ .. لابد إذن أن لديك آخر الأخبار .

فنظر إليه إبراهيم طويلا واعتقدت أنه لن يرد ولكنه قال أخيرا بهدوء :

ـ ما الذى تود أن تعرفه عن لبنان ؟

ـ ما يود أن يعرفه كل إنسان . أن أفهم سر هذه الحرب الأهلية الطويلة وأن أعرف ما الذى يدور هناك .

ـ ولكن لا يوجد أى لغز . أنت تعرف أن إسرائيل تسلح جيشا فى الجنوب وتسلح الكتائب فى الشمال لكى تستمر الحرب أليس كذلك ؟

هز برنار رأسه قائلا : ليست المسألة بهذه البساطة . اللبنانيون ليسوا دمىً مع ذلك يحركها من يشاء . لابد أن هناك غلطة ما فى لبنان ذاته .

لم يعلق إبراهيم على ذلك وأخذ بدلا من ذلك يحدثه عن دوريات إسرائيل التى تخطف الفلسطينيين واللبنانيين من الجنوب . ثم أخرج من حقيبته مجموعة الأوراق التى كان قد رتبها وقال لبرنار :

ـ خذ مثلا . هذه حالة السائق اللبنانى سعيد داكر . أوقف الجنود عربة الإسعاف التى كان يقودها فى جنوب صيدا واعتبروه إرهابيا لأن السيارة كانت تتبع الهلال الأحمر الفلسطينى . عصبوا عينيه ووضعوه فى سيارة عسكرية أخذته إلى إسرائيل وانهالوا عليه ضربا بالعصى وبكعوب البنادق حتى حطموا عظام ساقيه فلم يعد يستطيع المشى . تعرض أيضا للتعذيب بالكهرباء مثلما سمعت بالأمس من بيدرو إيبانيز بالضبط . ها هى صور لآثار التعذيب بالكهرباء حول حلمتيه وهناك بالطبع آثار فى المواضع الأخرى . ومعك شهادة طبية محايدة عن حالته .

قال برنار وهو يتصفح الأوراق ويقرأ سطورها بسرعة : نعم ، هى حالات واضحة ولو أن اللغة المكتوبة بها رديئة جدا .

قال إبراهيم باستغراب : حقا؟ .. قال لنا الزميل اللبنانى الذى ترجم هذه الأوراق إلى الفرنسية إنها لغته الأم !

فقال برنار - هو إذن ابن ميثوس منه ، وإن لم تكن هذه هى المشكلة . أستطيع بسهولة أن أعيد صياغتها وأن أكتبها لك باللغة التى تجعلها قابلة للنشر غير أن هذا لن يحل شيئا ..

ثم أكمل بهدوء وهو يعيد الأوراق إلى إبراهيم : لن تجد صحفيا هنا مستعدا لنشر هذا الكلام .

قال إبراهيم : لماذا ؟ .. أنا أعطيك حالات محددة بالأسماء وبالشهادات من مصادر محايدة .

فقاطعه برنار - وأنا أصدقك مائة فى المائة ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع أن أنشر هذا ...

قال إبراهيم فى خيبة أمل : ولكن لماذا ؟..

تطلع إليه برنار من خلف نظارته السميكة وهو يقول ببطء : أنت تعرف لماذا . إن قلنا إن هناك جنودا مسلحين يخطفون مواطنين عزلا من السلاح من دولة أخرى فهذا اتهام خطير..

قاطعه إبراهيم : ولكنى أعطيك دليلا على ما أقول وأعطيك أسماء حقيقية ...

تردد برنار قبل أن يقول : لا يكفى . قلت لك أنا أصدقك ، ولكن كيف يصدقنى رئيس التحرير ؟ ماذا أفعل أنا أو يفعل هو لو جاءنا تكذيب رسمى وقيل لنا إن هؤلاء فدائيون وإننا بذلك نشجع الإرهابيين ، أو قيل أخطر من هذا، إننا نعادى السامية بالدفاع عن هؤلاء الإرهابيين ؟

تمتم إبراهيم وكأنه يحدث نفسه : تعادى السامية ؟ ما الذى جرى للدنيا ؟ .. كنت أعرف أنى سأجد صعوبة ولكن ليس إلى هذا الحد .

فضحك برنار وهو ينظر نحوى قائلا : لماذا تبتئسون بسرعة ؟

لوّح إبراهيم بالأوراق التى فى يده وقال : بسبب ما نراه .

سكت برنار لحظة ثم قال : ولكنك تعرف أن الصحفى كالطبيب . يجب أن

يبتعد مسافة ما عن الحالات التى يعالجها . يجب ألا تكون هى همه بالليل وبالنهار إن أراد أن يعيش ...

قلت مازحا – إبراهيم صحفى ملتزم .

قال برنار – وحتى الصحفى الملتزم له حياته وله أفراحه وهمومه الخاصة . أعرف صحفيا يعتبر نفسه ملتزما مثل إبراهيم .. تتوالى عليه منذ الصباح أنباء العالم ومشاكله : الحروب والمجاعات والجرائم ، يهتم بها كثيرا ويحزن لها . ولكن ما يوجع قلبه بالفعل طول الليل والنهار هو أن ابنه الذى أحبه ورباه ما إن كبر قليلا وكون أسرة حتى نسى أباه تماما . لا يكلف نفسه أن يطلبه بالتليفون مرة كل أسبوع أو حتى كل شهر ليسأل عن حاله أو ليعرف حتى إن كان حيا أو ميتا ...

كان صوت برنار يمتلىء الآن بالمرارة ، ولم يبد لى أنه يتكلم عن مجرد صحفى يعرفه . وسألت نفسى إن كان له ابن من صلبه ؟

غير أنه استرد نفسه بسرعة وقال وهو يلتفت إلى ابراهيم : أرأيت ؟ هذه مشكلة صغيرة جدا ولكنها يمكن أن تشغل الصحفى أكثر من حرب لبنان . اهدأ... منذ جلسنا معا وأنت مشدود كالوتر ، مع أنك تعرف بالتأكيد ما هى مشاكل المهنة . فلنفكر إذن فى حل لمشكلة هذه الأوراق التى تعذبك ...

وفى هذه اللحظة كانت إيلين صاحبة المقهى تتقدم نحونا بقامتها القصيرة وشعرها الأشقر المصبوغ وهى تحمل فنجانى القهوة . وضعتهما أمامى وأمام إبراهيم وهى تقول بابتسامة عريضة : صباح الخير ياسادة ..

وقالت لى : هذه هى قهوتك الطبية كالعادة يا سيدى ! .. القهوة بدون كافيين.. وتحولت إلى برنار تسأله : كوبا آخر يا سيد برنار ؟

نظر برنار إلى الكوب الذى فى يده متأملا ما بقى فيه قبل أن يتخذ قرارا ثم قال لإيلين كأنما بشىء من الأسف – لا ، لابد أن أعود إلى العمل . ولكنّى سألتك عن زوجك على ما أظن . إن كان هنا فقولى له إننا نود لو نراه ..

ظلت إيلين منحنية على المائدة وقالت : بالطبع هو هنا ولكنه فى المطبخ ، لابد من إعداد الغداء للزبائن كما تعلم ، هل أقول له ؟

– نعم .

انسحبت إيلين وتطلعنا إبراهيم وأنا فى تساؤل نحو برنار الذى قال لى :

– عندى لكما الآن مفاجأة .. سأقدمكما لمصرى مثلكما ، ولكن هذه ليست هى المفاجأة بالطبع . فالمصريون كثيرون هنا .. المفاجأة هى أنه زميل فى المهنة ! ..

دهشت حين رأيته وهو يتقدم منا بمريلة المطبخ البيضاء . ترددت خطواته قليلا قبل أن يصل إلينا ثم عاد وخلع (المريلة) وعلقها فوق مشجب وجفف يديه جيدا فى فوطة قبل أن يتجه نحونا من جديد . كنت قد رأيته مرات عديدة من قبل، وفى أول مرة لمحته شعرت أنه مصرى مع أنه كان أشقر ولم تكن ملامحه تختلف كثيرا عن الأوروبيين . كان فى سحنته ذلك الشىء غير المحدد الذى يجعل أبناء كل بلد يتعرفون على بعضهم البعض . ولكنه فى المرات التى رأيته فيها فى المقهى لم يظهر أى إقبال ولم يحاول أن يتحدث معى فقلت لنفسى ربما أخطأت فى تخمينى . أما ما أدهشنى الآن فهو اكتشافى أنه زوج لإيلين . كان أصغر منها فى السن بكثير ، وقلت لنفسى إن الفارق لا يقل عن عشرين عاما بأية حال .

صافحنا بيد رطبة بما تشربته من المياه رغم ما بذله من جهد فى تجفيفها ، بينما كان برنار يشير إليه قائلا : السيد «يوسف» . وبعد التعارف سحب مقعدا وجلس على طرفه مطرقا ومحرجا .

قال برنار مشجعا : هيا يا يوسف . أدخل فى الموضوع بسرعة . السيدان صحفيان ومن بلدك .

قال يوسف : المسألة ليست سهلة وتحتاج إلى وقت .

قال برنار : مفهوم، المطلوب الآن أن تحكى الخبر باختصار . ألا تريد أن تكون صحفيا ؟ .. يجب أن تتعلم الإيجاز .

ثم التفت برنار نحوى وقال : وباختصار يوسف يريد أن يصدر صحيفة عربية من هنا . ويريد استشارتك فى الموضوع .

نظرت إليه باستغراب : تريد أن تصدر صحيفة مرة واحدة ! ... أنت مليونير ؟

فضحك يوسف وقال : لا . ولكن معى المليونير .

قلت : حتى ولو كان هذا صحيحا فهو لا يكفى . هل لك خبرة سابقة فى الصحافة ؟

قال متغلبا على خجله : نعم ولا . أقصد لم يسبق أن أصدرت صحيفة ولكنى كنت طالبا فى كلية الإعلام فى جامعة القاهرة ... منذ عدة سنوات .

سألته : ولماذا تركت مصر ؟

فضحك يوسف بصوت خافت وقال : هذا تحقيق صحفى أو تحقيق فقط ؟

قلت بما يشبه الاعتذار : لا ، هو مجرد فضول . لا ترد إن كان هذا يضايقك .

ـ لا يضايقنى على الاطلاق . كنت فى السنة الثالثة بكلية الإعلام وكان محكوما على بالسجن ستة أشهر ، لأننى اشتركت فى مظاهرة هتفت ضد السادات واشتبكت مع حرس الجامعة . هربت إلى ليبيا بعد صدور الحكم ومن ليبيا جئت إلى هنا .

قال إبراهيم بابتسامة صغيرة : إذن يا صديقى حالك من حالنا ...

فأشار يوسف باصبعه لليمين واليسار قائلا : لا . حالى ليس من حال أحد . ما رأيته منذ خرجت من مصر يكفى لكى ..

ثم سكت ..

فقال له إبراهيم : ولكن كيف وصلت إلى .. وتوقف قائلا لا ، لن أشترك فى هذا التحقيق .. معك حق يا يوسف ، كأننا نحاكمك .

وكانت تلك بالفعل هى المرة الوحيدة التى تدخل فيها ابراهيم فى الحوار ، ظل يتابعنا بعينيه ولكنى لاحظت أنه بعيد إلى حد ما ..

وفى تلك الأثناء كانت (إيلين) تحوم فى المقهى ، تضع على الموائد الخالية المفارش والشوك والسكاكين ولكنها تختلس نظرة نحونا بين الحين والحين . وكان يوسف يتابعها أيضا بنظره وهى تتنقّل بين الموائد.

قال برنار : طبعا أنا فهمت كل ما قلتموه باللغة العربية ، ولكن هل كل شيء على ما يرام ؟ .. هل اتفقتم ؟

قلت له : نحن بالكاد نتعرف على بعضنا البعض !

فضحك وهو يزيح كوبه – أخشى أنه لا يوجد وقت لأكثر من ذلك !

وبالفعل كانت إيلين تقترب منا ووضعت يدها على كتف برنار وهى تسأله : هل انتهيتم ؟ .. يسألون عن يوسف فى المطبخ . هو الرئيس كما تعلم !..

ظلت هناك ابتسامة على شفتيها ولكن نظرة صارمه أطلت من عينيها وهى تقول : أليس كذلك يا يوسف ؟ .. يحتاجون إليك هناك .

لم يرد يوسف ولكنه قام قائلا : سأتصل بك بالتليفون يا أستاذ . أعرف اسمك وسأستخرج رقمك من الدليل .

هز رأسه محييا وهو يبتعد وإيلين وراءه . وعندما اختفى قلت لبرنار :

– هل هذه القصة الحقيقية أم أنها مجرد أحلام ؟ .. هل يوجد بالفعل مليونير؟

رد برنار ببطء وهو يهز رأسه مؤكدا : هو ليس مليونيراً فقط ، بل أمير عربى أيضا . ليس أميرا فقط بل أمير تقدمى أيضا .

كررت باستمتاع : ليس أميرا فقط ، بل تقدمى أيضا .

فقال برنار : أنا لا أمزح . هو أمير من بلد فى الخليج ، كان يوسف يعمل معه فى وقت من الأوقات ، وهو الأن يريد أن يصدر هنا صحيفة باللغة العربية ، وكلف يوسف أن يدرس له المسألة ..

مدينة هو الأشجار والخضرة . ومع الشيخوخة أصبحت أبحث عن كل ما يذكرنى بطفولتى .. بمجرى النيل وبأشجار الجميز والصفصاف . أنا فلاح كما تعلم!... يمكن أيضا أن نذهب إلى مقهاك بجانب النهر .

ـ سنذهب إلى هناك للغداء إن أردت . ولكن هناك حديقة صغيرة بالقرب من هنا وأنا أيضا أحبها . أسميها حديقتى السرية .

وبينما كنا فى طريقنا من وسط المدينة المزدحم نجتاز شارعا جانبيا يهبط نحو النهر سألنى إبراهيم بطريقة عابرة :

ـ إلى إين أخذت بريجيت بالأمس ، أو أين أخذتك هى ؟

فقلت : أوصلتها حتى بيتها .

.. هل أقول له أيضا لو سألنى إننى صعدت إلى شقتها ؟ وماذا سيظن لو قلت له ذلك ؟

لكن إبراهيم لم يسألنى عن شىء .. وعندما وصلنا إلى واجهة بناية قديمة دلفنا من بوابتها المقوسة واجتزنا ممرا صغيرا فأصبحنا فى الحديقة التى تتوسط باحة كبيرة بين عمائر قديمة ترجع إلى قرن مضى على الأقل . وكانت بالفعل حديقة سرية جميلة لا تراها من أى مكان فى الطريق .

توقف إبراهيم فى مدخل الحديقة مبتسما وظلل يديه بعينيه وهو يدور ببصره بين أشجارها وقال لى بطريقة عابرة : هل تأتى هنا لتحب ؟

فرددت أيضا بلهجة عابرة :

ـ ألم تكن أنت الذى قلت بالأمس إننا تجاوزنا هذه السن ؟

لم يرد إبراهيم وراح يسير ببطء وأنا أتابع خطواته وسط الممرات التى تحف بها أشجار الحور العالية بخضرتها الكثيفة وأشجار الكستناء التى بدأت تطرح ثمارها الخضراء المستديرة . سار يتأمل أيضا أحواض الزهور على جانبى الممرات ، وكانت ورودا تشرع أوراقها الحمراء والصفراء فى زهو الفتوة مع

الصيف الجديد ، و إلى جوارها أحواض أخرى لزهور البانسيه ، فى ألوان مختلفة بيضاء وبنفسجية وبنية ، وفى قلب كل منها خاتم أصفر مستدير من نقط صغيرة كالوشى المنمنم . وبدا إبراهيم مستغرقا تماما فى تأمل تلك الزهور فلم نتبادل كلمة إلى أن جلسنا على مقعد فى ركن يشرف على الحديقة كلها .

ظللنا نجلس صامتين وكل منا مستغرق فى أفكاره . ولكن إبراهيم هو الذى قطع ذلك الصمت حين سألنى دون أن ينظر نحوى :

ـ ما هو عمر ابنك ناصر ؟

التفت نحوه فى شىء من الدهشة : اسمه خالد كما قلت لك . عما قريب سيصبح عمره ٢٠ سنة. ولكن غريب حقا أن تسألنى عنه الآن . كان خالد على بالى فى نفس اللحظة التى سألتنى فيها عنه . ولكنى كنت أفكر فى أن اليوم هو موعد مكالمتى معه . أما أنت فما الذى ذكرك به؟

ـ تذكرت عندما كنت فى مثل عمره .

قلت بقلب مثقل : بالتأكيد أنك كنت تختلف عنه

ـ كيف ؟

– خالد تغير كثيرا فى الفترة الأخيرة . كان شابا عاديا يحب الرياضة ويحب قراءة الأدب والشطرنج بصفة خاصة . كنت أنا الذى علمته الشطرنج ولكنه بدأ يهزمنى حتى وهو فى سن ١٤ أو ١٥ وأسعدنى ذلك مثل كل أب .

وتوقفت قليلا قبل أن أكمل : وكان أيضا متدينا طول عمره ، أما الآن فقد ذهب بعيدا ..

– تقصد أنه انضم إلى الجماعات أو شىء من هذا النوع ؟

– لا ولكنه أصبح يغالى كثيرا ، حتى طريقته فى الكلام تغيرت .

ثم غلبنى الحزن وأنا أقول له : هنادى تقول لى الآن إنه لم يعد يشاهد التليفزيون وإنه يريد منها أيضا ألا تشاهده .

ضحك إبراهيم وقال : فى هذا بالذات معه حق ! .. التليفزيون عندنا جهاز للتخلف العقلى.

أراد إبراهيم فى الغالب أن يغير الجو وحين رأى أنى لم أستجب له قال :

ـ اسمع يا صديقى، هذه مرحلة من العمر . هل يدهشك لو عرفت أننى فى مثل سنه أو عندما كنت أصغر منه قليلا لم أكن أغادر المسجد ؟ لم أكن أكف عن الصلاة ، وأكرر الوضوء لأن وسواسا أتانى أنى قد نقضت وضوئى وأستغفر الله لذنوب لم أرتكبها . استغفر لمجرد أفكار محرمة طافت فى ذهنى. كنت أبكى وأنا أدعو الله أن يغفر لى هذه الأفكار الشريرة وأعد بالتوبة عنها ..

ـ كلنا مررنا بذلك .

ـ وإذن فلماذا تخاف على خالد ؟ .. هو أيضا سيجد طريقه . هيا – مرة أخرى أنا آسف لأنى أبعث أفكارا مزعجة . هيا .. فلنترك هذه الأفكار .. سأقول لك الآن شيئا يدهشك بحق ! .. هل تصدق أن حديقة منزلنا فى القرية كانت بمثل هذا التنسيق والجمال ؟ .. لم يكن أبى يتساهل مع البستانية أبدا لو حدث أى إهمال .

حاولت الابتسام وأنا أقول : سمعت أنه كان قصرا لا منزلا .

ـ لا ، هذه مبالغة . كان بيتا كبيرا ، ولكنه كان بيتا جميلا ..

ثم سكت لحظة قبل أن يضيف وقد غلبه هو الاكتئاب فى هذه المرة :

ـ ولكنى لم أعرف فيه السعادة أبدا ..

ـ حتى أنت ؟

تطلع إبراهيم نحوى وقال فى بطء : ماذا تقصد حتى أنا ؟ .. نعم ، حتى أنا!.. سمعتك مرات تتحدث عن طفولتك الفقيرة وصدقنى أننى فى بعض الأحيان كنت أحسدك ! .. كنت أسأل نفسى لماذا لم أكن أنا أنت ؟ .. لماذا لم أكن أى إنسان آخر بدلا من أن أكون أنا ؟ .. أحيانا ما تأتينى هذه الأفكار الغريبة ..

- هل كـــانت طفولتك شقية حقا إلى هذا الحد ؟

ولكنه واصل كأنه لم يسمعني : أسأل نفسى كثيرا فى هذه الأيام ، ما هى تلك المصادفات التى تتحكم فينا وتصنعنا ؟ هل كان من الضرورى حقا أن أولد ابنا لمالك الأرض فى القرية ؟ .. وهل كان من الضرورى أن يملأ أبى البيت بالكتب التى يقتنيها ويجلدها ويطبع عليها اسمه بالخط النسخ المذهب دون أن يفتح منها كتابا ، ثم يترك لى أنا هم القراءة منذ تعلمت القراءة ؟ .. ماذا لو أن شيئا من ذلك لم يحدث ؟ هل كانت حياتى ستفسد من أولها ؟ .. هل كانت عينى ستقع على العطب فى كل شىء ؟ .. لماذا لم أستمتع بهذه الحياة مثلما يستمتع بها كل إنسان؟..

بدأ إبراهيم أسئلته بهدوء ثم تسللت نبرة من التوتر إلى صوته . وأوشكت أن أقول له إن هذه الأفكار ليست «علمية»، ولكنى أمسكت لسانى حين رأيته يحك جبينه بيده ويحدق أمامه مباشرة ، وكأنه يبحث الآن فى هذه الحـــديقة ، عن إجابة للأسئلة التى عذبته طويلا .

عاد ينظر نحوى أخيرا ويكرر سؤاله بصوت خافت : لماذا ؟ الآن أسأل نفسى: متى بدأت همومى . هل كانت أمى هى السبب؟ .. ربما . هى أول حزن وعيت عليه فى حياتى دون أن أفهم سببه . مازلت أراها هناك فى بيتنا الكبير فى القرية .. فى البيت الكثير الغرف ، المملوء بالأثاث وبالصور وبالكتب .. تتحرك وحيدة من غرفة إلى أخرى .. ترفع أشياء ثم تضعها مكانها . تقول للخدم الكثيرين أوامر ، ولكن بصوت غير واثق كأنها تتوسل إليهم ثم بسرعة تسحب ما أمرت به .. تقول للخادم : إن كنت متعبا أجل هذا العمل لبعد الظهر ولا داعى للعجلة .. الدنيا لن تطير .. تكاد تعتذر له عن وجودها . فى الصبح كانت تشغل نفسها بوضع الزينة .. أحمر الشفاه والكحل للعيون وتلبس ثوبا للخروج ومجوهرات كثيرة ثم لا تخرج من البيت ، ونادرا ما يزورها أحد . فقط تتحرك فى غرف البيت وتتنهد . أما أبى فلم أسمعه يناديها باسمها أبدا . كان يقول لها دائما

الفصـــل الخامس

كم أنـــت جميـــل !

عندما فتحت باب الشقة أطل على عبد الناصر مبتسما من صورته الملونة على الحائط . وكانت فى يدى الأشياء التى وجدتها فى صندوق البريد : أعداد من الصحيفة مرسلة من القاهرة وأوراق الإعلانات الكثيرة . فرزت الصحف ولم أجد من بينها عدد الخميس الذى تكتب فيه منار بابها الأسبوعى ، فوضعت الأعداد الجديدة على المكتب فى الصالة فوق الصحف الأخرى .

جلست الى المكتب وبدأت أحاول الاتصال بالقاهرة . بدأ قلبى يدق كالعادة وأنا أطلب الرقم متطلعا إلى صورة خالد وهنادى فى البرواز الموضوع على المكتب ..حاولت مرات كثيرة دون جدوى . كالعادة كانت هناك إشارة الخط المشغول حتى قبل أن أنتهى من إدارة الرقم، أو صمت مطبق بعد أن انتهى من إدارته يستمر طويلا فأضطر إلى معاودة الطلب من جديد . كنت معتادا على ذلك وأعرف أنه لا حل غير تكرار المحاولة مرات لا حصر لها فبدأت أدير الأرقام بأصبعى فى القرص بصورة آلية وأنا أختلس النظر إلى عناوين الصحيفة التى أمامى . وفجأة دون أن أشعر ودون رنين مسبق أتانى صوت هنادى كالمفاجأة :

«ــ آلو .. بابا ؟

ــ أيوه ياحبيبتى .. إزيك يا هنادى ؟

ــ هلكانة من المذاكرة ، والدنيا حر جدا .

ــ معلهش شدى حيلك يا هنادى هانت ..الامتحان الأسبوع الجاى ، مش كده ؟

ـ أيوه . ادعى لى يابابا ؟

ــ بادعى لك دايما ياحبيبتى بس عايزين مجموع حلو فى الإعدادية السنة دى .

ـ حلو يعنى كام كده يا سى بابا ؟

ـ على قد ماتقدرى. يعنى نقول ٩٠ فى المأية مثلا ؟

ـ نعم ؟! ده إحنا ٦٠ فى المأية نبوس إيدنا وش وضهر .. و ٥٠ فى المأية حلو برضه ، مالها الخمسين ؟ هو أنا حادخل الجامعة بالإعدادية ؟

ـ ماهو لو ماكنتيش من دى الوقت .. ولا أقول لك ! خلاص إنتى ذاكرى وبس .. وما تفكريش ولا فى مجموع ولا فى أى حاجة تانية ..

ـ أنا مش بافكر فى المجموع ، بس أنا با أفكر فى حاجة تانية مهمة جدا.

ـ إيه هى ؟

ـ هدية النجاح طبعا ياسى بابا !

ـ يعنى ؟

ـ يعنى تتقل جيبك كويس جدا، لأنى السنة دى عايزة تعمل لى اشتراك فى النادى بتاع الفروسية . عايزة أتدرب على ركوب الحصان .

ـ ودى حاجة كتيرة يعنى ؟

ـ قول مثلا خمسماية ، ألف إزاى ما حضرتك تحب .

ـ ألف؟ معقولة ؟ وكل ده عشان ٦٠ فى المأية ، أمال لو كانوا ٩٠ ؟

ـ كنت حا أقول لك اشترى لى عربية طبعا ! .. خد يابابا .. أهو خالد الصمام بتاع الامتياز والتسعين فى المأية والحاجات ده . باى باى بابا .

ـ باى باى يا هنادى . آلو ؟

جاءنى صوت خالد عميقا ووقورا وهو يقول بالفصحى :

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ياخالد .. إزيك يا ابنى ؟

ـ الحمد لله يابابا .. وأنت إزاى صحتك ؟ كويس إن شاء الله ؟

ـ كويس جدا. صحيح جبت امتياز يا خالد؟

ـ يا بابا ما تصدقش البنت اللمضة دى . النتيجة لسه ماطلعتش .

ـ حا تطلع إمتى ؟

ـ الأسبوع الجاى إن شاء الله .

ـ وحاتيجى على طول بعد النتيجة . مش كده ؟

ـ بعد النتيجة ؟.. لا .أصل أنت عارف يا بابا .. لازم أحضر للمشروع بتاع السنة الجاية .. وحاجات تانية ..

ـ يعنى حا تيجى إمتى يا خالد ؟ .. أنا مشتاق لك جدا يا ابنى ، وعايزك تقعد معايا أسبوعين أو تلاتة قبل ماتروح على مسابقة البطولة بتاعتك .

ـ أنا كمان مشتاق لك جدا يا بابا .

ـ يعنى حا تتأخر قد إيه يا خالد ؟

ـ بصراحة يا بابا .. مش عارف .

ـ ليه يا ابنى ؟

سكت خالد لثوان قبل أن يقول : اسمع يا بابا أنا بصراحة اعتذرت عن السفر للمسابقة .

ـ اعتذرت ؟ ليه يا خالد ؟ مش عايز تشوفنى ولا ايه ؟

ـ لا سمح الله يا بابا . الحقيقة صعب إنى أقول لك مش حا آجى أشوفك لأنى مشتاق لك فعلا . لكن أنا ما أحبش الكذب ...

ـ تكذب ؟ .. فيه إيه يا ابنى ؟ .. إنت تعبان ؟ فيه حاجة؟

ـ لا يابابا ، أنا كويس جدا الحمد لله . بس بصراحة أنا قريت فتوى بتقول إن الشطرنج حرام .. وأنا مقتنع بالكلام ده .

ـ حرام ؟ الشطرنج ؟

سكت خالد لثوان قبل أن يقول بلهجة قاطعة : أيوه يابابا .. حرام» .

★★★

ظللت فترة بعد المكالمة أقف مستندا بيدى إلى المكتب ثم دخلت المطبخ لأعد فنجان القهوة الذى كنت أنتويه . ولكنى بدلا من ذلك جلست على المقعد الصغير هناك ورحت أتطلع ساهما من نافذة المطبخ إلى العمائر المقابلة وإلى السماء والأشجار ، مشتت الذهن ، لا أستطيع أن استجمع فكرى .. وأخيرا وجدتنى أتمتم بصوت خافت :

ـ حرام . بالفعل حرام !

★★★

كان إبراهيم ينتظرنى فى صالة الاستقبال بالفندق ولوح لى بيده مبتسما بمجرد أن رآنى أدخل من الباب . ولكن عندما اقتربت منه وقف وبدا فى وجهه الانزعاج وهو يسألنى : ماذا بك ؟ أنت مريض ؟

قلت : لا ، أقصد هو مرضى العادى ، الضغط المرتفع . أحيانا يشتد ويسبب صداعا شديدا كما تعلم .

ـ ولكن لماذا خرجت ما دمت متعبا ؟ .. كان يمكن أن تتصل بالتليفون وكنت سأفهم .

ـ لا تهتم يا إبراهيم . أخذت حبة العلاج للضغط وسأصبح عاديا بعد قليل .

وكنا قد اتفقنا منذ الظهر أن نأخذ فى هذه الليلة هدنة من كل شىء وأن نذهب معا الى السينما . رأى إبراهيم إعلانا عن فيلم لورانس العرب وقال إنه شاهده منذ عشر سنين ويود أن يراه مرة أخرى لأنه أحب موسيقى الفيلم كثيرا . وأخذ يحاول أن يثنينى عن الذهاب الى السينما قائلا : إن الافضل أن أرتاح ولكنى أقنعته بأننى محتاج أيضا إلى شىء من الترويح وأن لورانس قد يكون مفيدا الآن .

قال إبراهيم : إذن سنتكلم عن ذلك فيما بعد . الآن ستأتى معى لنمر على الدكتور مولر. وعدنى بالأمس أن يعطينى قائمة كاملة بالمنظمات والجمعيات التى يمكن أن أراسلها .

ـ اتفقنا على هدنة من العمل فى هذا المساء ، أليس كذلك ؟

قال إبراهيم مبتسما : نعم ، ولكنى أخذت الموعد مع مولر منذ الأمس ، ولن تستغرق المقابلة طويلا على كل حال .

كانت المسافة قصيرة حتى الفندق الآخر. وبينما كان إبرهيم يحاول إقناعى مرة أخرى أن أرتاح هذه الليلة ، لم أتمالك نفسى «فحكيت له كل شىء عن مكالمة خالد . كنت أغالب دموعا وأنا أحكى له ولكنه قال لى بهدوء :

ـ لا تلمه يا صديقى . قلت لك هو الآن فى سن البراءة . ليس معنى هذا أنه لا يحبك أو أنه لايريد أن يراك . ولكن ما يؤمن به الآن أهم من حبه لك ومن حياته ذاتها . ألا تذكر أنت كيف كنت ؟ .. هل فكرت فى حياتك عندما دخلت بورسعيد تحت غارات الانجليز ؟

ـ المسألة تختلف . أيامها كانت هناك قضية ..

قاطعنى إبراهيم : تؤمن بها ؟ .. وهو أيضا يؤمن بقضيته ، فلماذا تختلف المسألة ؟ فى مثل سنه تقريبا أنت أردت أن تضحى بحياتك ذاتها ، وهو ضحى بشى أقل بكثير . ضحى برحلة كان يمكن أن يلقاك فيها .

ـ المسألة تختلف . فى رأسى فكرة لا أستطيع أن أشرحها لك بوضوح ولا حتى أن أشرحها لنفسى .. أقصد .. إن ما كنا نفعله فى شبابنا كان من أجل المستقبل .. من أجل الحياة .. ما ألاحظه بالتدريج عند خالد نوع من النفى الكامل للحياة .. المستقبل هو مابعد الموت فقط .. بالأمس أنت شرحت كيف كنا فى مثل سنه .. تلك الأحاسيس بالذنب حتى على الفكرة أو الخاطرة الشريرة .. ألم يكن هذا قبل أن نكتشف أننا لسنا ملائكة ولا شياطين ؟ اننا بشر نخطىء ونتوب ؟

قال إبراهيم ضاحكا : كنت أحدثك عن ذكرياتى ولكنى لست حجة فى شئون التوبة . أنا الآن إن كنت قد نسيت رجل ماركسى ! .. وعلى العموم فأنت لم تبق مع خالد لكى ..

توقف إبراهيم عن الكلام وغمغم باعتذار ولكنى تابعت فكرته :

ـ أفهم ماتريد أن تقول . لو بقيت معه لكان يمكن أن أؤثر عليه . ولكن

كيف كان يمكن أن أبقى ؟ .. منار وأنا عودنا خالد وهنادى منذ الصغر على الإقناع والاقتناع وعلى حرية الاختيار .بعد الطلاق اختار هو أن يبقى مع أمه وأخته ، وكان هذا من الأسباب التى دعتنى الى السفر . كان صعبا على أن أكون فى المدينة نفسها مع أولادى ولكنى بعيد عنهم. نرتب مواعيد للقاء مثل الأصدقاء والغرباء . مثل ..

سكت قبل أن يختنق صوتى بالدموع التى كنت أقاومها ، وكنا قد اقتربنا من فندق مولر فحاولت أن أهدىء نفسى قبل أن نترك ظلام الطريق الى صالة الفندق .

★★★

كان مولر يجلس فى البهو ومعه بريجيت ، يحتسيان البيرة صامتين وواجمين . فهمس إبراهيم فى أذنى ونحن نتقدم منهما :

ـ يبدو أنه هنا أيضا قد حدث شىء ما ، ولكن ماهو ؟

كان وجه مولر الذى يشبه القناع عادة مكفهرا ومتوترا فى هذه اللحظة. ولكننا عندما جلسنا أخرج من جيبه ظرفا أبيض كبيرا وقال :

ـ لم أنسك ياسيد إبراهيم . ستجد هنا كل العناوين .

فتح إبراهيم الظرف ورأيت ورقة طويلة مقسمة الى خانات مكتوبة بخط اليد لكنها منظمة ومنسقة تماما أكثر من أية ورقة مطبوعة .

وقال إبراهيم بعد تصفح الورقة : شكرا يا دكتور مولر . لن نعطلك أكثر من هذا . وهم بأن يقوم .

ولكن مولر قال : انتظر ، لو سمحت . ربما يمكن أن تساعدانى .

ثم التفت نحوى وقال : ربما أنت أيضا بالذات يمكن أن تساعدنى.

ثم سكت لحظة قبل أن يقول : بيدرو اختفى .

قلت : من بيدرو ؟

تذكرت فجأة وخجلت من نفسى لأنى نسيته قبل أن يرد دكتور مولر قائلا :

ـ بيدرو إيبانيز ، الذى كان فى المؤتمر الصحفى ، أخذ حقائبه وترك الفندق .

بدأ الدكتور مولر يشرح لنا أنه تعب كثيرا حتى حصل على تأشيرة الدخول لبيدرو لكى يتحدث فى المؤتمر ، فهم لا يرحبون هنا باللاجئين من شيلى ولا من أى بلد آخر . ولذلك فإن التأشيرة لا تسمح لبيدرو بالبقاء ، أكثر من أسبوع واحد . ورغم علمه بذلك فقد أخذ حقائبه وترك الفندق دون كلمة .

قال إبراهيم : ولكن لماذا تقلق الى هذا الحد يادكتور ؟ .. بيدرو ليس طفلا وهو يستطيع أن يتحمل مسئولية مافعل .

رد مولر فى توتر ولكن بتلقائية : المشكلة الآن ليست بيدرو لكنها المنظمة .

اختلست لحظتها النظر الى بريجيت فبادلتنى النظر وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ، ولكن دكتور مولر لم يلاحظ شيئا واندفع فى شكواه قائلا إنه يخشى ألا يظهر بيدرو قبل انتهاء موعد التأشيرة فتواجه المنظمة متاعب فى البلد : ربما يقولون إن المنظمة تشجع الهجرة غير المشروعة فتسوء سمعتها هنا ، وهو يخشى إن حدث ذلك أن تهتز صورة المنظمة فى البلاد الأخرى أيضا .

سأل إبراهيم فى شىء من الحيرة :

ـ ولكن ما هى المشكلة بالضبط مع ذلك يا دكتور مولر ؟ لماذا هرب بيدرو؟

قال مولر مبتئسا : هذا ما أود أن أعرفه .

ولكن بريجيت وضعت كوب البيرة بعد أن رشفت جرعة كبيرة وقالت : ولكنك بالتأكيد تعرف يادكتور ! تعرف أنه منذ هرب من شيلى لم يحصل على إقامة شرعية فى أى مكان . وتعرف أنه كان يقيم فى النمسا فى مركز الاستقبال للهاربين من بلادهم وأن هذا المركز يشبه السجن .

قال مولر محتجا : كانوا يبحثون حالته وكانوا سيقبلونه لاجئا فى النهاية. من المؤكد أنه كان سيخرج من مركز الاستقبال .

فواصلت بريجيت بلسان ثقيل الى حد ما ولكنها تحاول مع ذلك أن تكبح

انفعالها : وكم كان سينتظر يا دكتور ؟ ... شهورا أم سنوات ؟ وكم تظن أن الإنسان يحتمل البقاء فى معسكر الاستقبال هذا ؟ .. أنت رأيتهم هناك فى المعسكر المجاور لبلدتنا . دعك من قسوة الحراس ، كم تظن أن الإنسان يحتمل نظرات العداء والكراهية من سكان بلدتنا الودودين ؟

غلب الغضب مولر فقال بالرغم منه : هو كان هاربا من شيء أسوأ .. وكان يحب أن يقدر مافعلته المنظمة من أجله !

قالت وهى ترفع الكوب مرة أخرى الى شفتيها : نعم .

ثم رجعت تسترخى فى مقعدها . كانت تلبس بنطلونا من الجينز وبلوزة بيضاء خفيفة وقد تركت شعرها يسترسل فى إهمال ، وبدت فى جلستها صورة للهمود والاستسلام .

ألقى إبراهيم نظرة سريعة نحوها ثم التفت الى مولر وقال بحرارة وانفعال حقيقيين : هذه مسألة تستحق أن نعمل من أجلها بالفعل يا دكتور . أصارحك أننى منذ حضرت ذلك المؤتمر بالأمس وأنا أشعر بالهم وبنوع من الذنب نحو هذا الإنسان .أنا سأكتب عنه فى صحيفتى الصغيرة ، ولكن كيف يفيده ذلك ؟ والآن أنت تقول إننا يمكن أن نساعدك، صديقى وأنا ، كيف ؟

قال مولر : نعم. «ثم التفت نحوى وأكمل» .. لابد أنك كصحفى مقيم هنا تتصل بجهات كثيرة وبأشخاص يمكن أن يساعدونا فى البحث عنه . أقصد بالطبع بعيدا عن الشرطة ..

ولكن قبل أن أرد هتفت بريجيت فجأة وهى تحدق فى إبراهيم : أيها الرجل كم أنت جميل !

ساد الصمت لحظة ، وصعد الدم إلى وجه إبراهيم وبدا على مولر نوع من الغضب ولكنه ابتسم فجأة للمرة الأولى وهو يقول بلهجة يائسة : ابنة هانز شيفر!

ثم تحول نحونا وأكمل : هكذا أبوها منذ عرفته من نصف قرن ! يفاجئك دائما بالعبارات الغريبة فى الوقت غير المناسب ..

قالت بريجيت : ولكن كل الأوقات مناسبة لتقول المرأة للرجل إنه جميل !

فتدخلت أنا : دائما ما كنت أقول لإبراهيم إنه أخطأ طريقه للصحافة ، وإنه كان سيصبح نجما عالميا لو اشتغل بالسينما !

لكن إبراهيم صاح غاضبا : كفى !

كان وجهه محتقنا وعابسا ولكن بريجيت اعتدلت فى مقعدها وتابعت تخاطبنى وهى تنظر الى ابراهيم : لا . نجوم السينما كالدمى ، أشياء مرسومة بالسنتيميتر المربع ! الجميل فى إبراهيم تلك الحياة فى وجهه ربما لو تأملته بالتفصيل فستجد مثلا أن فمه ..

فهتف ابراهيم مرة أخرى ولكن بما يشبه الضراعة : كفى أرجوك ! .. نحن نتكلم عن شىء أهم ..

فقالت بريجيت : هل أغضبتك ؟ أنا آسفة !

وقال مولر بلهجة حكيمة : فى مثل سن إبراهيم ، لا يسعد الرجل بأن يقال عنه إنه جميل . بل أن يقال إنه ذكى مثلا ...

فردت بريجيت متشككة ـ تعتقد ذلك ؟ لا أفهم ماتعنيه بالسن . ولكنى أعرف رجالا أذكياء مستعدين للتنازل عن كل ذكائهم مقابل أن يسمعوا ..

ثم وضعت بريجيت كوب البيرة على المنضدة أمامنا وأصبح وجهها جادا تماما ..

حدث لها مايحدث للأشخاص الذين يشعرون أنهم يتكلمون بتأثير الخمر ، فسكتت دون مقدمات .

وبعد فترة التفتت الى ابراهيم بتلك النظرة الجادة وقالت : آسفة إن كنت قد أغضبتك .. غير أنها لم تتمالك نفسها فتابعت وهى تضحك : ولكن ماذا أفعل إن كنت جميلا فعلا ؟ أنا لا أغازلك ولا أى شىء ، أريد فقط أن أقول إنك جميل !

وتابعت ضحكات قصيرة متقطعة وهى تضع يدها على فمها .

نظر إبراهيم الى ساعته ولكنى قلت له : لا تنظر الى الساعة . لورانس العرب يركب الآن جملا فى الصحراء وقد قطع به مسافة طويلة !

ثم سألنى : هل تضمن له أو يضمن له الدكتور شيئا أفضل مما يحاوله هو بنفسه؟

ولم يكن عندى رد ولكن برنار وافق مع ذلك على أن يقابل مولر . وظل يصحبنا فى أمسيات الأسبوع مع ابراهيم ومولر الى الجمعيات التى تعنى باللاجئين والى الأحياء الفقيرة التى تأوى الأجانب المقيمين بصورة غير شرعية، غير أننا لم نعثر على أثر لبيدرو حتى أوشك الأسبوع ان ينتهى .

وفى خلال تلك الأيام أيضا كنت أذهب الى إبراهيم فى الصباح لكى أصحبه الى مواعيده المختلفة مع الصحفيين ورجال الأحزاب السياسية ومع بعض العرب المقيمين فى البلد . أراد أن يكتب سلسلة من المقالات بعد أن يعود إلى بيروت ، وبدأ يجمع المعلومات التى تفيده وظل فى أثناء ذلك كله يعرض وثائقه عن المختطفين فى لبنان فيعدونه بتهذيب شديد بأن يبحثوا المسألة ولكنهم يختفون بعد ذلك . وكنا بين الحين والآخر نرى «الطالبة» فى صالة الفندق أو نجدها فجأة فى أحد المقاهى التى نجلس فيها ؛ يظهر معها فى بعض الأحيان شاب رياضى ويتصرفان كحبيبين يتعانقان ويقبلها وتقبله ولكن دون أن نغيب عن بصرهما . غير أنها كانت «تهجر» حبيبها فى بعض الأحيان فيضطر الى أن يتبعنا وحيدا .

وكان المكان الوحيد الذى صمم ابراهيم ان يذهب اليه بمفرده هو مكتب الحزب الشيوعى. يومها قابلنى فى المطعم بعد عودته مشرق الوجه وعيناه تلمعان بالزهو . قال لى : أخيرا رأيت أوروبا الحقيقية ! أخيرا عرفت أوروبا التى لم تعرفها أنت ! تصور أنهم هنا أيضا يضطهدون الشيوعيين كما يضطهدونهم فى بلدنا .. تصور أن الشرطة تلاحقهم وتراقب تليفوناتهم وأنهم يضيقون عليهم فى الوظائف والأعمال التى يجدونها بكل صعوبة ، بل تصور أنهم أحيانا لا يوافقون على إسكانهم فى البيوت الرخيصة التى تبنيها الدولة لمجرد أنهم شيوعيون !

سألته فى دهشة : ولكن ما الذى يسعدك فى كل هذا يا إبراهيم ؟

فرد بفخر : وجدت الرفاق هنا فى منتهى الصلابة ، رغم كل هذا الاضطهاد !

وبصعوبة منعت نفسى من الابتسام أو هكذا ظننت ، لأنه تابع حديثه

بنيرة تأنيب : أنت تسخر من هذا ؟ اسمع !.. كل ذلك الاضطهاد يملؤنى بالأمل على عكس ماتظن . هم هنا أقلية صغيرة ، أعرف ذلك جيدا، وصحيفتهم بحجم الكف كما قلت أنت ، ولكن لماذا يخافون منهم إلى هذا الحد وهم أقلية ؟ لا يوجد حزب شيوعى فى أوروبا يحمل السلاح أو سيحمله فى أى يوم لكى يسقط الحكم ، فلماذا يخافون منهم ؟ .. هل تريد أن تعرف الجواب ؟ لأنه طال الزمن أو قصر فهم البديل لأزمة أوروبا ولمشكلة العالم .. هم المستقبل وهم حتمية التاريخ .

قلت فى ذهول : ولكن يا إبراهيم ولا أعتى الشيوعيين يقولون ذلك الآن ! .. ولا حتى الكرملين نفسه يحلم بأن يحدث هذا فى الغرب ، ما الذى جرى لعقلك ؟

وهكذا كان يمضى بيننا النقاش على الغداء أو فى السيارة . نعاود الشجار والخلاف كما كنا نفعل أيام الشباب .. ورغم أننا لم نتفق على شىء أبدا فقد كان صادقا تماما عندما قال أول ما التقينا محا الموت أسباب العداوة بيننا . نما بيننا فى خلال أيام قلائل نوع من التقارب والود الحقيقى رغم استمرار الخلاف . وكأنما كنا فى عمق دفين من نفسينا لا نأخذ كل ذلك الخلاف مأخذ الجد .. نتناقش لمجرد المحافظة على الشكل غير أننا نشعر أننا شبحان من عصر مات .. نعرف أن عبد الناصر لن يبعث من جديد وأن عمال العالم لن يتحدوا . ولكننا لم نقل ذلك أبدا ، بل كنا نقول عكسه باستمرار . كنت أقول له لكى أقنع نفسى قبل أن أقنعه إن الشعب لن ينسى ما فعله من أجله عبد الناصر .. إن الناس فى قريتنا لن ينسوا أنه هو الذى بنى الوحدة الصحية فى بلدة مات نصف سكانها من الملاريا ذات يوم ، ولم تكن تعرف قبله غير طبيب الصحة الجوال الذى يأتيها مرة كل شهر .. لن ينسوا أنه بنى مدرستين ووزع على الفقراء الأرض وأنه عين أبناء هؤلاء الفقراء فى المصانع التى بناها . وكنت مثل إبراهيم أتلمس اليقين فى أشياء صغيرة . أقول له إننى منذ أيام جعلت أحد الأصدقاء يستمع الى جزء من خطبة لعبد الناصر فلمعت فى عينيه الدموع ! ..أذكره بأن الناس فى مصر بعد أن قيل عن عبد الناصر كل ماقيل خرجوا سنة ٧٧ يحملون صورته ويهتفون باسمه .. أقول له معنى هذا أن ثورته ستصحو على أيدى الناس مرة أخرى ذات يوم ، أقول أشياء كثيرة وإبراهيم يستمع إلىّ وهو يهز رأسه فى عناد ويكرر :

ولكنه حارب حلفاءه وقرب أعداءه فضيعوا كل شيء . ثم من الذى أتى بالسادات ؟ - وأحاول الرد فيبدأ من جديد الانفعال والشد والجذب .

ولكن مرة ونحن فى دوامة النقاش توقف إبراهيم فجأة وسألنى : اسمع .. بم تحاول أن تقنعنى ؟ .. أن أغير الآن رأيى وأنضم اليك ؟ فى هذا العمر ؟ .. الأفضل أن أنتحر !

فعلمت أنه مثلى .. يتشبث بيقينه لكى لا ينتهى عالمه . لكى لايضيع الحلم الذى دفعنا فيه ثمنا عمرا بأكمله !

ولكن قرب نهاية الأسبوع قل اهتمام ابراهيم كثيرا بهذه المناقشات. كان فى البداية يغمغم بشكوى مبهمة ..قال لى مرة إننى وإن يكن زواجى قد فشل ومررت بمحنة ، إلا أننى أسعد منه حالا لأننى عرفت على الأقل فى حياتى حبا حقيقيا كاملا. كرر لى ما قاله من قبل : إن حاجزا كان يقف بينه وبين كل امرأة عرفها وإنه لا يدرى ماهو ؟... ثم ما الفائدة أن يجد الإنسان ما ظل يبحث عنه طول عمره ولكن بعد فوات الوقت ؟ ولم أكن فى العادة أرد على أسئلته ، أعرف أننى يمكن أن أساعده بالصمت أكثر . مما أساعده بالثرثرة .

وقبل أن يسافر بيومين التقينا على العشاء فى المطعم المطل على النهر .. ولم يكن هو ابراهيم الذى أعرفه. جاء متأخرا قليلا عن الموعد وجلس فى مواجهتى شاحبا وهو يشبك يديه أمامه على المائدة وإن لم يوقف ذلك ارتجاف أصابعه ويديه. خيل إلىّ أن كل شيء فيه يرتجف وهو يهز ساقه بعصبية تحت المائدة، فقلت له برفق قدر ما استطيع : ما الذى جرى يا إبراهيم ؟

ولكنه بدلا من أن يرد سألنى : هل يمكن أن تقول لى أنت ما الذى جرى ؟ أقصد لماذا لم نعد نعرف أبدا أية فرحة حقيقية ولا حتى أى سكينة حقيقية ؟ هل تعرف كيف صدر الأمر بحرماننا من السعادة ؟

تابعت حديثى معه بالرفق نفسه وقلت : قبل أيام تحدثت أنت عن مصادفات تصنعنا. حدثتنى عن والديك وقلت لى إن ما عذبك طول حياتك هو الظلم .

فقال بشيء من الحيرة : أنا قلت ذلك ؟ وما أهميته ؟.. هل هذه هي المشكلة ؟ أظن أن الظلم عذبني مثلما عذب غيري من الناس لكن هذا لم يكن معناه أن تنتهي حياتهم. الحياة تقبل العدل وتقبل الظلم أيضا .

قلت في شيء من الحذر : ماذاً تقصد بذلك ؟

ـ ماذا أقصد ؟ .. لا أقصد شيئا .. عندما وصلت الى هنا سألتني عن شادية ومن وقتها وأنا أفكر ..ولكن ماهو الذي أردت أن أقوله؟.. نعم . لم أكن أريد أن أظلمها معي. أردتها بالفعل أن تتركني ، لم نكن نعرف ونحن في المعتقل متى سنخرج أو إن كنا سنخرج في أي وقت . فكرت أنها معتقلة مثلي .. تجلس وتنتظر ، قلت أستطيع على الأقل أن أحررها هي ..

ـ ولكن بينما كان هذا قصدك يا إبراهيم فإنك بدلا من أن تحررها قد دمرتها .

ندمت بمجرد أن قلت ذلك ، وأردت أن أعتذر لإبراهيم . ولكن رد عليّ دون انفعال بل في شرود كامل : أو لا يمكن أن تكون هي أيضا قد دمرتني ؟ أولا يمكن أن أكون قد قضيت عمري كله أبحث عن شادية التي كانت والتي ضاعت ؟

شرب كوبا كاملا من الماء في جرعات كبيرة ثم ملأه مرة أخرى وراح يتطلع الى النهر في صمت .كانت هناك بجعة وحيدة مؤرقة تنزلق ببطء فوق سطح النهر الأسود وهي تحني رقبتها البيضاء الطويلة وتدفن منقارها في صدرها ، راح إبراهيم يتابعها حتى اختفت ثم قال دون أن ينظر نحوي : أنا أحب بريجيت .

ـ أعرف .

ـ نعم ، أظن أنك تعرف ولكن مالعمل ؟

ـ لا داعي لأن أقول لك يا إبراهيم ما تعرفه أنت أيضا بالفعل . أظن أنها صغيرة وأننا أصبحنا عجوزين ..

ـ ولماذا أصبحنا عجوزين ؟

والتفت نحوي مكملا فيما يشبه الغضب : لماذا يمر الزمن دون أن يترك

فى النفس علامة ؟ .. دون أن يقول هنا تتوقف عن الحب ، وهنا تترك الأمل ، وهنا تكف عن التفكير ؟

قلت وأنا أشعر أن توتره يعدينى : ربما تأتى العلامات ولكننا نتجاهلها ..

فقال وهو يلوح بسبابته أمام وجهى بالنفى : أبدا ، أبدا .. أنا لا أجد فى داخلى هذه العلامات . أنا مازلت الطفل الذى يعذبه شقاء أمه. مازلت أعيش نفس الفرحة حين قالت شادية إنها تحبنى ، مازلت أراها تسبل عينيها وهى تقولها . أسمع الآن لسعة السوط على جسمى فى السجن وأول قنبلة فى بيروت تدوى فى أذنى . كل ذلك يحدث الآن ، هنا على شاطئ هذا .. النهر فما معنى أن تحدثنى عن الزمن ؟ أقصد .. هل تتابعنى ؟ .. أفهم الموت ، ولكن ما معنى الزمن؟ ... ما معنى أن أقول لك إنى أحبها فتحدثنى عن الزمن ؟ أية علاقة ؟

سكت وكانت أنفاسه تتلاحق بسرعة كأنه سيختنق .

قلت بعد لحظة : اسمع . هل قالت هى إنها تحبك ؟ .. سمعتها تغازلك تلك الليلة حين التقينا عند مولر فهل قالت لك بعدها إنها تحبك ؟

هز رأسه لليمين واليسار فى بطء ولكن بصورة قاطعة .

قلت : إذن على أى شىء تلومها ؟

أخذ يحك جبينه بيده ثم قال : هل قلت أنا إنى ألومها ؟ كل ما قلته إنى أحبها .

وسكت مرة أخرى قبل أن يقول : أنا عائد الآن من عندها .

تقلص شىء فى داخلى حين قال ذلك لكنى لم أنطق .

ثم بدأ يتكلم بصوت خافت ، محايد ، كأنه يحكى عن شىء حدث لشخص آخر ،يتطلع الى النهر عبر زجاج النافذة ، ويتطلع فى وجهى أحيانا ولكنى أكاد أجزم أنه لا يرانى .

قال : من البدء .. ربما فى اليوم التالى لمقابلتنا عند مولر حدثتها عن حبى.. لم أكن أستطيع أن أقاوم ، لأنى لم أكن أفكر فى أحد أو فى شىء آخر منذ

انصرفت هـى فى تلك الليلة معك . حتى كلمة الحب لا تنفع فى وصف ذلك الشىء الذى حدث لى . ماهو ذلك الشىء ؟

كرت سنوات عمرى كله وتلخصت الحياة كلها فى شىء واحد . إنى أريد هذه الجميلة لى ، أريدها هنا وأريدهـا الآن . سيصلح ذلك كل شىء ، كل الأخطاء وكل خيبات الأمل . سيرد العدل للدنيا ، كنت أمثل حين أتناقش معك أو مع غيرك. كنت أكذب . حتى عندما قلت لها إننى خجل لأنى أحدثها عن حبى وهى فى هذا الشباب وأنا فى هذه السن لم أكن صادقا. كنت أشعر أنها من حقى . إنه لايوجد فى الدنيا شىء طبيعى أكثر من أن تكون لى . وأعفتنى هى من الكذب حين قالت لماذا أنا ؟ فتيات كثيرات يتمنين أن تغازلهن فلماذا أنا ؟ أنا لا أصلح لك. لم ترد أن تقول أنت لا تصلح لى .

وابتسم إبراهيم فى حزن وهو يفرد يديه أمامى : لم تكن الحكاية هى السن ولا الشباب ولا أى شىء آخر ، يخجلنى أن أقول لك هذا ولكن كانت لى علاقات بفتيات أصغر منها ، وكانت مشكلتى هى أن أتخلص منهن ، لا أن أطاردهن . كل مافى الأمر أنها لم تحبنى . كانت تستمع إلىّ فى أدب ولكنها بعيدة وعصية . ظلت دائما بعيدة وعصية . غير أنها فى هذه الليلة كانت غريبة. تشرب كثيرا وتضحك . تقول أحتفل بعطلتى غدا . وكانت أكثر قسوة من المعتاد على الدكتور مولر . هل لاحظت مثلى أنها توجه له دائما تأنيبا خفيا ، وأن نظراته نحوها محملة بالذنب ؟ هل طاردها مثلى بحبه ؟ .. ولم لا ؟ لن ألومه ، أى فرق إن زاد هو عنى عشرين سنة أخرى أو ثلاثين ؟ .. كانت تقول له يا عمى مولر وكأنها تهينه .. تخرج كلمة عمى من فمها كما لو كانت سبة . تضحك دون سبب وتربت على يده . ظل صبورا . قال لها لا تشربى أكثر من ذلك يابريجيت . لكنها قالت له مارأيك أن نختتم القائمة يا دكتور فى النهاية ؟ ما رأيك أن نتوقف بعد بيدرو ؟.. فلم أفهم ماتقصده .. أما هو فقد أحمر وجهه فجأة وانفجر فيها بعاصفة طويلة باللغة الألمانية وكانت تقاطعه وترد عليه ولكن فى برود شديد وعندما انتهيا نظرت نحوى وقالت لا تهتم ، اعتدنا أنا والدكتور مولر على هذه المناقشات مثلما اعتدت أنت عليها مع صديقك ، لكننا صديقان أيضا ، دكتور مولر وأنا . أليس

كذلك ؟ لم يبد أنه سمعها كان يجلس فى مقعده مطأطىء الرأس وهو يستند بذراعيه على جانبى المقعد ، ثم قامت هى . كانت تترنح تقريبا .. قالت لى أما أنت فلن تسمح شهامتك بأن تتركنى هكذا .. ستوصلنى حتى البيت أليس كذلك ؟

سكت ابراهيم لحظة واعتمد ذقنه بيده . وانتظرت أن يستأنف الحديث ، لكنه غاب تماما فى شروده .

ولم أستطع أن أسيطر على لهفتى وأنا أسأله: ثم ماذا ؟ .. ماذا حدث ؟

انتبه الىّ مجفلا وقال : لم يحدث شىء .

ـ كيف ؟

همس وهو يكز على أسنانه كأنه يمنع نفسه من الصراخ : قلت لك لم يحدث شىء ! لا تسألنى كيف . كانت تمسك بيدى ونحن فى التاكسى. تقبض عليها تشنج ، ألم يكن هذا ما حلمت به ؟ بمجرد أن دخلنا شقتها أخذتها الى صدرى . قبلت وجهها وقبلت كل شبر وكل أنملة فيها وكانت هى تلهث مغمضة العينين وتحاول التخلص من ثيابها وهى بين ذراعى وتقول بهمس متوتر : نعم ، نعم ، قبلنى هكذا ، هكذا ، هيا ..

ثم خبط ابراهيم المنضدة بيده خبطة صغيرة وقال : فما الذى حدث، قل لى أنت ؟ ألم يكن هذا هو ماتمنيت ؟ أم ربما لم يكن هو هذا ماتمنيت ؟ كانت تنتفض بين يدى . كانت تصيح فى غضب وهى تسألنى ماذا حدث لكنى كنت أقف أمامها مشلولا يكاد يقتلنى الخجل واليأس وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى وتسألنى فى غضب : إذن لماذا ؟ لماذا ظللت ورائى كل هذا الوقت ؟

قلت مخافتا وبلهجة مواسية : فى مثل سننا تحدث مثل هذه الأمور .

فضحك بعصبية وقال : ولكنك لم تفهم. ما حدث لم يكن هو العجز ، أقصد لم يكن جسدى هو الذى عجز ، بل روحى.كان جسدى مستعدا تماما . مستعدا أكثر من أى وقت بقدر لهفتى إليها .. ولكن رعبا آخر كان يشلنى كأنى

لو لمستها فسنموت لتونا معا .

انتظر لحظة ربما لم أفهم .تقول إنك كنت تريدها وإنك لم تكن عاجزا جسديا ولكنك توقفت ؟ لماذا ؟ .. لا أفهم .

ـ ولا أنا فهمت ، ولا هى فهمت . اعتقدت أنى أسخر منها ، أنى أتلاعب بها فراحت تقذفنى بالكتب وبالاشياء ، التى تطولها يدها ، وهى تسبنى قالت إنى مجنون وجبان وأشياء أخرى ، ولكنها فجأة توقفت وراحت تتطلع نحوى بدهشة. رأت دموعا غزيرة تنزل من عينى ورأت شيئا فى وجهى جعلها تتوقف عن سبابها وعن ثورتها وتتقدم منى ثم تحيط رقبتى بذراعيها العاريتين وتدفن وجهى فى صدرها وتقول : لا تهتم . سامحنى أرجوك أن تسامحنى . ربما هى غلطتى أنا .. لا أفهم ما يحدث ولكن ربما هى غلطتى . بدأت تهدهدنى على صدرها وتحدثنى برقة كما لو كانت تحدث طفلا . بل لعلها كانت هى أيضا تبكى . فقتلتنى تلك الشفقة أكثر من صراخها الأول . وجريت . هربت . صدقنى كنت أجرى فى الشوارع مثل شخص مطارد. لم يسبق أبدا أن حدث لى شىء كهذا من قبل، فلماذا يحدث لى مع تلك التى لم أرغب امرأة كما رغبتها ؟ .. هل تعـرف أنت ؟

هززت رأسى بالنفى ولزمت الصمت .

فابتسم ابراهيم ابتسامته الحزينة وهو يحول وجهه بعيدا عنى وهمس، ولكنى قلت لك من قبل : هى شادية ترجع لى فى آخر العمر: ترجع هذه المرة كعقاب .

وتحولت ابتسامته الى ضحكة خافتة وهو يمسك يدي الموضوعة على المائدة بكلتا يديه وينظر فى وجهى طويلا قبل أن يقول : كان الله فى عونك أنت ؟

فهتفت : ماذا تقصد ؟

الفصـــــــل السادس

طبول لوركا لدم الشاعر

فلماذا إذن كنت حريصا على ألا يمر يوم دون أن ألقاها ؟ .. لماذا كنت أذهب إلى (مقهانا) قبل موعد حضورها بكثير مسمرا عينى على باب المدخل .. يقفز قلبى بمجرد أن أراها وهى تخطو بزيها الأزرق .. تمشى كعادتها على أطراف قدميها وابتسامتها تغمر وجهها كله وتغمر الدنيا من حولها ؟ لماذا كنت أخفى خجلى وحيرتى بالأحاديث الطويلة عن بلاد زرتها وعن أناس قابلتهم وعن أى شىء آخر غير أن أتكلم عن نفسى وعنها هى ؟ .. ولماذا كنتُ أخاف نظرتها المستقيمة وهى تفتش فى وجهى خلف كل الكلمات الفارغة عن الحقيقة ؟ .. ولماذا شحبت صورة منار وأصبح وجه بريجيت هو الذى يلازمنى فى ليالى الأرق ؟ .

ورغم ذلك فلم يكن الحب المكبوت الذى حدسه إبراهيم هو كل شىء . أردت أيضا - أنا المكشوف الجـراح - أن أحميها وكأنى أكفـر عن ذنب ما غيـر أنـى لا أعرف ما هو . وكنت أدرك عجزى . أعرف أنى لا أستطيع أن أصحح ما فات ولا أن أشفى تلك الندوب التى تخفيها بسمتها الدائمة ولا أن أجعلها تبكى . ولعلها هى أيضا شعرت أن هناك شيئا آخر يربطنى بها - غير الاشتهاء والحب - جعلها تحكى لى بكل تلك البساطة منذ الليلة الأولى فى شقتها فرأيتها وعرفتها .. رأيت بريجيت الطفلة تدق بقبضتيها الصغيرتين صدر مولر .. ورأيتها فى المدرسة ، لم يتشكل جسدها الجميل بعد ، طويلة بالنسبة لسنها لكنها أميل إلى البدانة .. تلبس تلك النظارة الطبية السميكة ، قبل أن تظهر العدسات اللاصقة .. تخجل من مظهرها وتجد أنفها أطول مما ينبغى .. تنزوى فى غير ساعات الدرس فى أركان

بعيدة فى المدرسة وبيدها كتاب تقرؤه .. أحبت الكتاب الذين أحبهم أبوها .. همنجواى ولوركا وجوته .. تتجنب الأولاد بالذات .. وقتها لم تكن تحب الرجال تقول لى وهى تضحك ، هذا قبل أن أكتشف أنى لا أستطيع الاستغناء عنهم .. ومرة ، إذ تجلس فى الحديقة منكبة على كتابها يأتى واحد من التلاميذ ويلقى رسالة فى حجرها .. ولم تصدق نفسها ، كان هو بالذات يوهان ذلك الوسيم الذى تطارده نصف فتيات المدرسة وإن لم تفز به إحداهن .. هل كان هو أيضا خجولا مثلها ؟ .. هل كان ما اجتذبه هو ابتعادها ووحدتها ؟ .. تقول بريجيت : كان كلانا يحتاج إلى الآخر لكى يكتشف نفسه وجسده .. وحين اشتبكت أيدينا معا استطعنا أن نخرج للعالم الواسع من ثقب الخوف الضيق .. ثم حين نضجنا افترقنا .. مازلنا صديقين حميمين .. عرفت بعده آخرين .. كانوا لطافا ولكن أحدهم لم يترك علامة .. وفى الجامعة كان هناك الأجانب أيضا .. وكانت البنات أيامها يتهامسن عن الافريقيين .. لم يكن معنا فى الجامعة غير ستة منهم أو سبعة ولكنهم كانوا محبوبين جدا من البنات ومكروهين جدا من الطلبة .. أو هكذا، ظننت، أقصد ظننت أنهم محبوبون من البنات . لم أكتشف حين عرفت ألبرت أن المسألة بالنسبة لهن لم تكن تزيد على الفضول لمعرفة الشىء الغريب .. لذلك الرقص الجنونى بالساعات فى النادى .. لتلك الفرحة الأفريقية التى لا تنتهى والجسد يرقص .. وأهم من ذلك الفضول للتحقق من متعة ذلك الجنس الأفريقى الذى يحكى عنه الجميع ، ثم بعد التجربة يرجع كل شىء إلى أصله .. ترجع البنت إلى صديقها النمساوى ويرجع الأفريقى إلى مكانه فى الغابة.

وكان ألبرت يختلف .. لم يكن هو أقدرهم على الرقص ، بل على العكس كان أكثرهم اهتماما بالدراسة ، وكان لديه همه الخاص ، فهو لا يعرف متى سيعود إلى بلده ..

كان هاربا من النظام فى بلده ومطاردا منه . لا يعرف كيف سينتهى كابوس ذلك الحكم الجاثم هناك .. حدثنى من أول لقاءاتنا عن ذلك الطاغية الذى كان يحكم أيامها ، والذى خرب البلد . قال لى إن بلده قبل أن يحكمها (ماسياس) المجنون كان واحة سعيدة فى ذلك الركن من أفريقيا : لكل إنسان عمله الذى يكفيه

وبيته الذى يأويه .. الكل يعرف على الأقل القراءة والكتابة .. والذين يريدون أن يكملوا تعليمهم يذهبون إلى الجامعات فى الخارج .. يذهبون إلى أسبانيا فى الغالب التى كانت تستعمر البلد والتى خلفت لغتها هناك .. سكان البلد ولا يتجاوز عددهم مئات الألوف لا يكفون لاستغلال كل خيراته فيستوردون العمال من بلاد مجاورة .. من نيجيريا ومن الكاميرون ليساعدوا فى زراعة البن والكاكاو وليستخرجوا الذهب والنحاس .. ولما جاء المجنون فرَّ هؤلاء الأجانب بجلودهم ، وهرب أيضا من استطاع من أبناء البلد.. أما الآلاف الذين وضعهم فى السجون فقليل منهم من نجا من القتل .. وفى بلدتنا ، فى النمسا ، كان هناك مصنع للشيكولاتة يستورد الكاكاو من هناك .. هذا قبل أن تكف غينيا حتى عن تصدير الكاكاو - وتجمع فى بلدتنا قليل من المعارضين يطبعون المنشورات ويراسلون صحف أوروبا .. وكنت أخاف على ألبرت .. ظللت طوال حياتنا معا أخاف عليه بعد أن اختفى اثنان من زملائه ولم نعثر لهما على أثر .

وهكذا فإنى لم أعرف ألبرت فى المرقص ولكنى عرفته فى المكتبة .. كان يعد رسالة عن لوركا .. فى البدء كان يحتاج إلى مساعدتى لكى يكتب بالألمانية السليمة الأفكار التى فى رأسه ، وكنت أحتاج إليه ليساعدنى فى اللغة الأسبانية .. كنا نخرج من المكتبة أحيانا ونتمشى على شاطىء النهر بالساعات .. نتكلم لغة غريبة اخترعناها معا .. بعضها من الألمانية التى لا يجيدها وبعضها من الاسبانية التى أحاول أن أتعلمها وكلمات أخرى بالانجليزية أو الفرنسية .. نتحدث عن لوركا وعن شيلر .. عن كتاب افريقيين لم أسمع بهم قط ولكنه جعلنى اقرأ لهم وأحبهم .. أشيبى وسيمبينى وسوينكا وغيرهم .. هؤلاء هم الذين مازلت أذكرهم .. ومعه لم اكتشف قراءات جديدة بل عالما آخر سحرنى .. وحين كنت اقرأ عملا لا يعجبنى يستبد به الغضب .. يقول إننى مثل بقية البيض .. انظر للآخرين من فوق وإن حاولت أن أخفى ذلك .. أسأله فى حيرة ولكن كيف يريدنى أن أفهم فى هذه القصيدة تلك الطقوس والأساطير الأفريقية التى لا أعرفها ؟ .. فيرد وكيف عرفت أنا الأفريقى أساطيركم الأوروبية ، كيف عرفت أوديب وفاوست ؟ يتعلم الإنسان إن أراد أن يفهم .. ولم يكن سهلا أن أتعلم ولكنى حاولت .. ولم يكن سهلا أن أقنعه

بحبى ولكنى حاولت .. جاء الحب طبيعيا كالمشى أو الكلام .. إذ أقبض على يده فى الطريق .. إذ أقبله فى وجنته كصديق حين ألقاه .. ولكن حين تبادلنا أول قبلة حقيقية على شاطىء النهر سألنى إن كنت أنا أيضا أحب أن أجرب الافريقيين . بالكاد منعت نفسى لحظتها من أن أصفعه، غير أنى سببته بشتائم ألمانية نابية أعرف أنه لا يفهمها وتركته واقفا هناك .. قررت ألا أعود أبدا إلى هذا المغرور .. وحين مرت أيام دون أن يأتى ليصالحنى ، حين لم يعد فى الحياة شىء غير الشوق إليه ، سعيت أنا إليه فى مكانه فى المكتبة .. جلست إلى جواره صامتة وأنا أفتح أحد المراجع بيد ترتعش بينما جسدى كله يناديه .. مد نحوى يدا مترددة فقبضت على يده .. تطلع إلى بوجه مذنب وحزين لكنه لم يقل شيئا .. هكذا كان كبرياؤه ..

ومع ذلك فلم يكن ألبرت يبالى حين يسمع داخل الجامعة أو خارجها تلك الكلمات الغليظة عن الأفريقيين والسود .. يقول هؤلاء لا يعنوننى فى شىء .. أنت التى أحب وأنت التى تهميننى لأنك ستصبحين واحدة منا .. أما الآخرون ، حين أسمع شخصا يقول شيئا من عينة هؤلاء الافريقيين القرود ، أو لماذا يبقى هنا هؤلاء السود فأنا أعرف نوعية عقله ولا أضيع وقتى حتى فى التفكير فيما قال .. لست مثل الافريقيين الذين يريدون اعتراف الآخرين بهم .. فليذهب الآخرون إلى الجحيم .. أنا أريد أولا أن أعترف بنفسى .. همومى أكبر بكثير من معالجة هؤلاء المرضى .. همومى هناك بعيدا ، مع ماسياس ..

وكنت أوافقه تماما . ما أهمية الآخرين وما يقولون مادام هو ، وحده ، كل عالمى ؟ مادمت حتى لا أرى هؤلاء الآخرين وهو معى ؟ ..

ولكن ذلك لم يكن كافيا لعمى مولر . كان يحتاج أيضا إلى ألبرت لكى يواصل حربه الخاصة .. أيامها بدأ مولر حكاية حقوق الإنسان هذه بعد أن تقاعد وأغلق عيادته .. وكان ألبرت واصدقاؤه يذهبون إليه لكى يساعدهم فى معركتهم ضد ماسياس .. لا أكاد أغفر لنفسى حتى الآن أننى أنا التى قدمته إلى مولر .. ألف الدكتور فى بلدتنا الصغيرة جمعية لمكافحة العنصرية ضم إليها ألبرت وبقية الافريقيين وبعض الأجانب ممن كانوا يدرسون فى الجامعة .. وكان مولر يدعو

أصدقاءه النمساويين القلائل ويلقى خطبا وينظم مظاهرات فى الميادين العامة ضد العنصرية . ويقيم احتفالا بيوم افريقيا . ويعقد ندوة باسم «من أجل عالم واحد» إلخ الخ .. ومن وقتها تغيرت البلدة .. قبلها كانت الأمور تسير ، أما الآن فقد صار الناس إما مع جمعيته وهم على الأكثر عشرة أفراد من أهل البلدة وإما ضد جمعيته وهم بقية الناس .. حتى الذين كانوا يخفون عنصريتهم أصبحوا يتباهون أيامها بأنهم ضد وجود السود فى البلد ويظهرون العداء لكل الملونين .. كانت فرصة مثيرة لأن يحدث شىء فى حياة مدينتنا الصغيرة الراكدة .. لأن يكون هناك موضوع كبير يهتم به الناس .. موضوع يذكرهم بأيام الحمى الآرية وألمانيا فوق الجميع وهذه الأشياء ..

وفى تلك الأيام بالذات صار يلح على أنا وألبرت لكى نتزوج .. كنا نعيش معا منذ مدة وكنا سعيدين .. لكم كنا سعيدين ! .. نقضى الليل معا وإيقاع كل منا يسيره الآخر .. نقرأ فى وقت واحد .. نذاكر .. نتكلم .. نرقص .. نمارس الحب.. كل شىء فى وقته .. نداء خفى من العقل ومن الجسم ومن الكيان كله يستجيب له الآخر .. لأن ذلك النداء كان يأتينا معا فى اللحظة نفسها .. وكنا متفقين ، لا .. لا أكذب .. لم يكن هناك اتفاق ولكننا كنا متفاهمين على أننا سنذهب معا إلى بلده بعد أن يسقط ماسياس ، وهناك نتزوج ثم أعطيه وقبيلته عشرة أبناء كلهم ذكور ، غير مسموح بالبنات . يقول لى أبناء يشبهونك فأقول بل فى مثل جمالك .. يظن أنى أسخر منه ويغضب فأقبله وأنا أقول صادقة ولكنى لم أعرف مثل جمالك ! .. لم أعرف أجمل من التماع هاتين العينين حين تغرورقان بالحب وحين تشتعلان بالغضب .. لم أعرف فما مكتملا كالذى تصنعه هاتان الشفتان المكتنزتان .. يضحك ألبرت ويسألنى : هذا من شعر رامبو ؟ فأقول ، بل هو أنت ! ..

فكيف ضاع ذلك كله بعد أن تزوجنا ؟ .. كيف ضاع حين لم نعد هو وأنا وحدنا ، بل هو وأنا ومولر والعالم ؟ .

لم يرد أبى أن نتزوج . قال لى على طريقته فى الكلام ولكنك لست عاملة فى بار ! .. يمكن أن يمر هذا الزواج لو كنت عاملة فى بار .. كأنه كان يرى كل شىء. نصحنا أن ننتظر كما كان قرارنا الأول ، ننتظر إلى أن ينتهى ألبرت من الجامعة

ومن ماسياس ثم نرحل بعد ذلك معا. قال لنا ما لم نكن حتى تلك اللحظة نفهمه جيدا . قال إن الناس فى بلدنا يغمضون عيونهم عن العلاقة بيننا على أنها نزوة عابرة. حرية محكومة يسمحون بها للشباب على ألا تتجاوز الحد . أما الزواج فهو جريمة . دنس للجنس الأبيض كله لا يغفره أحد فى بلدتنا . ولم نصدق . مرة أخرى خسر أبى القضية . مرة أخرى كسب مولر وهو يلح على ألبرت : فلنلقنهم درسا ! .. فلنعلم أهل هذه البلدة البليدة أن الدنيا قد تغيرت .. يجب أن يفهموا أخيرا أن العنصرية تحط من آدميتهم .. كلام كثير راح مولر يردده على آذان ألبرت مثل ذلك الكلام الذى كان يكتبه فى منشورات جمعيته الوهمية حتى أثر عليه فى النهاية . أما أنا فبالنسبة لى لم يكن هناك فرق . قلت لأبى حتى لو قاطعتنى البلدة كلها فإن بلدتى هى ألبرت. لا يعنينى أحد غيره .

كنت صادقة ، ولكن أبى كان على حق ..

فبعد الزواج لم يعد يزورنا فى بيتنا حتى هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا من قبل، ولم نهتم . وفى الجامعة كان الطلاب يسيرون خلفنا.فى مجموعات لا ينطقون ولكنهم يلاحقوننا فى كل مكان بنظرات الكراهية ، ولم نهتم . وحين ذهبنا إلى المطعم الذى اعتدنا من قبل أن نأكل فيه وقف الجرسون بالباب وهو يشبك يديه على صدره وقال إن كل الموائد محجوزة . ورأينا معظم الموائد خالية ، ولكننا لم نهتم . بل ضحكنا . رحنا نذرع شوارع البلدة وهو يحيط كتفى بذراعه. نرد على صفير من يهزأون بنا بالصفير مثلهم ونحن نغنى بصوت عال، وحين يقوم من يجلسون بجوارنا فى الأتوبيس أو السينما وهم ينظرون نحونا فى استنكار وحقد كنت أرمى معطفى على مقعد وحقيبتى على مقعد آخر وأنا أتنهد فى ارتياح . لم نهتم .

ولكن هل حقيقة لم نهتم ؟ .. أم أنى أنا وحدى التى لم أكن أهتم ؟ .. لم ألاحظ فى الوقت المناسب أن ألبرت أصبح يكره الخروج فى الليل . لم ألاحظ أنه أصبح يقضى أياما فى غرفتنا الصغيرة دون أن يذهب إلى الجامعة . لم ألاحظ أنه بدأ يشرب أكثر من المعتاد .. فهمت معنى ذلك فيما بعد ، ولكنى أيامها كنت مشغولة بشئ أهم .. فعندما بدأ ألبرت يتغير كنت أنا أيضا أتغير ، كان فرح جديد

يغمرنى .. أقصد أنه حين بدأ يستقبل أصدقاءه الافريقيين وحدهم ويبقى معهم فى ركن من الغرفة ، وهم يشربون ويتكلمون لهجة لا أفهمها ، كنت مشغولة عنه . كان طفله الذى بدأ يتخـلل جسمى يصرفنى عمن سـواه . يصرفنى حتى عن المذاكرة لامتحان آخر السنة الذى اقترب ، فلم أفهـم إلا فيما بعد معنى تلك النظرة الفاترة فى عينيه وتلك الضحكات العصبية .. كنت مستغرقة تماما فى فرحى الخاص ..

ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يستمر كل شىء ، أن نسترد نفسينا بعد قليل ، أن انتبه أنا وأفهم ما الذى يحدث لألبرت ، أو أن يرجع هو إلى ازدرائه القديم لذلك الغباء وألا يبالى به . كان كل شىء ممكنا حتى ليلة السبت تلك ، حين خرجنا معا ، مثلما كنا نفعل فى القديم ، نتمشى على شاطئ النهر ..

كانت ليلة سلام . لم يزره أحد من أصدقائه ولم يشرب هو . ورجعنا كما كنا فى البداية نتحدث عن الشعر وعن لوركا . واستجاب هو لرجائى فراح يقرأ بصوت عال تلك السطور العذبة من رثاء أجناثيو سانشيز . لم أعرف فى حياتى أحدا مثل ألبرت يقرأ الشعر . ولم يهزنى شىء حتى الآن مثل طريقته وهو يردد رثاء لوركا الموجع لصديقه مصارع الثيران . لم يكن صوته يتهدج أو يتغير . كانت الأصوات تخرج عادية من حنجرة ألبرت القوية وكأنه يواصل الحديث الذى كان يتبادله معى قبل أن يقرأ الشعر . وبالتدريج تتحول تلك الأصوات الهامسة ، تلك الأصوات الحزينة ، إلى أغنية أفريقية شجية . أصوات المد فيها طويلة ممطوطة مثل آهات عميقة متصلة ، كأن الشفتين لا تنطبقان أبدا ، لكى تظل تلك اللوعة تتدفق باستمرار من ذلك الصدر الواسع ومن شلال تلك الحنجرة الهادر .. وشيئا فشيئا تختفى أشجار السرو المنسقة على شاطىء النهر النمساوى وتتلاشى البيوت الحجرية الصلدة التى تصطف على جانبيه لكى تتشكل غابة بكر ، غابة حارة تحتضن أكواخا متناثرة تحت قمر فضى كبير .. فجأة يخلع لوركا قبعته وثيابه الاسبانية لكى يقف عاريا أسود ، لكى يقرع الطبل هناك فى تلك الغابة وهو يمط أيضا آهاته الملتاعة على اجناثيو .. فها هى الحمامة تصارع فهدا ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وجذع الرجل مع قرن وحيد ، فى الساعة الخامسة عصرا ..

والثور وحده يغنى زهوا ، فى الساعة الخامسة عصرا.. والموت يلقى بيضه فى الجروح ، فى الساعة الخامسة عصرا .. وتابوت على عجلات هو سريره ، فى الساعة الخامسة عصرا .. والجروح تلتهب كشموس ، فى الساعة الخامسة عصرا.. وكل الساعات تشير إلى الخامسة عصـرا .. والظل هو ظل السـاعة الخامسة عصرا ..

الخامسة عصرا ...

الخامسة عصرا ...

وأنا فى قلب الغابة ، مع الطبل ، مع لوركا مع اجناثيو ، مع ألبرت ، وقد توقف العالم فى الخامسة عصرا .. كان ألبرت يضع يده على كتفى ، يحملنى إنشاده الى ذلك القرع الحزين البعيد ، وقد غبنا معا فى تلك النشوة لأننا بعد لحظة واحدة – لحظة لا أكثر ! – سنكتشف ذلك السر العصى ، وسنعرف لماذا أصبح حزنه على إجناثيو هو كل الحزن فى العالم ولماذا تتولد من حزن هذه الكلمات تلك الموسيقى التى تعلو بقلوبنا فوق الأرض وفوق الزمن .

لكنّ تلك اللحظة لم تأت أبدا !!

لم نكن قد انتبهنا إلى الضجة التى تأتى من خلفنا ، بل ولم نفهمها فى أول الأمر . ألبرت هو الذى كف عن الإنشاد حين أصبحت تلك الضجة خلفنا مباشرة على شاطىء النهر المهجور ...

كانوا سبعة أو ثمانية من الشبان ، مخمورين تماما ، خرجوا لتوهم من أحد (البارات) التى تتأخر ليلة السبت ، واستطعت أن أميز بينهم وجهين لطالبين معنا فى الجامعة أما الباقون فلم أعرفهم . كانوا يغنون إحدى الأغنيات التى كانت شائعة فى تلك الأيام ويحورون كلماتها لكى يقولوا : هى أكثر من امرأة .. أكثر من امرأة .. هى كثرة من العاهرات فى وقت واحد .. ثم يضحكون ويكررون ذلك بصوت يزداد ارتفاعا فى كل مرة .. وشعرت بجسد ألبرت وقد تصلب كله ، فضغطت على ذراعه وأنا أهمس ، هيا بنا ، هم مخمورون ، فلنسرع من هنا .. وكنت اجذبه بعيدا لكنهم تقدموا منا وصنعوا دائرة واسعة حولنا لكى لا نهرب

وراحوا يرقصون مباعدين بين سيقانهم .. يرفعون أرجلهم عن الأرض إلى أقصى ما تستطيع أجسادهم المخمورة ، مقلدين ما رأوه فى الأفلام عن الهنود الحمر أو عن الأفريقيين فى الغابات .. وحاول ألبرت أن يصرفهم فصفق وقال برافو .. غدا نكمل هذا الفيلم يا طرزان .. وأزاح واحدا منهم لكى نخرج من الدائرة لكنهم لم يتحركوا .. بل تقدم أحدهم منا وهو يترنح ، ثم فك بنطلونه وأنزله عن وسطه وقال وهو يتحسس سرواله : أنظرى ! .. هل الأفريقى أفضل من هذا ؟ .. لماذا تذهبين بعيدا ؟ .. بضاعة النمسا أفضل ! .. دعنا نقارن ياكنج كونج .. ومد يده إلى بنطلون ألبرت يحاول أن يفكه وقد سقط بنطلونه هو عند قدميه .. ولم يكن فى سكره يحتاج إلى أكثر من دفعة واحدة من ألبرت لكى يسقط فى الأرض متعثرا فى ثيابه المحلولة .. ولم يكونوا هم أيضا بحاجة الى أكثر من ذلك لكى يهجموا على ألبرت بقبضاتهم وركلاتهم وسبابهم البذىء .. واستطاع ألبرت أن ينتزع حزامه من وسطه وراح يدور حول نفسه ملوحا بالحزام لكى يبعدهم عنه وهو يصرخ بى .. اهربى أنت – اطلبى الشرطة . أو اطلبى النجدة ..

ولكن فى لحظتها بالـذات وأنا أحـاول أن أخـرج من الدائـرة التى تفككت حلقتها قليلا دفعنى أحدهم فى ظهرى دفعة قوية فسـقطت على الأرض وأنا أصرخ :

ألبرت .. ألبرت .. قتلوا طفلى !

ولما سمعوا ذلك .. ولما رأونى ممددة هناك أتلوى ويدى بين فخذى ، صمتوا لحظة ثم لاذوا جميعا بالهرب ..

ولكنى كنت بالفعل قد فقدت طفلى .

لم أفقد طفلى وحده ولكنى فقدت ألبرت ...

لم أفقد ألبرت وحده ولكنى فقدت نفسى ..

كانت تلك هى ساعتى الخامسة عصرا .

بعد الأيام الأولى فى المستشفى ، وبعد تحقيقات الشرطة رجعت إلى البيت . كان مولر مشغولا بتنظيم مظاهرة وتجهيز لافتات كتب عليها «القتلة» .. ورسم أيادى تقطر بالدماء وأشياء من هذا النوع . وصممت أنا ألا أخرج فى هذه

المظاهرة ، ولكنه أخذ معه ألبرت . قال لى ألبرت إنها كانت أكبر من كل مظاهرات مولر السابقة وإن الناس كانوا يتابعونها على الأرصفة صامتين . ولم يرحنى هذا أبدا ، بل شعرت بالغضب . كأنما كان لابد أن أفقد طفلى لكى يشعر هؤلاء بالذنب. وصرخت فى ألبرت : كفى! .. قل لمولر أن يكف عن هذا العبث . قل له أن يخرس !.. قل له أن يموت ! ..

وكانت تلك من المرات القليلة التى قلت فيها أى شىء ، أيامها كنت معظم الوقت فى الفراش . أرقد صامتة مفتوحة العينين وألبرت هناك على مقعده فى الركن ، يشرب ويتظاهر أنه يقرأ . أحيانا كان النهار بطوله يمر دون أن نتبادل كلمة ودون أن نأكل ودون أن نتذكر حتى أننا لم نأكل . واعتاد أبى وقتها أن يأتى كل يوم تقريبا . يحمل لنا الطعام وينظف بنفسه القذارة التى تتراكم فى غرفتنا . يغسل الأطباق والأكواب ويصرخ فينا – لماذا نترك الغرفة دون تهوية ؟ .. وكنا نتركه يفعل ما يشاء ، مع عبارات اعتذار وغمغمات : لا داعى لذلك . لا تتعب نفسك . كنا على وشك أن ننظف البيت ، إلخ .. الخ . ولم يكن يبالى بما نقول . هو وحده الذى ظل واقفا على قدميه ، هو ، أبى الذى كان قد قرر أيامها أن يتقاعد ، رجع من جديد شابا غاضبا ومحاربا . صمم أن يجد هؤلاء الشبان وأن يأخذهم للمحكمة . اشتغل مخبرا ومحققا ومحاميا . ولما طلب منى ذات يوم أن أذهب معه لكى أتعرف فى الجامعة على واحد من هؤلاء الشبان كنت قد أعطيت أوصافه وظن أنه توصل إليه . قلت إننى لن أخرج من البيت وطلبت منه أن يهدأ . قلت له أن يترك هذا العمل للشرطة وسألته إن كان هذا سيعيد طفلى . فصفعنى أبى على وجهى وحملنى من الفراش وأرغمنى على أن ألبس ثيابى ودفعنى دفعا ليخرجنى من البيت . صمم هذه المرة أن يكسب القضية ولأول مرة كسبها بالفعل . استطاع أن يعثر عليهم وأن يقدمهم جميعا للمحكمة ، كانت مرافعته قوية وحجته دامغة فوضعوا ثلاثة منهم فى السجن . وهكذا انتهى الأمر وارتاح ضمير كل إنسان . صمم أبى أيضا فى هذه الأيام أن نرجع إلى الدراسة وأن ندخل الامتحان . كان يأتى بنفسه فى الليل بعد أن ينتهى من العمل فى مكتبه لكى يتأكد من أننا نفتح الكتب على الأقل وأننا نقرأ . ولا أدرى كيف نجحت أنا فى الامتحانات ولكن ألبرت رسب .

وشعرت بالخجل من نفسى تقريبا لأنى نجحت شعرت بالخجل لأنه كان لدى أبى الذى يقف إلى جانبى بينما كان ألبرت وحيدا دون أسرة ودون أقارب فى هذه المدينة التى تكرهه . وكنت قد بدأت أسترد نفسى . غلط . لم أسترد نفسى أبدا . مع تلك الدماء التى خرجت من بين فخذى فى ليلة السبت تلك خرج شىء لم يعد أبدا . ظهرت بريجيت أخرى . لا أعرف بالضبط ما الذى ضاع ، ربما كان أول ما لاحظته هو أن الشعر لم يعد يهزنى . لم أعد أطلب من ألبرت أن يقرأ لى كما كنت أفعل دائما ولم يكن هو وقتها يقرأ شعرا أو غيره فقط يجلس فى البيت ويشرب . وحاولت كل ما كنت أستطيعه . ذهبت الى أصدقائه الأفريقين وطالبتهم أن يزوروه كثيرا وأن يشجعوه على الخروج من البيت ، أن يطلبوا منه كتابة المقالات ضد ماسياس كما اعتاد أن يفعل من قبل بل ذهبت إلى مولر ورجوته أن يستدرجه مرة أخرى إلى جمعيته الأفريقية وإلى حقوق الإنسان فربما يرجع ألبرت الى طبيعته . وكان مولر يأتى بالفعل ويتكلم مع ألبرت الذى يظل صامتا أو يضحك بلا معنى أو يناقش مولر بجدية مزيفة ، ولكنه ذات مرة قال فيما يشبه الهمس : اسمع .. إن كنت لم أستطع أن أحمى طفلى فكيف تريدنى أن أدافع عن الغرباء ؟ فقال مولر ستحمى أطفال الآخرين وستحمى طفلك المقبل . لن نغير العالم فى ليلة واحدة ولكن يجب أن نعمل .. إن كانوا قد أهانوك فلماذا تستسلم ؟ ويظل مولر كلما جاء يكرر هذه الخطب الرنانة فيقوم ألبرت ويخرج معه وأشعر أنه يصحبه لمجرد أن يسكته عن الكلام . أما ذلك الطفل الآخر الذى تحدث عنه مولر فلم يأت أبدا ، ولعلنا كنا ، علانا ، نحرص على ألا يأتى .

ثم تشبث ألبرت بعناده فلم يعد يذهب الى مولر أو إلى أى مكان . ولم يعد الأصدقاء الافريقيون يظهرون أيضا . قلت لنفسى لعلهم سئموا منه ، فكل ما كان يفعله الآن هو أن يشرب حتى يسكر ، وكنت أنا أشتغل فى الصيف لكى نعيش ولكى أوفر مصاريف الدراسة للعام الجديد .. أما ألبرت فلم يكن يعمل . كان يعيش ويسدد مصاريف دراسته من مبلغ شهرى ترسله له أسرته التى فرت إلى اسبانيا بعد حكم ماسياس واستطاعت أن تهرب معها بعض اموالها . وعندما عرفته كان حريصا على ألا يتجاوز ما نصرفه معا هذا المبلغ . لم يقبل أن أنفق

شيئا فى البيت أو أن أطلب مساعدة من أبى . أما الآن فبالكاد أصبح هذا المبلغ يكفيه أسبوعا لشرب الليل والنهار ولم يعد يخجل أن يطلب منى نقودا ، وحين كنت أرفض إعطاءه شيئا لعله يكف عن الشــرب ويستجمع نفســه ، كان يبكى ويتوسل ويعدنى أن هذه هى المرة الأخيرة وأنه منذ الغد سيبحث هو أيضا عن عمل . ولكن هذا لم يحدث أبدا . على العكس بدأت ألاحظ نقودا تختفى من حقيبة يدى وحين أسأله عن النقود التى كانت فى الحقيبة يظل ينكر ويقسم ويتظاهر بالغضب.

ومرة حين عدت من العمل فى المساء سمعت وأنا على السلم أصواتا كثيرة حادة فى غرفتنا . دخلت مفزوعة فوجدت اصدقاءه الافريقيين جميعا هناك . كانوا يحيطون به وهو يجلس على مقعده مخمــوراً ورأسه يهبط بين كتفيه كعادته فى تلك الأيام .. كانوا يشتمونه ولم يبالوا بى عندما دخلت .. بالعكس أمسكه أحدهم من ياقه قميصه ورفعه قليلا وهو يقــول : انطق ! ثم عاد يرميه مكانه ولكن ألبرت لم ينطق.

هتفت وأنا أحاول الوصول إلى زوجى : ماذا حدث ؟ .. قولوا لى ما الذى حدث؟

فرد أحدهم وهو ينتفض غضبا : هذا الكلب .. هذا الخائن يكتب إلى ماسياس! .. حدث أم لم يحدث ؟ .

تطلعت نحوه مثلما كانوا يتطلعون جميعا .. كنا ننظر إليه وظل هو صامتا لفترة وهو ينقل بصره بيننا ثم ثبت نظرته على أنا طويلا وقال ببطء وهدوء ، بصوت ألبرت الحقيقى القديم : أنا لم أخن أحدا ..

وعاد يجيل بينهم عينيه الواسعتين المحمرتين لينظر اليهم واحدا واحدا وعلى شفتيه ابتسامة غريبة قبل أن ينفجر بالضحك وهو يقول : لأنكم سعداء هنا حقا؟.. ردوا على .. لأنكم سعداء هنا لا تريدون العودة إلى هناك ؟ ... وبصق جانبا حين قال ذلك فصفعه أحدهم على وجهه . وقال آخر وهو يصوب نحوى عينين محتقنتين أيضا بالغضب : هذه المرأة الاوروبية هى السبب . ولكنهم جذبوه بعيدا وخرجوا

وهم يغمغمون لى باعتذارات . غير أنى أنا وحدى كنت أعرف ، كنت متأكدة ، أنه على حق .

نعم ، هذه المرأة الاوروبية هى السبب .

★★★

عشت طويلا مع كلمات بريجيت التى تدفقت فى تلك الليلة فى غرفتها اليابانية. عندما انتهت هى كان المساء قد انقضى وكان الليل قد تقدم ولكنها ظلت تجلس على الأرض ، فى الغرفة المعتمة ، وقد انسدل شعرها يكاد يخفى وجهها وتهدل كتفاها ، وقالت لى دون أن ترفع رأسها :

– كيف بدأ كل هذا الكلام على أية حال ؟ .. لماذا وقد رضيت بسنوات من الصمت أشعر الآن وكأنى مرغمة أن أحكيه ؟ .. ومع ذلك فأنا لم اتخفف من أي حمل ، بل أشعر بكل الوجع القديم يرجع من جديد . فلماذا كان يجب الآن أن أحكى ؟ ..

ثم رفعت رأسها ببطء وقالت : سامحنى ، ولكن هل يمكن الآن أن تتركنى وحدى ؟

تركتها ، وتصرفت بعدها بالفعل مثل ذلك الجار العابر فى القطار الذى يحكى له الإنسان أسراره . كنت ألقاها فى أمسيات عديدة مع إبراهيم ومولر قبل أن يسافر كلاهما . فلا أشير من قريب أو بعيد إلى ليلة المصارحة تلك ، ولا تشير هى إليها . أيامها ، كنا ، كلينا ، مشغولين بإبراهيم . لم أرها معه يوم سفره . ولكننا فى المطار تعانقنا عناقا حارا ، إبراهيم وأنا ، وترقرقت دموع فى عيوننا . لم تكن العداوة قد انمحت فحسب ، ولكننا ، بعد أن كشف كل منا للآخر جراحه ، وتعرف على ندوبه ، نما الود العميق بيننا فجأة وكأننا لم نعرف العداء فى أى يوم .

ومن المطار ذهبت إلى المقهى مباشرة وهناك وجدتها ، فهل كانت مصادفة أم أنها كانت تعرف عاداتى وكانت تنتظرنى هناك ؟ .

لم أسألها عن ذلك ، ولكننا صرنا بعد ذلك نلتقى كل يوم فى الظهيرة ، لم أتخلف يوما ولا هى تخلفت . حتى فى أيام العطلات ظللنا نلتقى . لا نضرب موعدا

ولا نتفق على شيء ولكن بعد أن أوصلها إلى مكتبها ، تقول قبل أن تنزل من السيارة الى اللقاء . ونعلم دون كلام أننا سنكون فى المقهى غدا فى الموعد نفسه .

وفى تلك الأيام الأولى كنت أنا الذى أحكى لها . لم أكن أعرف أيضا لماذا أشعر بالرغبة القاهرة فى أن أتكلم عن نفسى وعن همومى .. فى لقائنا الأول قالت هى هذا المساء أريد أن أتكلم ، وفى أوقات الظهيرة تلك أيضا كانت تستبد بى أنا الرغبة فى أن أحكى ، فى البدء قلت لها حكايتى مع منار ، ما استطعت أن أفهمه من تلك الحكاية على الأقل . ما عجزت عن أن أقوله لإبراهيم أو لأى إنسان ، وما كان يطاردنى فى الصحو والمنام . حكيته بالبساطة التى حكت بها هى قصتها ، حكيته دفعة واحدة ، دون تردد ، ولم أشعر أيضا أنى تخففت من حمل ، ولكن كان على أن أحكيه .

ولكى أطمئن نفسى أن هذا الذى يحدث بيننا ليس هو الحب كنت أردد فى داخلى أشياء كثيرة : إن ما يجمعنا هو حبنا للشعر فى وقت لم يعد فيه للشعر مكان .. إننى فى وحدتى البعيدة اتخذها بديلا عن أولادى .. إننى أشفق عليها بسبب ما جرى لها .. إننا برغم فارق العمر صديقان جمعتهما الغربة ، فلم لا ؟ .. ولكن شيئا قلقا فى داخلى كان يسخر من هذا كله .

وفى اعترافاتنا اليومية لم يعد هناك شيء يخفيه أحدنا عن الآخر . سألتها مرة عن ألبرت ، فقالت إنها لم تعد تتابع أخباره بعد الطلاق .. كان هو الذى هجرها وعاد إلى أفريقيا بعد أن قاطعه كل زملائه وبعد أن تكرر رسوبه فى الجامعة . قالت لى بلا اكتراث ، سمعت أنه أصبح سفيرا لبلده فى مكان ما ، وربما يكون الآن وزيرا . لا أعرف ولا أريد أن أعرف . ثم قالت بطريقة توحى أنها لا تريد متابعة هذا الحديث : العالم أنهى ما بين ألبرت وبينى .

ومع ذلك فقد كان هناك شيء واحد لم تكلمنى عنه أبدا ، ولعلها كانت واثقة أنى أعرفه وإن لم أقل شيئا . لم ألمح أبدا من قريب أو بعيد إلى ما جرى بينها وبين إبراهيم ، ولا هى قالت شيئا .

ثم بالتدريج لم نعد نتكلم فى جلساتنا عن أمورنا الشخصية . ولاحظت بعد مدة أننى وحدى الذى أتكلم ، وأنها تجلس فى معظم الوقت صامتة ، تنصت

باهتمام ، وكأن كل تلك الحكايات التى لا معنى لها عن أسفارى وعن طفولتى وعن أصدقائى أشياء ينبغى ألا تفوتها منها كلمة . بين الحين والآخر تطلب أن أقرأ لها شعرا باللغة العربية ، وتظل تنصت وهى تصوب عينيها نحوى . ترفع يديها أمام وجهى إن حاولت أن أترجم لها قصيدة أو مجرد بيت من الشعر . تقول ما الأهمية ؟ .. ألا تفهم أنى كلما جهلت الألفاظ أخترقنى الشعر ؟ .. وأحيانا كانت تفاجئنى . فمرة حين فرغت من قصيدة لصلاح عبد الصبور قالت لى ما أشد حزن هذا الإيقاع ! .. مثل إيقاع دموع تنزل مترددة من العين .. وفى مرة أخرى ابتسمت وأنا أقرأ لها من معلقة امرئ القيس وقالت : ها هى قافلة مسالمة تشق الصحراء ببطء وفجأة تنقض عليها خيول الأعداء من كل مكان ، ألا تسمع هذا الصخب ؟

ذلك ما كانت تقول قبل أن نكف حتى عن الشعر . قبل أن يتدفق شلال الثرثرة اليومية وهى تنصت وأنا أخاف أن أصمت . أظن أيضا أنى كنت أخاف أن تسأمنى فظللت أسليها كطفلة بالحكايات ، ولم أكن أعرف قبلها أنى أستطيع أن أتكلم كل هذا الوقت أو أن عندى مثل هذا الرصيد من الذكريات . وكانت تبدو لى مستمتعة وهى تنصت . أم تراها كانت تأمل طول الوقت أن أكف عن تلك الثرثرة وأن أصرخ بالحقيقة ؟ وكيف كنت أجرؤ ؟ .. كيف وعمرها نصف عمرى ؟ .. وكيف بعد كل ما عرفت عن حياتها ؟ .. فيم أزيد أنا على ألبرت ؟ .. ألست مثله ملونا وأجنبيا وطريدا من بلدى ؟ .. لا مكان لى هنا ولا هناك مثلما لم يكن له مكان . وقبل كل شىء فأين لى شبابه ؟ .. بل فيم أزيد أنا عن مولر ؟ .. ألا أطنطن مثله بالكلمات ؟ .. أحيانا كنت أنتبه . هى التى كانت تنبهنى فى واقع الأمر . فحين كنت أنزلق إلى الحديث عن السياسة أو عما يحدث فى بلدى كانت تقاطعنى . تمسك رأسها بين يديها وتقول بلهجة اعتذار : فلنتكلم عن شىء آخر أرجوك . تجربة واحدة تكفينى .

لكن كل شىء تغير بعدما حدث فى لبنان .

★★★

كنت أجلس فى المقهى فى ذلك الصباح من يونيو ، منكبا على الجرائد التى اشتريتها.. الجرائد العربية والانجليزية والفرنسية محاولا أن أستخرج شيئا من بين السطور . أن أتنبأ بالتغيير الذى سيحدث أخيرا فى لبنان وفى مصر وفى كل مكان من الوطن . كنت منفعلا ومتحمسا عندما دخلت بريجيت فلم أنتبه إلا وهى تقف أمامى . حييتها بسرعة وأنا أجمع الصحف لأخلى المنضدة . وبمجرد أن جلست بدأت أحدثها عما قرأته وعما سمعته فى الإذاعات . قلت لها : اسرائيل فرضت الحرب الشاملة على العرب بحجة غريبة هى أن شخصا مجهولا أطلق النار على سفيرها فى لندن . ولكن بريجيت ظلت تستمع إلىَّ دون انفعال وأخيرا وبينما كنت مندفعا فى رواية التفاصيل قاطعتنى بوجه مكفهر : كفى ! .. ألم أقل لك من قبل ؟ .. أنا لا أقرأ صحفا وليس فى بيتى راديو ولا تليفزيون . أنا لا أريد أن أعرف شيئا عن هذا العالم المجنون الذى لا أفهمه . ألم تكن أنت الذى قلت لى فى أول لقاء بيننا إن هذه الحياة كذبة ؟

فقلت لها بغضب وأنا أخبط على الصحف المكومة أمامى : ولكن هذا الدم حقيقى جداً!!

فردت بهدوء : لم نكن نحن الذين أرقنا هذا الدم ، ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفه . فقمت وقد استبد بى الحنق ، وأنا أقول : تلك هى البلادة بعينها ! ...

وكانت أول مرة أتشاجر معها . قلت وأنا أجمع صحفى المكومة على المنضدة إنها تجعل من حكايتها الشخصية عذرا لأنانيتها ولكى تعيش دون مبالاة بشىء مثلها مثل الآخرين . قلت لها إنها كان يجب على الأقل أن تقدر ما تعنيه لى تلك الحرب حتى وإن لم تعن شيئا لها .

وبينما أنصرف عنها أمسكت بيدى وقالت بلهجة ضارعة : ليكن . أنا مثلما تقول وأسوأ منه . ولكن لا تذهب . فلنظل صديقين كما نحن . لا أريد أن أفقدك أنت أيضا ! ..

غير أنى جذبت يدى منها فى عنف وقاطعتها وأنا أعيش تلك الأيام من الحمى. أقطع قصاصات من الصحف بكل اللغات وأشاهد كل النشرات فى التليفزيون ،

وأكتب فى كل يوم رسالة مطولة إلى صحيفتى فى القاهرة عن ردود الفعل فى أوروبا على تلك المجزرة - أترجم التعليقات الغاضبة وأصف المظاهرات التى تنظمها الأحزاب اليسارية وأنتظر . أدير مؤشر الراديو من المغرب إلى القاهرة إلى بغداد وأنا أنتظر فى كل لحظة أن يحدث شىء . أقول لنفسى لابد أن شيئا سيحدث . شيئا غير تلك الصور التى يجرح بها التليفزيون والصحف عينى كل دقيقة . أنتظر شيئا آخر يغير ذلك الهوان ...

ولكن لا شىء .

لا شىء غير الدبابات والقنابل تطير وتدك ، والطائرات تقصف وجنود إسرائيل الأصحاء يبتسمون فى وجهى على الشاشة وهم يرفعون رشاشاتهم بعلامات النصر وفى المخيمات يجرى الأطفال العرايا والأمهات بالشباشب البلاستيك وهن يلطمن الوجوه وسط أكواخ انزلقت أسقفها على جدرانها لتصنع أكواما مهوشة من التراب والطوب وأسياخ الحديد الملتوية وسط دخان أسود ودخان أبيض . ومصر تعرب عن الأسف ولجنة الاقتصاد تعقد اجتماعا لبحث الخطة الخمسية . وصور تسقط وصيدا تسقط ومخيم عين الحلوة يباد ومخيم الرشيدية ومخيم المية مية كلها تسقط وتحترق ، والسعودية تعرب عن الأسف وتعلن ثبوت رؤية الهلال وتبعث رسائل للملوك والرؤساء . والجزائر تستنكر وتعلن تيسيرات جديدة للمستثمرين الأجانب . والطائرات فوق بيروت - ٢٠٠ قتيل و ٤٠٠ جريح و ٩٠ قتيلا و ١٨٠ جريحا .. أرقام تنقلها الأخبار لا غير .. وشارع بأكمله يحترق وتفقد كل عمائره واجهاتها بعد ضربه بالقنابل الفراغية وتبدو فى الصور بقايا الحياة فى الغرف العارية - مناضد مقلوبة ولعب أطفال ملوثة بالدم وصور فوتوغرافية وتماثيل صغيرة للعذراء مهشمة على الأرض وسط حرائق وجثث ملقاة على ظهرها وأخرى مكورة على جنبها ، وامرأة عجوز مشلولة فى ملجأ تجلس على مقعد وتحاول أن تدفعه للأمام أو للخلف وسط عنبر فقد جدرانه ولكن الأحجار المتناثرة فى الأرض تمنعها من الحركة فى أى اتجاه فترفع الشال الأبيض عن رأسها وتبكى ..

تطاردنى صورة تلك المرأة فى الليل وأنا أصارع النوم وصورة رجل يجرى مذعورا فى الشارع وسط دوى المدافع وهو يحمل ذراعاً آدمية مبتورة يلفها فى صحيفة تقطر دما . لماذا يحمل هذه الذراع ؟ يطاردنى جنود إسرائيل وهم يسوقون بكعوب البنادق شبابا معصوبى الأعين وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم. ولكنى أقول لنفسى غدا فى الصباح سيتغير كل شىء . لا يمكن أن يستمر هذا . إن كانت إسرائيل قد فعلت هذا لأن سفيرا ، فردا، قد أصيب، فلابد أن بركانا من الغضب سينفجر عندنا ونحن نرى ونسمع عن مئات يموتون كل يوم .. لا يمكن أن تكون النخوة قد ضاعت إلى الأبد . هى دماء على كل حال تلك التى تجرى فى عروقنا وليست جليدا وسينفجر الغضب قبل الصباح !

ولكن فى الصباح وقف إطلاق النار الثانى .. الثالث ... الخامس .. والمبعوث الأمريكى يأتى .. المبعوث الأمريكى يذهب .. ووقف إطلاق النار السابع .. وعربات إسعاف تجرى فى الشوارع المحترقة وتطلق صفاراتها العالية .. وإسرائيل تقطع عن بيروت الماء والكهرباء .. وطفلة حافية القدمين مهوشة الشعر تملأ بكوز صفيحة من مياه المجارى ..

وفى غير بيروت لا شىء يحدث ..

وتقول لى الممرضة النرويجية كل ما رأيته فى التليفزيون وكل ما قرأته فى الصحف شىء آخر غير الحقيقة .

★★★

ذات صباح ، ولم أكن قد نمت جيدا مثلما كان حالى منذ بدأت الحرب ، اتصل بى برنار وقال : تعال فورا . هناك شىء مهم عن لبنان يجب أن تسمعه ..

وذهبت إلى مقهاه . كان ينتظرنى ومعه سيدة شقراء تميل إلى البدانة ، فى حوالى الأربعين من العمر ، قدمها إلى قائلا : ها هى ماريان إريكسون . ممرضة من النرويج تركت لبنان بالأمس وتقضى هنا يوما فى طريقها إلى بلدها .

فقالت بابتسامة صغيرة : بل طردت بالأمس من لبنان . هذا شىء يختلف ..

تأملت وجهها الشاحب وعينيها المحتقنتين وهى تسند ظهرها الى المقعد فى استرخاء وقد تدلت يداها إلى جوارها وتبذل مجهودا مع ذلك لكى يبدو عليها الانتباه والتيقظ ، وقلت لنفسى هذه إنسانة بحاجة إلى النوم لا إلى الكلام ..

والتفتت هى نحو برنار وقالت بتلك الابتسامة المتعبة : حتى الطرد كان مشكلة، هل حكيت لك كيف طردونا ؟ .. كانوا يحتجزوننا فى المستشفى بعد إغلاقه وظل سفير النرويج خمسة أيام يحاول ترحيلنا دون جدوى . كانوا يجدون عذرا فى كل مرة لإبقائنا فى الحجز ، مرة لأنهم لا يعملون فى يوم السبت ومرة أخرى لأن الضابط المسئول عن إعطاء التصاريح فى إجازة ميدان . وأخبرنى السفير أن قائدهم قال له : لماذا العجلة على السفر ؟ .. البنات يستمتعن ...

وضحكت ضحكة خافتة ثم توقفت عن الكلام .

قال برنار الذى كان يبدو عليه الوجوم على غير عادته : سامحينا ..

فنظرت إليه بدهشة وقالت : ولكن ماذا فعلت أنت لكى أسامحك ؟ .. ثم شبكت يديها على المنضدة وقالت لى : هل ستنشر ما سأقوله لك ؟ برنار يقول إنه سيحاول ولكنه لا يعد بشىء ، فهل أنت متأكد أنك ستنشر ؟

تجنبت عينيها المصوبتين نحوى وقلت : أنا أيضا لست متأكدا ولكنى سأحاول..

سألتنى فى أى صحيفة تعمل ؟ فقلت صحيفة فى مصر .

هزت رأسها وقالت أفهم : (ثم سكتت لحظة) أو فى الواقع لا أفهم ، ولكن من أين تريد أن أبدأ ؟

قلت : أن أتعرف عليك أولا .

– معك حق ، أنا أعمل .. أقصد كنت أعمل فى مخيم عين الحلوة فى الجنوب مع ممرضات أجنبيات أخريات ، كنا نساعد الأطباء والممرضين الفلسطينيين هناك . هل تعرف هذا المخيم ؟

– لا ، زرت بيروت من حوالى عشرين عاما ولكنى لم أذهب للجنوب ..

– حتى لو كنت قد زرته فى ذلك الوقت فلا أظن أنك كنت ستعرفه الآن . أقصد قبل أن تدمره الحرب . قيل لى إن المخيم تغير كثيرا خلال عشرين عاما . لم يعد مجرد مخيم . عندما رأيته أول مرة منذ حوالى سنتين كان يشبه قرية أو ضاحية صغيرة من ضواحى صيدا ، كان يضم حوالى ٧٠٠ أو ٨٠٠ بيت، مزدحمة على آخرها بسكانها من الفلسطينيين ومن اللبنانيين الذين لا مكان لهم خارج المخيم.

سكتت مرة أخرى .. فتدخل برنار قائلا : اسمعى يا ماريان . لا نريد أن نثقل عليك . أنا دونت أهم النقاط التى ذكرتها لى ويمكن أن أعطيها لزميلى .. فقاطعته ماريان قائلة : لا . بالعكس . يهمنى أيضا أن يسمع صديقك ما حدث .. فأخرجت جهاز التسجيل ووضعته أمامها . ولم أقل شيئا كثيرا بعد ذلك . كانت هى التى تنبهنى إلى أن الشريط قد انتهى وتطلب منى أن أغيره ..

قالت : سأحكى فقط ما شاهدته بعينى . عندما ظهرت الطائرات وبدأت الغارة صباح ٧ يونيو بدأنا نعد المخبأ فى الطابق الأرضى من العيادة .. نسيت أن أقول لك إن عيادتنا لم تكن مستشفى حرب . كل عملنا فى الأصل هو أن نعالج الأطفال المعوقين جسميا وعقليا وأن نقدم أيضا إسعافات أولية للحالات العادية قبل أن نحولها إلى المستشفيات . وكان معنا زميلتان من النرويج لم تتعودا على صوت القنابل وكنت أنا أيضا خائفة رغم أنى عشت هذه الغارات من قبل . سمعنا بما حدث فى مخيم الرشيدية قبل يومين فنزلنا إلى المخبأ . أقصد إلى الطابق السفلى من العيادة وجهزنا بسرعة أماكن للأطفال ونقلناهم إلى هناك ، وكنت أعرف أن هذه الغارات تنتهى بعد نصف ساعة على الأكثر ، وبعد الغارة كان هناك كالعادة بعض القتلى وبعض الجرحى وبعض البيوت التى دمرت وكثير من الشظايا . ووجدنا أيضا إلى جانب الشظايا منشورات مكتوبة باللغة العربية ألقتها الطائرات تطلب من السكان إخلاء المخيم لأن القصف سيبدأ بعد فترة ..

ولكنه لم يبدأ بعد فترة ، بل بدأ على الفور وقبل أن نتمكن حتى من تضميد جراح ضحايا الغارة الأولى . أخذ الممرضون يجرون بمحفاتهم التى تحمل الحالات الخطيرة إلى عربات الإسعاف ، وكانت كل واحدة منا تحمل طفلا أو

طفلين من الجرحى وكان الناس يجرون إلى المخابىء المحفورة فى الأرض عندما بدأت القنابل تسقط من جديد . الذين كانوا قريبين لجأوا إلى العيادة لأن عليها علم الهلال الأحمر والصليب الأحمر ولأنها مميزة عن كل المبانى بطلائها الأبيض والمفروض أن يبتعد عنها القصف . ولم يكن تدفق الناس على المستشفى شيئا سيئا . طلبنا من الأصحاء الذين لجأوا إلى العيادة أن يساعدونا فى إعداد أماكن لبقية الأطفال والنساء فى الطابق الأرضى وجندنا بعضهم للمساعدة فى الإسعافات الأولية للجرحى الذين لم ينقطع وصولهم إلى عيادتنا غير المجهزة وكنا مستغرقين فى العمل مع جرحى الغارات الجوية عندما سمعنا فى المساء قصفا من نوع جديد يسبقه صفير طويل ثم دوى مكتوم قبل أن تتوالى انفجارات متلاحقة وارتجاجات فى المبنى وزلازل فى الأرض ..

قال البعض فى ذعر وصلت الدبابات والمدفعية الثقيلة . وأضيف إلى جرحانا من اخترقتهم شظايا الزجاج الذى صمد من قبل للغارات فى العيادة ولكنه تهشم مع هذه الانفجارات ، وأضيف أكثر منهم بكثير ممن استطاعوا الوصول إلى العيادة من البيوت والمخابىء المجاورة . كان البعض يدخلون وهم يحملون أطفالهم أو أمهاتهم أو زوجاتهم طالبين إسعافهم دون أن يلاحظوا أن الدماء تنزف من رءوسهم هم أنفسهم أو من صدورهم . وكان البعض يندفعون صارخين والنيران تشتعل فى ثيابهم وأجسادهم ويسقط الكثيرون ميتين بمجرد أن يدخلوا العيادة . وعجزنا عن إسعاف هؤلاء الوافدين بأكثر من المسكنات والمراهم . وأخذنا نساعد الأطباء فى عمليات عاجلة لم نتدرب عليها نحن ولا تدربوا هم . بتر أذرع وسيقان وجراحات فى العيون وفى الجمجمة وكل ما يخطر على البال ، ولم ينقطع وصول المصابين ، ولم يعد فى المستشفى مكان لأى حركة . وكان مرضانا الأصليون ، أطفالنا المعوقون ، أقصد من كان يستطيع الحركة منهم ، يجرون فى كل مكان يضعون أيديهم على آذانهم وهم يصرخون ويريدون الخروج . والبعض يريد أن يلقى بنفسه من النافذة ليهرب من هذه الارتجاجات والأصوات ..

وكان من الصعب جدا أن نفرغ واحدة من الممرضات اللاتى يعرفن حالاتهم لكى تعنى بهم ونحن فى هذه الظروف .

وفى لحظة توقف فيها ضرب المدافع غامر الطبيب البلجيكى فرانسيس كابيه وقال سأحاول شيئا مع الاسرائيليين . ركب سيارة إسعاف حشر فيها من استطاع من حالات الحروق والجراح الخطيرة وخرج فى اتجاه مدخل المخيم ولكنه عاد بعد أقل من نصف ساعة ليقول إن الإسرائيليين رفضوا تسلم الجرحى وقالوا: إنهم لن يقدموا له أى مساعدة إلا إذا سلمهم الإرهابيين ، يقصد الأطباء والممرضين الفلسطينيين الذين يعملون معنا فى العيادة . وهمس دكتور كابيه فى أذنى إنه بالكاد استطاع أن يسلم ١٠ من المصابين الذين أخذهم إلى المستشفى الحكومى اللبنانى فى صيدا . قال إن هذا المستشفى مكدس أيضا وإن الحالة هناك تشبه الحالة هنا . ولم يكن لديه الوقت ليقول أكثر من ذلك ولا كان عندى الوقت لأسمع . نفدت كل الأدوية التى كانت فى عيادتنا ولم يبق عندنا ما نقدمه من إسعاف غير الكلمات وأن نضع أغطية على وجوه الموتى .

وفى الصباح كان كل شىء قد انتهى . أقصد أن كل شىء فى المخيم كان قد انتهى . البيوت والبشر وكل شىء . عندما خرجت لحظات فى الفجر لم أتعرف على المكان . كانت هناك حرائق فى البيوت القليلة التى ظلت قائمة ، ولهب ودخان يخرج من أنقاض البيوت التى تهدمت . وكان هناك أشخاص قلائل يجوسون وسط الأنقاض . يبحثون عن أقاربهم أو عن جثث أقاربهم ويسعلون مثلى طول الوقت . لم يكن هناك صوت آخر غير السعال وأنين خافت مكتوم لا تعرف إن كان يصدر من البيوت القائمة أو من تحت الانقاض . وعلى الأرض كانت الجثث والأشلاء فى كل مكان ، وبالذات حول المخابىء . سأشرح لك شيئا عن هذه المخابىء . كانت حفرا فى الأرض مغطاة ومبطنة بالأسمنت ، وكانت تصلح إلى حد ما ضد الغارات الجوية ، لأنه ما لم تخترق القنبلة السقف مباشرة فإن المخبأ يحمى من الشظايا ، ولكن مع المدفعية الثقيلة التى كانت تدك البيوت والأرض،

تحولت معظم هذه المخابىء إلى مقابر لمن لجأوا إليها، وكانوا يتكدسون بالعشرات أطفالا ورجالا ونساء فى هذه المخابىء ، رأيت واحدا منها وكان قد تحول إلى بحيرة صغيرة تطفو فوقها رءوس وسيقان وأذرع واستطعت أن أحصى من الجثث الطافية ..

لاحظت أن صوتها قد اختنق وأنها كانت تشير إلىّ بيديها أن أوقف التسجيل فضغطت على الزر . غلبتها دموع لم تستطع أن توقفها فراحت تمسح بإصبعها ركنى عينيها وهى تقولى لى : معذرة . أنا ممرضة محترفة . رأيت فى حياتى كثيرا من الألم وكثيرا من الأشياء الصعبة ، وتعودت أن أتحمل . ولكن عندما رأيت ...

قلت بصوت ضعيف : إن كان يؤلمك أن تتحدثى فيكفى هذا ..

كان الصفير المتقطع قد بدأ فى أذنى والصداع خلف الرأس وكنت أتمنى بالفعل أن تكف و لكنها قالت : لا . مهما يكن فيجب أن أقول كل ما رأيته ويجب أن تنشره .

التفت مستنجدا نحو برنار الذى كان يعتمد ذقنه بيده ويراقبنا بفم مفتوح قليلا فقال : نعم يا ماريان . قلت لك إنى كتبت ملخصا .. ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

– كنت أحسب أننا تقدمنا قليلا عن عصر التتار.

فردت ماريان : لا أدرى ما أقول لك . أنا لم أنجب أطفالا وكانت فى نفسى غصة لذلك ولكن عندما شاهدت عذاب كل الأمهات هناك وكل هؤلاء الأطفال ... ثم تغلبت على خواطرها وقالت بنوع من الإصرار : فلنكمل . هل تريد أن نعيد هذا الجزء الأخير ؟

فقلت بما يشبه الصرخة : لا . ! ..

ثم استدركت : أقصد أن الصوت واضح . أستطيع أن أفهمه .

– إذن سأكمل من حيث توقفت . لم يبق الكثير على أى حال .

وبقلب مثقل ضغطت على زر التسجيل فواصلت ماريان .

– رجعت إلى العيادة وأنا أعدو وأبكى وقررت أن أكرر المحاولة التى قام بها دكتور كابيه بالأمس . كنت أعرف أنه لو قاد سيارة الإسعاف سائق فلسطينى فسيقضى عليه الإسرائيليون على الفور . فقدت أنا السيارة وأخذت معى زميلة هولندية وحشرنا فى السيارة الحالات الخطيرة التى يلزمها إنقاذ عاجل . واحدة من هذه الحالات كانت سيدة اسمها خضرة الدندشى . أعرفها لأنها جاءت أصلا إلى عين الحلوة من مخيم الرشيدية بعد أن دخله الإسرائيليون وقبضوا على زوجها . وأصيبت فى مخيمنا بجرح غائر فى كتفها وكانت ذراعها تتدلى منتفخة بالشظايا وبالدم المتخثر . كان لابد من بتره ولكن لم يكن لدينا أجهزة ولا أدوية . ذهبت بها مع الآخرين إلى المستشفى الحكومى غير أنه لم يكن هناك مكان . أخذتها إلى مستشفى خاص كنا نتعامل معه من قبل ، وقابلت صاحب المستشفى واسمه غسان محمود .

أخذنى إلى مكتبه وكان غسان مهذبا ولكنه كان حازما وهو يقول لى إنه لا يستطيع قبول مرضاى . قال لى هذا مستشفى خاص له سمعته ومرضاك قذرون للغاية .. لابد لى أن أحافظ على سمعة المكان . ولم تنفع معه أى محاولة فعدت بمرضاى وتركتهم أمام باب المستشفى الحكومى . كانت خضرة الدندشى فاقدة الوعى ولا أعرف إن كانت قد ظلت حية أم لا ..

وعندما رجعت كان الإسرائيليون قد دخلوا المخيم ... قبضوا على كل الأطباء والممرضين الفلسطينيين . وأخذوا كل الجرحى من الشباب وكانوا يسوقونهم ضربا . قال لهم الدكتور فرانسيس : اعتقلوا الأطباء والممرضين هنا فى المستشفى. عندى جرحى ومرضى من الأطفال والنساء واحتاج إلى هؤلاء الأطباء فقال له أحد الجنود :

– اسكت أنت يا إرهابى ! .. اسكت يا بادرماينهوف. ربما نعود لنأخذك أنت أيضا ..

★ ★ ★

كانت ماريان تتكلم ، وكان الشريط يسجل ولكنى لم أعد أسمع غير ذلك الصفير المتقطع فى أذنى وكلمات متناثرة .. الرشيدية .. الناقورة .. المخابىء .. الأنقاض .. السفير النرويجى .. وفى النهاية لاحظت أن صمتا طويلا قد حل ثم سمعت ماريان تقول بصوت مرتفع :

– هل تريد أن تسأل عن شىء محدد ؟

فقلت دون تدبر : نعم ، كيف استطعت الخروج من لبنان ؟

تأملت ماريان وجهى فى دهشة وهى ترد : ولكنى قلت لك هذا منذ البداية وكررته توا . قلت إن سفير النرويج فى تل أبيب تدخل للإفراج عنا وترحيلنا بعد أن احتجزونا فى العيادة دون عمل .

كان الصفير يتحول إلى طنين ، فقلت دون وعى :

ـ نعم . أنا آسف . ولكن لماذا ذهبت أصلا إلى لبنان ؟

ولما لاحظت أن الدهشة تمتزج فى وجهها بالغضب حاولت أن أعتذر ولكن برنار خرج عن صمته ليقول لماريان : صديقى يريد أن يعرف ما الذى جعلك تغامرين بالعمل فى لبنان. بصراحة أكثر يريد أن يسأل عن ميولك السياسية ، أليس كذلك ؟ ..

هززت رأسى مؤمنا على كلامه وأنا أقول : هذا بالفعل ما أردت أن أسأل عنه. هل أنت مثلا ...

فقاطعتنى ماريان وارتفعت نبرة صوتها قليلا وهى تقول : لا . لست مثلا . لست مثلا أى شىء . لست شيوعية ولايسارية ولا عضوا فى بادر ماينهوف ولا فى الجيش الأحمر كما كان يقول لنا الإسرائيليون على سبيل الإهانة. لست عضوا فى أى حزب أو منظمة من أى نوع .

– وإذن فلماذا ؟ ..

– ذهبت أول مرة مع زوجى الطبيب بناء على إعلان . كانوا بحاجة إلى طبيب

وإلى ممرضة لعلاج الأطفال المعوقين ، وهذا هو تخصصى . كان الإعلان يناسبنا تماما فقدمنا الطلب ..

ثم ترددت لحظة قبل أن تقول : ولكنى سأعترف بأنى بعد أن سافرت كممرضة عادية أول مرة ، ذهبت بعد ذلك لأنى لم أصدق ما رأيت . لم أصدق أن شعبا بأكمله يمكن أن يكون مباحا للقتل وأن يكون دمه رخيصا إلى هذا الحد . مازلت حتى الآن لا أصدق أن كل هؤلاء الآلاف يموتون لأن هناك شخصا واحدا ضربه مجهول بالنار فى لندن .

سكت لحظة ثم وجدت نفسى أكرر ما قاله برنار فى البداية : سامحينا .

فقالت : ولكن ماذا فعلت أنت أيضا لكى أسامحك ؟ ..

وعدت إلى الصمت وعاد الصفير فى أذنى ولما قامت لتنصرف صافحتها وأنا أغمغم باعتذار آخر فقالت نافدة الصبر : أنا لا أفهم لماذا تعتذر لى أنت وبرنار ، ولكن أرجوكما أن تفعلا شيئا . اكتبا الحقيقة . فقال برنار وهو يصافحها بابتسامة متعبة على شفتيه : نكتب الحقيقة ؟ .. ذلك أصعب من إنقاذ جرحاك فى لبنان ، صدقينى . ولكن من يدرى ؟

★ ★ ★

كنا نسير صامتين فى الطريق برنار وأنا ، وخطر ببالى للحظة أننى لو كنت قد ساعدت يوسف على إصدار الصحيفة التى يريد نشرها مع صديقه المليونير لاستطعت أن أكتب ما أريد عن شهادة ماريان . وتذكرت أيضا أن أحد أصدقائى يعمل فى مجلة عربية فى باريس وأنه عرض على أن أكتب فى هذه المجلة .

وقلت بصوت مسموع : ولكن ما أهمية النشر بالعربية فى أوروبا على أية حال؟ لمن سنتكلم ؟

وكان برنار مشغولا بأفكاره الخاصة فالتفت نحوى وهو يقول : نحن أحيانا ننسى .. ولكن أليست مهنتنا هى أن نقول الحقيقة مهما كان الثمن ؟

فضحكت بصوت مرتفع .

قال برنار : ما الذى أصابك ؟ .. لماذا تضحك هكذا ؟

فوقفت فى الطريق وقلت لبرنار فى ذهول : أنت تسألنى ما الذى أصابنى ؟ أنت تسألنى بالفعل ؟!

وظللت واقفا فترة أتطلع إلى وجهه المدهوش ثم لوحت له بيدى مودعا وانصرفت.

★ ★ ★

حين وصلت إلى الشقة أخذت حبتين من الأسبرين وجلست على الفور إلى المكتب ، وضعت أمامى جهاز التسجيل والأشرطة . وكان المكتب مزدحما فقضيت وقتا فى تنظيم الصحف المكومة . رميت الصحف التى قطعت منها القصاصات المهمة ، ورتبتُ الصحف الأخرى التى لم أفرغ من قراءتها والتى لم أفتحها ثم وضعت القصاصات فوق الصحف فى ركن من المكتب .

جربت القلم الرصاص الذى أكتب به ثم بريت أقلاما أخرى ووضعتها إلى جانب دفتر الكتابة .

نظرت إلى صورة خالد وهنادى على المكتب ، ثم رفعت نظرى إلى عبدالناصر المبتسم وسألته : ماذا أكتب ؟ ..

قلت له ماذا أفعل ؟ .. جربت كل شىء . كتبت موضوعا لنصف صفحة على الأقل عنوانه «ارتياع فى أوروبا لمجازر بيروت» فنزل فى نصف عمود تحت عنوان «دول أوروبا تنتقد مواقف إسرائيل» . أنقل فى مقال فقرات طويلة من تقارير الصليب الأحمر وجمعيات حقوق الإنسان التى تتكلم عن قصف المستشفيات وعن استعمال القنابل الفوسفورية والعنقودية المحرمة دوليا ، فيختفى ذلك كله من صلب المقال . فى كل مرة «أخفف» اللهجة لكى ينزل المقال . أنقل ما تقوله مصادر محايدة ولا أذكر رأيى . أحكى عن عضو مجلس نواب أمريكى ، أمريكى هذه المرة ، توقف فى المدينة فى طريق عودته من بيروت . أكتب أنه قال إن ما

يحدث فى بيروت هو جريمة العصر . أنقل قوله إن أمريكا تدفع لإسرائيل ٧ ملايين دولار من المعونات يوميا وإن هذه الأموال هى التى تستخدم لقتل الأطفال والنساء فى بيروت ، فيكون الخبر «سيناتور أمريكى يقترح خفض المعونة لإسرائيل !»

ماذا أفعل ؟ .. ماذا أكتب ؟ .. لا يمكن على أى حال أن أضع شهادة ماريان فى الرسالة الشهرية ! .. كيف ؟ .. ممرضة نرويجية تمشى على يديها ١٤ ساعة وتحكى مشاهداتها فى بيروت ؟ .. تضرب الرقم القياسى فى إحصاء الجثث ؟ .. ماذا أفعل ؟

ظللت أجلس لحظة والقلم فى يدى ثم قمت إلى المطبخ وصنعت فنجانا من القهوة . ضاعفت كمية البن ووقفت ممسكا (الكنكة) فوق الشعلة الخافتة أراقب بحرص الفقاقيع وهى تتخلل البن حتى لا يفور وينسكب . عدت بفنجان القهوة وأنا أقول ، نعم يا برنار ، أصعب من إنقاذ المصابين فى بيروت ! ..

شربت فنجان القهوة بسرعة فبدأ قلبى يدق بشدة . ولكنى جلست إلى المكتب وأمسكت القلم . كتبت عنوانا : سفير النرويج يحتج لاحتجاز ممرضات ، ثم شطبت العنوان ورحت أرسم فى الورقة مربعات وأهرامات .

أمسكت أول واحدة من القصاصات التى أمامى . كانت صحيفة عربية تصدر فى باريس وكان الكاتب يسأل : حتى متى الصمت ؟ .. ماذا جرى ؟ .. ألم تكن دماؤنا تسيل بالأمس غضبا على الفرنسيين فى دمشق وفى تونس وطلبا للجلاء بالدماء ، فما الذى جرى لهذه الدماء ؟ .. أين ضاعت النخوة التى تجعل الإنسان ينتفض لنجدة أخيه ؟ دعك من الإنسان ! النخوة التى تجعل ذئاب الغابة تجتمع لتدافع عن نفسها ضد نمر أو أسد . هل نحن أسوأ من الذئاب والوحوش ؟ ..

بقية القصاصات كانت تردد الأسئلة نفسها : كيف ؟ .. لماذا ؟ .. والعبارات نفسها: العار ! .. الصمت .. المؤامرة ، إلخ ، إلخ .

سألت نفسى : إذن ماذا بقى لكى يقال ؟

سألت نفسى ومن يناشد هؤلاء الكتاب بالضبط ؟ .. ما معنى أن يسأل كل واحد الآخر ماذا جرى ؟ .. كأنما هناك عرب آخرون غيرنا نحن الذين نسأل ! .. عرب يختفون فى مكان مسحور ننتظر منهم أن يظهروا ويتحركوا بالنيابة عنا جميعا !

ما العمل ؟ .. قمت وأخذت أتمشى فى الغرفة .

أعمل قهوة أخرى ؟ .. بماذا تفيد ؟ ..

كانت المساحة التى أتحرك فيها صغيرة جدا فكنت أمشى ثلاث خطوات وأعود إلى المكتب . أمسكت وأنا واقف بأول صحيفة تحت القصاصات . فى الصفحة الأولى كانت هناك صورة أعرفها . قرأت الخبر فرجع الطنين الحاد إلى أذنى . جلست على الكرسى دفعة واحدة . ظللت أمسك الصحيفة ويدى ترتعد . قلت لعلى لم أفهم ، وقرأت الخبر مرة أخرى . لا . ليس هناك أمل فى ألا تقرأ ما قرأت ! .. قرأته بالفعل ولن ترجع مرة أخرى تلك اللحظة التى كنت تجهل فيها والتى كان لا يزال فيها حيا . نعم ، خليل حاوى أطلق الرصاص على رأسه فى بيروت . هذا حدث وانتهى فلا أمل فى ألا تعرفه .

تركت الصالة وتمددت بثيابى على السرير. رحت أضغط بيدى على قلبى وكأنى يمكن بهذه الطريقة أن أهدئه ..

حريص أنت على حياتك ؟ .. تخاف من هذه الدقات السريعة ومن الطنين فى الأذن ؟ .. لا تخف ، لن تموت ، سيحتمل قلبك الحجرى قصة عين الحلوة والقهوة الثقيلة وموت الشاعر. لا تخف . لو أن دماء بالفعل هى التى يضخها قلبك لكنت الآن هناك ، إلى جواره ، مصروعا إلى يمينه . لا تخف ، لن يحدث لك شىء .

قفزت من الفراش وخرجت مرة أخرى إلى الصالة ووقفت أمام عبدالناصر . سألته لماذا يعيش غسان محمود ويموت خليل حاوى ؟ .. لماذا يموت من صدقك وصدق الرؤيا ؟ .. كان قد رآنا - كما قلت أنت - نغتسل الصبح فى النيل وفى الأردن وفى الفرات . فلماذا كذبت عليه ؟ .. لماذا ربيت فى حجرك من خانوك

وخانونا ؟ .. من باعوك وباعونا ؟ .. لماذا لم يبق غير غسان حمود ؟ .. لا تدافع عن نفسك ولا تجادلنى ، فها هو خليل حاوى قد انتحر ! ثم ماذا تريد أن تقول ؟.. إننا كان يمكن أن نفعل شيئا ؟ .. كيف وخليل حاوى لم يكن يملك شيئا غير ضلوعه ، تلك التى مدها جسرا وطيدا من كهوف الشرق من مستنقع الشرق إلى الشرق الجديد ؟ أى شرق جديد ولم يعد هناك شىء غير الكهوف والمستنقع وغسان محمود ؟ .. كيف كنت تريده ألا يطلق الرصاص على رأسه ؟ .. سلاحه لم يكن يصلح لشىء غيرها فما رأيك ؟ ..

لا تبك ! .. على الأخص لاتبك ! .. ولا داعى لهذه الحشرجة فى الصوت ، ولا داعى لقرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس مساهمة مصرية – ولا داعى لقامت دولة عظمى تحمى وتهدد وتصون وتبدد ولا داعى لكل هذا الطنين فى الأذن فأنا لا أحتمل ! أسمعت ؟

ثم أى زجاج هذا الذى يتناثر فى الأرض؟..

ومن أين يأتى هذا الرنين ؟ ..

من الذى يصرخ ؟

وما الذى يسقط ؟

الفصل السابع

ليل حنون .. حديقة حانية

وكان ما كان ،

ثم جاء ت السكينة وجاء الجمال ... ثم أصبح القط الأسود يطارد الفأر ، والفأر يخطف الجبن ، ثم كان القط يضع القنبلة فى الجبن لكى تنفجر فى الفأر ، فيلقى الفأر الجبن على القط ، وحين ينفجر يسقط القط على ظهره ، ولكن لا يحترق منه غير شعره وذيله ، ثم يرجع قطا كما كان ويعود ليطارد الفأر ...

بعدها يأتى الرجل المضحك السمين لكى يضرب الرجل المضحك الرفيع ، أو ربما العكس ، ثم يأتى شارلى ليقول غدا تشرق الشمس وتغرد الطيور وتتفتح الأزهار ولكى يأكل حذاءه حين يجوع . وكنت ابتسم لشارلى ، وحين تتعب عينى أفتح الراديو المثبت إلى جوارى فتنبعث منه موسيقى حلوة تقول نم ، نم ، نم ، فأنام .

وفى النهار كنت أتمشى قليلا . أقضى وقتا فى الصالة الخارجية . أشاهد التليفزيون وأراقب زملائى ويراقبوننى ، ونتبادل الابتسامات والأحاديث . وفى الصالة كان التليفزيون يقدم البرامج نفسها مثل ذلك الجهاز الصغير المعلق فوق سريرى . لم تكن هناك أى أخبار أو أى برامج . لم يكن هناك أى عالم حقيقى ، بل أفلام الرسوم المتحركة المتعاقبة وبعض الإعلانات عن أدوية الحموضة وعن معاجين الأسنان تملأ الشاشة بفتيات جميلات يكشفن أسنانهن البيضاء وابتساماتهن العريضة . وكنا فى صالة هذا الطابق المخصص لحالات القلب والأوعية الدموية ، نجلس بالساعات ونحن نحبك الأرواب فوق جلابيب المستشفى البيضاء التى تشعرنا بالعرى ، ونتابع بعيون نعسانة ميكى ماوس ونقّار الخشب والكلب الكسلان ولوريل وهاردى ، ونضحك بوقار طوال الوقت ، قبل أن تأتى لكل

منا ممرضة فى حوالى السادسة أو السابعة وفى يدها الحبوب المهدئة والماء ، وعلى شفتيها الابتسامة المهدئة ، وبعدها نذهب إلى غرفنا ثم يأتى النوم السعيد ، لنصحو فى الصباح ونرى القط يطارد الفأر ...

كان الطبيب قد قال لى إننى محظوظ ، وإنه لو لم ينقلنى برنار في سيارته على الفور لقضت علىَّ الأزمة بعد دقائق ، لأنه كانت هناك أيضا جلطة تتكون فى أحد الشرايين وتتحرك نحو القلب . وشرح لى أننى يجب بعد هذه الأزمة أن أعوِّد نفسى على عدم الانفعال وعلى الاعتدال فى الأكل والشرب ، ويجب ألا أقرب التدخين . ولما قلت له إننى امتنعت عن التدخين منذ مدة . رد وهو يبتسم بنوع من التأنيب : ولكن ها أنت تدفع ثمن السنوات السابقة ! .. كان طبيبا شابا ، وقيل إنه عبقرى ، ولكنه لم يكن يقدم أى تشجيع أو أمل . غير أن الحبوب المهدئة كانت أثمن هداياه . أصبح النوم يأتى بسهولة وكثرة ، وابتعدت الأفكار السيئة ومعها كل الأفكار الأخرى .

واعتاد برنار أن يأتى لزيارتى فى طريقه من الحضانة التى يودع فيها طُفله الفييتنامى جان – باتيست . كان فى حوالى الرابعة أو الخامسة مدور الفم تقريبا، تشع عيناه السوداوان بالذكاء ولكنه يلتصق ببرنار ويرفض أن يكلم أحدا ، وكنت أعرف بالتجربة أنه يستحيل أن تكسر بالإلحاح قشرة طفل خجول ، فتركته آملا أن يألفنى ذات يوم . اكتفيت بأن أقدم له كلما جاء قطعا من الشيكولاتة فى العلبة التى أحضرها لى يوسف المصرى فى أول زيارة له ، ثم انهمك بعد ذلك فى الحوار مع برنار . أشكره لأنه أنقذ حياتى فيغرق فى الضحك . يقول إنه فى الحقيقة أنقذ نفسه لأنه كان سيشعر بالذنب لو حدث لى شئ بعد تلك المقابلة مع ماريان ، قال إنه رأى فى عينى شيئا أقلقه عندما تركته فى الطريق بعد المقابلة ، وحين طلبنى فى التليفون لم يفهم شيئا مما قلته ولكنه سمع صرخة وارتطام السماعة فى الأرض فأدرك ماحدث . وكنت أحكى لزملائى فى الغرفة أو فى الصالة تلك القصة وأقول إننى مدين له بحياتى ، فيلفت برنار نظرى برفق إلى أننى سبق أن حكيت لهم هذا كله ثم يكمل أنه لابد أن يجرب هو أيضا هذه الأدوية التى تجعلنى أفقد

الذاكرة وتجعلني مهذبا إلى هذا الحد . ولكن برنار رفض تماما أن يحضر لي أي صحيفة أو أن يحدثني عما يدور في لبنان . قال إن الطبيب منع أي شئ يمكن أن يثير انفعالا وإنه أعطى تنبيها صارما لكل الزوار ، ولم أكن أشعر في نفسي بأية قدرة على الإلحاح في الطلب ، فكنت أتسلى بمتابعته وهو يبذل كل جهده لكي لا يدخل في الحديث أي موضوع مثير للقلق ! ... وفي النهاية اكتفى بأن يحكي لي قصصه مع جان – باتيست . كان يشكو دائما من أنه يعذبه في الذهاب إلى فراشه في موعده في الليل .

وقال لي ذات مرة إنه هدده بالأمس بأن يعاقبه ما لم ينم ، فرد جان – باتيست بأن ذلك لا يهمه لأنه يستطيع أن يحول نفسه إلى عصفور ويطير قبل أي عقاب . واستشهد برنار بي على أن كل الناس يجب أن تنام في موعدها لكي تصحو نشيطة في الصباح ، فأمَّنت على كلامه وقلت وأنا أتطلع نحو جان – باتيست :

– وكذلك كل العصافير وكل القطط وكل الكلاب لابد أن تنام في موعدها في الليل .

ففاجأني بأن صوب نحوي عينيه السوداوين في نظرة متحدية وسألني :

– وهل تذهب السمكة لتنام في موعدها بالليل ؟ .

– نعم .

– كيف ؟

– عندها بيت صغير تحت الماء تذهب لتنام فيه .

مط جان – باتيست شفتيه مستهزئا وسكت لحظة قبل أن يقول لي : والسمكة الصفراء التي عندنا في الحوض ؟

نظرت نحو برنار لكي ينقذني ، فقال وهو يضحك نافد الصبر :

– هي لا تنام . وما لم تنم أنت في موعدك فستصبح بالتأكيد سمكة صغيرة صفراء ! هل فهمت ؟ .

ولم يكن مسموحا لي بأن أخرج عن هذا المستوى من الحوار .

حتى يوسف الذي كان يزورني كل يوم تقريبا لم أنجح في استدراجه ليقول لي شيئا عما يحدث في العالم .

زارنى أول مرة مع زوجته التى قبضت على يدى بمجرد دخولها بيديها الاثنتين معا ، وخاطبتنى كما لو كانت تحدث طفلا : يا سيدى الطيب المسكين ! .. مع أنك كنت تراعى صحتك جيدا ! .. لم تكن تشرب غير القهوة الطبية ! .. فقال يوسف بشئ من الخجل : كفى يا إيلين . هو بخير .

نظرت نحو يوسف كأنها تتهمه بأنه هو الذى قال العكس وقالت : ماذا تظن ؟ .. السيد بخير . بالطبع ! هى وعكة بسيطة وسيخرج بعد أن يرتاح قليلا ..

ثم همست تخاطبنى وكأنها تطلعنى على سر : الممرضات قلن لى إن تحسنك مذهل ... م ... ذ ... هـ ... ل ... ! عما قريب سنكون على قدمينا فى الطريق . ما رأيك ؟ ..

فكرر زوجها بلهجة أشد حزما : كفى يا إيلين !

وأصبح يوسف بعد ذلك يأتى بمفرده . واعتاد أن يحدثنى أيضا مثل برنار ومثل ميكى ماوس ومثل شارلى شابلن عن أشياء مسلية وأشياء مضحكة . وكانت حكاياته المفضلة هى ما جرى له عند وصوله إلى البلد ومغامراته أيامها ليجد مكانا ينام فيه . قال إنه عندما وصل فى الصيف لم يكن هناك مشكلة إذ اعتاد أن يجد مكانا منزويا فى الحدائق العامة بعيدا عن أعين الشرطة . ولكن متاعبه بدأت عندما حل شتاء البلد الصعب . وكان فى البداية محظوظا : اكتشف قبوا يستخدمه السكان مخزنا فى عمارة هادئة ، فيه سرير قديم . فكان يتسلل إليه فى وقت متأخر وينام حتى الصباح ، غير أن واحدا من السكان اكتشفه ذات ليلة واعتقد أنه لص وأراد أن يستدعى الشرطة لولا أنه نجح فى الفرار . قال إنه قضى تلك الليلة مقرفصا فى كابينة تليفون بحثا عن شئ من الدفء ، ولكن الهواء كان يخترق الكابينة من كل مكان وفى الصباح كان قد تجمد بحيث لم يعد يستطيع السير على قدميه . قال إن مصريا له خبرة سابقة تعرف عليه فى إحدى الحدائق العامة أنقذه من الهلاك . لم يكن يوسف يعمل ولم تكن لديه أوراق إقامة فى البلد ونفدت كل النقود التى كانت معه وبدأ يفكر فى الرجوع إلى مصر . فكر أن العودة إلى السجن أرحم مما هو فيه. ولكنه تعرف على (مأمون) الذى كان

عاملا فى مصر وعاطلا هنا ، فدله كيف يأكل وكيف ينام .. عرفه أولا على جمعية خيرية تقدم وجبة مجانية بسيطة للفقراء وتوزع عليهم مبالغ زهيدة كانت تكفيه لأن يأكل شيئا فى المساء . واصطحبه فى الليلة نفسها إلى منامته الخاصة ، تسللا فى الليل إلى مخازن السكة الحديدية وكانت هناك عربات قطارات منفردة مغلقة ومع مأمون مفتاح خاص ، فتح به عربة نوم الدرجة الأولى حيث كان الفراش مريحا والأغطية ثقيلة ، ونبهه إلى أهم درس لمواصلة الاستمتاع بهذه النعمة ، وهو ضرورة الاستيقاظ قبل نور الفجر ومغادرة العربة قبل وصول عمال المخازن . قال يوسف إنهما قضيا فى تلك العربة أياما سعيدة ، ولكن ذات صباح بعد أن سهرا طويلا مع الشراب والدردشة ، استغرقا فى نوم عميق وفى الصباح اكتشفا أن العربة تتحرك بسرعة وأنهما على سفر لايدريان مقصده . قضيا الوقت فى تبادل مراقبة مفتش القطار والتنقل من عربة إلى أخرى ثم نزلا فى أول محطة . وهناك اكتشفا أن الناس يتكلمون لغة غريبة لا يعرفانها ، وقفا فى المحطة حائرين إلى أن وجدا شخصا له ملامح عربية فسألاه أين هما ؟ ... غضب الرجل واعتقد أنهما يسخران منه ، ولكنه بعد شئ من الشرح والإلحاح قال إنهما إن كانا لا يعرفان حقا فليعلما أنهما فى ميلانو . وبعد أن انصرف الرجل سأله مأمون متحيرا : وفى أى داهية ميلانو هذه ؟

ولما سألت يوسف وكيف استطعت أن ترجع إلى هنا مرة أخرى ؟ قال ضاحكا رجعنا بعد أيام ، فى عربة النوم نفسها وبالطريقة نفسها .

حكى لى يوسف كل الأشياء الصعبة التى مر بها كما لو كانت نكتة ، غير أنه كان يتوقف دائما قبل تعرفه على إيلين وزواجه منها . وكان يطرأ على بالى أحيانا ويوسف يحكى لى بيدرو إيبانيز ، أسأل نفسى هل ينام الآن فى قبو أو فى قطار؟. وهل أصبح حقا أسعد حالا مما كان فى معسكر الاستقبال ؟

وكان يوسف ينقل لى بين حين وآخر تحيات الأمير وسؤاله عنى ، غير أنى كنت أتلقى فى كل يوم أيضا باقة زهور ضخمة ومنسقة بعناية ، مع بطاقة «تحيات الأمير حامد بن ... وتمنياته بالشفاء» . وفى آخر اليوم كنت أوزع هذه الباقات

بالتناوب على الممرضات فيسعدن بهذه الزهور الثمينة النادرة .

★ ★ ★

واعتادت بريجيت أن تأتى كل يوم فى الظهيرة فى فسحة غدائها المعتادة ، تدخل بزيها الأزرق وفى يدها باقة صغيرة من الزهور ، فتشيع ابتسامتها البهجة فى الغرفة بمجرد أن تخطو إليها . وكنت أشعر بنوع من الزهو حين أرى نظرات المرضى الآخرين المبهورة . وافتعالهم أى مناسبة للاقتراب منا والحديث إلينا . ولكن هذا الزهو انقلب إلى شعور بالعار وبالخجل من نفسى حين قال أحدهم يوما بعد أن انصرفت وهو يغمز بعينه هل هذه هى السبب فى أنك هنا ؟ .. فى مثل سننا يا صديقى يحسن أن تتجنب الصغيرات والجميلات . لم تعد قلوبنا تحتمل ذلك . غمغمت محتجا وغاضبا بالقدر الذى تسمح به أدويتى ، وأنا أقول إننى لا أسمح له أن يقول ذلك ، وإنها مجرد صديقة وإنها فى سن ابنتى وكلام كثير من هذا النوع ، ثم أصبحت أحرص بعد ذلك حين تأتى أن أختفى بها عن الأنظار فى قاعة أخرى أو فى طابق آخر فى المستشفى . وفى تلك الأيام كانت هى التى تثرثر، تبحث أيضا عن حكايات مضحكة تسلينى . ومع استمرار «التحسن» والأدوية المهدئة لم أكن أستطيع مقاومة القهقهة حتى على الأشياء التى لا تستحق ذلك ، فكانت هى تضحك لبهجتى المستمرة .

وفى اليوم السابق لمغادرة المستشفى استدعانى الطبيب إلى مكتبه . قال بمنتهى الجدية إنه درس حالتى فوجد أننى أعمل صحفيا وان هذا العمل لا يناسب حالتى الآن ويجب أن أغيره . أوشكت أن أضحك أيضا لهذه النصيحة ولكننى وعدته أن أبذل جهدى فى أسرع وقت . ونبهنى الطبيب إلى أننى يجب ألا أتجاوز فنجانين من القهوة فى اليوم ، ويمكن بعد أسبوعين أن أمتنع عن الحبوب المهدئة . أما أقراص الضغط وسيولة الدم فيجب أن أفهم أنها منذ الآن جزء من روتين الحياة اليومى ، قلت إننى فهمت فلم يبد مقتنعا بذلك تماما ، وكرر التعليمات بطريقة أخرى .

وبمجرد أن خرجت من المستشفى اشتريت صحف اليوم وتوجهت إلى مقهاى

على شاطئ النهر ، بدا المشى فى الشوارع ولفحة الهواء كالمفاجأة بعد أيام احتجازى فى المستشفى ، ولم أكن أستطيع المشى بسرعة فأخذت أتمتع بحريتى الجديدة على مهل . ولاحظت حين وصلت إلى المقهى أن الزهور فى أحواض المدخل قد تغيرت ، أصبحت هى زهور نهاية الصيف وبداية الخريف بألوانها الهادئة البنية والبنفسجية والصفراء الداكنة .

بدأت أقرأ الصحف وأنا أشرب كوبا من العصير ، ولكنى تركتها بعد فترة قصيرة ورحت أنظر إلى النهر . كانت العناوين هى نفسها والاحصاءات هى نفسها - آلاف القنابل من الطائرات وآلاف القذائف من المدافع على بيروت المحاصرة . وأجرت واحدة من الصحف مقارنات فقالت إنه سقط بالأمس فوق بيروت ١٨٥ ألف قذيفة توازى ٢٦ ألف طن من المتفجرات . وحددت أنه سقط بالأمس أيضا ٢٨٠ قتيلا و ٥٠٠ جريح . وكان هناك مقال فى صحيفة عربية تقدمية يؤبن خليل حاوى ويقول إنه كان شاعرا كبيرا ولكنه أخطأ حين انتحر لأن الإنسان يجب ألا ينهار أمام الظروف الصعبة إلخ . إلخ .

طويت الصحف واستغرقت فى مشاهدة تشكيلات البجع ، وكان إلى جوارى رجل عجوز يعطى حفيده قطعا صغيرة من الخبز ليلقيها فى النهر ، فتجمع تحت النافذة سرب كبير يمد رقابه البيضاء إلى الماء ويرفعها فى وقت واحد ثم يميل نحو البط الصغير الذى يزاحمه لكى يهاجمه بمناقيره الحمراء الغاضبة ، فقلت لنفسى هاهى رقصة البجع الحقيقية .

وانتبهت بعد لحظة إلى أن بريجيت تقف إلى جوارى . قطبت جبينها حين رأت الصحف المطوية على الطاولة وقالت بنوع من التأنيب : والآن أيها العنيد العزيز ألم يمنع الطبيب ذلك كله ؟

لكنها قبلتنى فى خدى قبلة حارة وقالت كم أنا سعيدة لأنك رجعت . أنت لا تعرف كم افتقدت جلستنا فى هذا المكان !

ثم أخذت الصحف المطوية ورمتها فوق مقعد بعيد .

قلت : لاداعى لهذا يا بريجيت . ليس من أجل نصائح الطبيب ولكن أنا نفسى

قررت أن أفعل مثلك ، قررت ألا أقرأ الصحف أو أشاهد الأخبار بعد الآن . ما الداعى ؟ أنت قلت لم نكن نحن الذين أرقنا هذه الدماء ولا نحن الذين نستطيع أن نوقفها . على الأخص لا نستطيع أن نوقفها .

- ها هو شخص يرجع عاقلا من جديد ...

ثم ضحكت وهى تكمل : ولو أننى لا أحب الناس العاقلين ! ولكننى كنت أحنى رأسى وأقاوم دموعا تريد أن تتكون فى عينى .

وعدنا نتكلم ونلتقى كل يوم . غير أن الأمور لم تعد قط كما كانت من قبل . أفهم أننى تغيرت قليلا بعد المرض والعلاج ولكننى كنت أسأل نفسى ما الذى غيرها هى ؟ ... لماذا اعتراها هذا الصمت والشرود الطويل ولماذا لم تعد تحكى لى قصصها اليومية مع السياح ؟ .

وأخذ يحدث لى أنا أيضا تغيير آخر فى هذه الأيام . فحتى بعد أن كففت عن الحبوب المهدئة أصبحت تنتابنى انفعالات غريبة ، بدأت ألاحظ ذلك فى المساء عندما كنت أجلس فى البيت أراقب الأفلام المصرية القديمة على الفيديو . كانت الدموع تصعد إلى عينى بمنتهى السهولة حين أشاهد فاتن حمامة معذبة من مكائد زكى رستم العجوز أو حين يهجر كمال الشناوى شادية دون مبرر وفى بطنها الجنين ، أمسح الدموع من عينى وأوقف الفيديو وأنا أحاول أن أضحك . أتذكر كيف كنت فى شبابى أسخر من هذه الأفلام وأتكلم عن تأخر فن السينما فى بلدنا وعن الميلودرامية وهذه الأشياء . فما الذى حدث ؟ ....

تطفر الدموع أيضا حين أستمع إلى صوت خالد أو هنادى فى التليفون . بكيت بالفعل يوم قالت لى هنادى إنها نجحت بمجموع ٧٠٪ وطلبت منها أن تسأل فورا عن اشتراك نادى الفروسية ، فقالت «ميرسى يا أجدع بابا . بس أنت بتعيط ولا شكلك كده ؟» .. وحين هنأت خالد أيضا على نجاحه المتفوق ، قلت له بصوت متهدج إننى فخور به وإننى أسامحه ، فرد خالد بدهشة «تسامحنى على إيه يا بابا» لكننى كررت أنى أسامحه وأنهيت المكالمة قبل أن أجهش بالبكاء .

وبصعوبة أيضا أصبحت أحبس دموعى أمام بريجيت ... أعاتبها عتابا شديدا

إذا ما تأخرت قليلا عن موعد الظهيرة وتضطر هى إلى الشرح وإلى الاعتذار بينما تطل دهشة من عينيها لأنها ترانى أحول وجهى للناحية الأخرى وأضعه بين كفى لأقاوم البكاء . وفى النهاية كان لابد أن أصارحها بما يحدث لى فقالت :

- بالنسبة لى أنا أجدك هكذا أفضل بكثير مما كنت من قبل . قلت لك إننى لم أحب فى حياتى الناس العاقلين جدا . ولكن لماذا لا تذهب إلى الطبيب مادام هذا يزعجك ؟ ...

غير أن طبيبى لم يفهم أى شئ ، فحصنى بدقة كعادته وأرسلنى أجرى فحوصا وتحليلات للدم ، ثم قال بعد أن راجع نتائج التحليل إن هناك تقدما كبيرا يحدث ، بل إننى أكاد أكون عاديا . ولما شرحت له مرة أخرى ما أشعر به وأننى لم أعد أستطيع أن أسيطر على دموعى ، استمع إلى باهتمام ثم كتب لى خطابا يحولنى به إلى طبيب للعيون وهو يقول : بعد أن نطمئن على حالة العين نفسها يمكن أن أحولك إلى طبيب نفسى .

أوشكت أن أشتم الطبيب لكنى أخذت الخطاب وغادرت العيادة بسرعة وكنت أدمدم وأنا أنزل السلم وشعرت أن الانفعالات القديمة ترجع مرة أخرى فوقفت فى مدخل العمارة أتنفس بعمق أحاول أن أهدأ وأحاول أن أتذكر أين ركنت سيارتى . وكنت بالفعل قد أصبحت أهدأ حالا بعد أن خرجت إلى الطريق وواجهتنى لذعة برد خفيفة منعشة .

مشيت الشارع الطويل كله أبحث عن السيارة دون جدوى ، فوقفت عند الناصية أظلل عينى بيدى وأنا أحاول أن أميزها بين عشرات السيارات التى تصطف على اليمين واليسار . لكنى بعد لحظة نسيت السيارة وكل شئ آخر . وسألت نفسى كيف لم أر هذا من قبل ؟ ... كيف فاتنى أن ألاحظه ؟ ... كيف غاب عن عينى هذا الخريف الجميل الذى بدأ هذا العام مبكرا عن موعده ؟

كانت الأشجار على جانبى الشارع فى ذلك الحى الهادئ قد شحبت خضرتها ووشتها الأوراق الصفراء اللامعة والطرية ، متوهجة فى الشمس . وكل شجرة زهرة عملاقة مزخرفة بالألوان الخضراء الباهتة والخضراء المصفرة والصفراء

البنية والمشربة بالحمرة ، والمفضضة ، وألوان أخرى لا أعرف وصفها وسط ذلك العيد الخريفي . وكان الهواء يدفع بعض الأوراق فتتطاير ببطء مثل فراشات مذهبة قبل أن تستقر على الأرض .. قبل أن تنضم إلى سرب هاجع آخر يصنع دائرة حول جذع الشجرة ، ويرسم تحتها صدى شجرة أخرى صفراء ، ترتعش بالهواء فيصدر احتكاكها صوتا صغيرا خشنا لكنه يدغدغ الحواس .

وقفت طويلا لا أفكر فى شئ وأنا انقل بصرى بين السماء الزرقاء الصافية والشجر الذى ينفض زينته فى الأرض ، تنزل دموعى فلا أقاومها ولا أريد الآن أن أقاومها ، وكأن شيئا فى داخلى يقول إنه من قلب هذه النار الذهبية الوانية ستتوقد روحى وتبعث من جديد ... وبدأت أمزق فى بطء رسالة الطبيب فحمل الهواء قصاصاتها البيضاء وراحت تتطاير أيضا وسط أوراق الأشجار التائهة .

أتراه هو أيضا ، نفسه ، ذلك اليوم الذى قالت فيه بريجيت إنها تحبنى ؟ ذلك اليوم الذى جاء فيه الحب موجة عالية لسابح غشيم ، فغمرته الموجة وصار يشهق فى جوفها ويخبط بيديه لا يدرى إلى أين ؟ .. ولكن لم الكذب ؟ ... كنت يومها أطفو فوق تلك الموجة ، سعيدا ومغرورا ، أنى أنا – هذا العجوز – ، قد أحبته هى، تلك الصغيرة الجميلة ، وأنها من أجلى تدمع عينها وترتعش يدها حين ألمسها وهى تقول فى همس لا يبين : ما الذى يحدث لى ؟ .. ومن أنا لأستحق كل هذا الفرح ؟ ...

وكنت أسأل نفسى : ومن أنا لأستحق كل هذا الحب ؟ ... أليس عارا أن أفرح كل هذا الفرح ، فى هذا العمر ، وفى تلك الأيام ، ووسط تلك الحرب ؟ ..

ولكن ذلك فيما بعد ، فيما بعد – وقتها حين تركتنى أمام باب ذلك المقهى ، مقهانا ، وقالت إنها ستتركنى .. إنها تخشى أن تكون قد أحبتنى .. وقتها وقفت فى الطريق مزروعا كواحدة من تلك الأشجار ، لا أسمع شيئا ، ولا أبصر شيئا غير تلك الكلمات : أخشى أن أكون قد أحببتك ! ... لا أفكر حتى فى معناها ، اتركها تتخللنى كيما تتشرب روحى الجافة المتشققة ذلك الندى الذى أبطأ عنها طويلا ..

أخشى أن أكون قد أحببتك ! ...
شراع أبيض يمرق بسرعة فوق موج أزرق ..

★ ★ ★

وفى المساء نفسه تتكلمين ، يأتى صوتك فى التليفون صغيرا ومذنبا : هل يمكن أن أراك ؟ .. ونلتقى فتسقط كل حساباتى . تضيع كل الكلمات التى أعددتها لكى أردك وأرد نفسى إلى العقل . آخذك فى ذراعى بمجرد أن أراك . أقبلك فى فمك . أمسك ذراعك . أضمك . أبعدك عنى قليلا كيما أرى وجهك ، لكى أثق أن هذه أنت وأننى أنا ثم أضمك من جديد ..

نمشى فى الشوارع الخافتة الضوء . أضم يدك وتضمين يدى . تقولين كأنك تكلمين غيرى . لم يكن هذا عدلا . لم يكن عدلا أن ألقاك وأن أحبك .. ولا أفهم ما تقصدين بالضبط ولكنى أكمل لم يكن هذا عدلا أن ألقاك فى هذا العمر وأن يأتينى كل هذا الحب . لكننا مع ذلك كنا نضحك . كنا مدهوشين وكنا سعيدين . وكنت تمشين بسرعة ، كأنك تجذبيننى من يدى ، تطئين الأرض بخفة كعادتك ، كأنما تلمسينها بأصابع قدميك وحدها ، وكنا قد دخلنا دون أن ندرى تلك الحديقة وأخذنا نمشى فى ممراتها التى ينيرها القمر وحده وأنا أحبك والليل الجميل غلالة تضمنا وأنا حولك وأنت حولى ورأسك على صدرى وتتحسسين يدى وتسألين هل تشعر بالبرد فأقول لا وترفعين رأسك قليلا وتغمغمين بشئ من الحيرة هل كل هذا صحيح ؟ ألا نحلم ؟ .. وأقول وحتى لو كان حلما فما أجمله . ويصحو فى الليل طائر يرفرف بجناحيه على شجرة وتسقط من الشجرة ورقة فوق رأسى فتفرحين بها وتضعينها على شفتيك وتستديرين نحوى وأرى فى ضوء القمر وجهك المستدير وسط هالة شعرك الذهبى وتبتسمين فتظهر تلك الخطوط التى أعشقها فى ذقنك وحول عينيك وتسألييننى لم تحب أن تقبلنى فى النور ؟! فأقول لأنى أحب أن أرى وجهك ، فترديين ولكنى أراك وأنا مغمضة العينين .. من شهور طويلة أراك وأنا مغمضة العينين وتسبلين جفنيك فأقبل هاتين العينين وتضعين أصابعك الطويلة الناعمة حول رأسى فأقبلك مرة أخرى ، ولكنى أسمعك وكأنك تعتذرين أنت تؤلمنى

فـأتراجع وأعـتـذر أنا ، وتسندين رأسك على كـتـفى وأنت تقـولين ولكنى أريد هذا الألم ثم تقبلينني قبلات سريعة فى وجهى كله وفى جبهتى وتقولين بأنفاس متقطعة ما الذى يحدث لنا ؟ .. فـأقول لك ها أنا أحبك مثل صبى صغير . انتهى عمرى ولكنى أحبك وكأنى أبدأ هذا العمر .. فتقولين بضحكة صافية وأنت تضعين رأسك فى صدرى ولكن ألا تعرف أن كل المحبين صغار لا عمر لهم وأن الحب طفل ؟ .. وكنت أعرف أيضا أنها كذبة ولكن ما أجمل هذا الكذب ! .. ما أجمل هذا الوهم ! .. وأنا أحبك ، وأنت معى ، فى الليل الحنون ، فى الحديقة الحانيـة ، ولا تعودين صغيرة ولا أعود كهلا ولكنا مـجلوان معا فى ذلك القمر الفضى ، فى عمر واحد ، دون عـمـر ، فـى قلب الحب الطفل ، فى الزمن الوحـيـد الأبدى ، وأنا أحـبك ، وأنت معى ..

وكان هذا فى البدء ، ليلة أصبحنا واحدا .

وإذ أرجع من عندك فى ليلة الحب تلك وقد اكتـملنا واجـداً ، أسـير وسط كـتل البيوت الحجرية المظلمة التى تثقبها كوى النور القليلة السهرانة ، أسير وأنا أشعر بالبـرد فـأضـع يدى فـى جيـبـى مـعطفى وأحث الخطى ، ولا أريد مـع ذلك أن أرجع إلى البـيت ، لا أريد أن يقـيـدنى مكان ، أتمنى لو أحلق فـوق هـذا العـالم الجـدارى الأصم الكثيف وأنت معى إلى دنيا أخـرى ناعـمـة وشـفـافـة لا يحـدهـا الطوب ولا المواعيد ولا الصـحف والحـروب ولا الجوع ولا الموت ولا هـموم الأمس ولا مـفـاجـآت الغد - دنيا نصنعها مـعا ، لا عمر لها حتى ولو كانت قصيرة العمر ، هنا والآن ، دنيا تصـحـح كل الماضى وتمحـوه ، دنيا تصلح كل الحـاضـر ولا تبقى شـيـئـا غـير الفرح ...

لا شئ غير الفرح !

وكأنما كانت تلك الرغبة عدوى أصابتنا معا !

أذهلتنى ليلتها وفى الليالى الأخرى قدرتك على الحب : رغبتك فى أن نقضى الليل كله ساهرين وفى أن نفـعل كل شئ بعمق وكـأنه لن يـأتى أبدا أى غـد . كـأن علينا أن نـقـتنص الفرحة لأنـنا لو لم نفعل الآن فستضيع إلى الأبد : كنـا نتـحـاب

وتصرين على أن أقرأ لك شعرا وتقرئين أنت لى ونخرج فى عمق الليل لنتمشى فى الشوارع الخالية الباردة متعانقين ثم نرجع لنستأنف كل شئ من جديد . ولم أكن أصدق أننى معك ، يمكن أن أكون فعلا دون عمر ولكنى كنت أكثر حرصا منك على ألا تضيع لحظة واحدة من عرسنا الليلى المستمر .

وكانت لك طقوسك . تحبين أن ترقدى متكورة على جنبك وركبتاك عند صدرك وأنت مغمضة العينين . إبهامك فى فمك تمتصينه بصوت خافت ورتيب ، وأميل عليك فتتظاهرين أنك أجفلت من نومك وتصدرين غمغمات وكلمات ناقصة لا معنى لها كمناغاة طفل رضيع وأنت تمدين ذراعك لمعانقتى . وتقولين بصوت صغير قبلنى .. قبلنى كثيرا .. قبلنى فى كل مكان ، ولم أكن بحاجة إلى مجهود كبير لكى أفهم أنك تحبين كل ما يردك للطفولة . قبل أن تستيقظ فيك الأنثى كاملة وناضجة.

أفهم .. ولكن كيف أفهم ما حدث لى أنا ؟ .. كيف استطعت فى ذلك الخريف المتأخر من العمر أن أكون ندا لفتوتك العارمة ؟ .. أن أغوص معك فى تلك الدوامات الليلية فلا أغرق فيها ولاأنتهى ؟ .. وأين ذهب الضغط والصداع خلف الرأس وتلك الزغللة التى لا تنتهى فى العين ؟

أوشكت أن أضحك حين قال لى الطبيب فى يوم الكشف الدورى : هل رأيت ؟ .. ها أنت الآن توشك أن تكون عاديا تماما. أرى أنك تتبع النصيحة . لا انفعالات ولا مبالغة فى أى شئ : أليس كذلك ؟

قلت نعم .

فقال – والصحافة . هل غيرت مهنتك ؟

– امتنعت عن الصحافة .

– هذا أفضل بكثير . فى مثل حالتك يحسن أن تتجنب كل ما يرفع الضغط .

ولم أكن أكذب على الطبيب . كنت قد توقفت منذ مدة طويلة عن كتابة الرسائل إلى الصحيفة وعن مجرد الاتصال بها . كانوا سعداء بذلك وكنت أنا سعيدا .

لكم كنت سعيدا ! .. فجأة فى تلك الأيام أشرق فى ذهنى أنى حاولت كل شئ أن أكون ابنا طيبا وزوجا جيدا وأبا بارا وإنسانا له مبادئ وصحفيا له ضمير

وعجوزا وقورا يدبر لمستقبل أبنائه بعد أن يموت .. أشرق فى ذهنى أننى حاولت كل شئ غير الفرح .. غير أن أكون سعيدا داخل جلدى .. فأية نعمة أن أعرف فى حياتى ، ولو تكن هى مرة قبل النهاية ذلك الفرح المقدس الذى لا يبغى غير ذاته .. أشرق فى ذهنى أننى كنت عبر تلك الشهور مع بريجيت أتلمس الطريق إلى حقيقة كانت هناك طوال الوقت ، ولكنى كنت أعمى عنها : أننى ظللت باستمرار أمثل أدوارا حتى غاب عنى أنا نفسى ، وسط كل تلك الأقنعة ، وجهى الحقيقى .. أننى حتى لم أحلق فى التمثيل عاليا .. كان جناحاى أنا أيضا من شمع ذابا فى شمس الحقيقة .. ذابا فى بطء معذب أوشك أن يقتلنى ... فما أسعدنى لأنى أخيرا سقطت على الأرض ! ..

من أكون ؟ .. ها أنذا أعرف أخيرا من أكون .. لست مهما على الإطلاق ! لم .. أكن مهما فى أى وقت ! .. ابن الفراش .. نائب رئيس التحرير .. دخلت بورسعيد .. صعدت جبال اليمن .. طظ .. طظ .. طظ .. ماذا فعلت فى حياتك بعدها ؟ ... عشت تتلذذ بتعذيب نفسك كما قال إبراهيم .. لم تفعل حتى مثل ماريان ولا مثل إبراهيم ولا حتى مثل مولر .. واجهت الحرب الحقيقية فأسرعت تعقد صلحك المنفرد ثم رحت تعتبر نفسك ضحية وشهيدا .. شهيدا لأى شئ .. ضحية لمن غير غرورك وضعفك وطمعك بأن ترد للدنيا صفعة لن تردها أبدا إلا بأن تسرق منها السعادة ؟ .. أية فرحة إذن لأنى أخيرا قد سقطت ! .. أية فرحة أن أفقد الآن كل ذلك الماضى لكى أجدك يا بريجيت ! ..

وما بقى الآن فهو السعادة ! .. لاشئ غير السعادة ..

معذرة أيها الأمير هاملت ! أترك لك أنت ألا يبقى سوى الصمت . أنت يليق بك الصمت الجليل وأنا ما كتب لى أن أكون أنت . إن أنا إلا عجوز مخدوع شقشق لحظة بالكلمات فلم تدو الكلمات إلا فى أذنيه .

معذرة أيها الأمير ، لأن ما بقى لى هو السعادة ! .

وسامحنى يا إبراهيم ، لأنها لا ترجع لى فى آخر العمر كعقاب ، بل ترجع نعمة .

الفصــــل الثــــامن

دع هذا اليوم يبطئ

نسيت أشياء كثيرة فى تلك الايام من بينها حكاية الامير حامد . بعثت له مع ذلك رسالة شكر مع يوسف بعد أن خرجت من المستشفى ثم غاب عن ذهنى تماما هو ومشروعه الصحفى . لكن يوسف اتصل بى بعد فترة ليقول إن الأمير «يسعده» أن يرانى ، شعرت فى لهجة يوسف بنوع من الإلحاح فحددنا موعدا .

اصطحبنى يوسف إلى الجناح الذى يشغله الأمير فى فندق يطل على النهر ويرجع طرازه إلى قرن مضى ، تميزه نوافذ عريضة عالية، تحيط بها فى الصيف زهور منسقة خلف أسيجة من الحديد المشغول على شكل قلوب صغيرة متجاورة.

وقلت ليوسف ونحن فى المصعد الخشبى العتيق الذى كان يئز ببطء فى طريقه إلى الطابق الثالث : هذا أمير من نوع خاص جدا . لماذا لم ينزل فى واحد من الفنادق الحديثة التى يفضلها الأثرياء العرب هنا ؟

فرد بلهجة ملغزة . ستراه الآن بنفسك وتعرف كيف هو .

فتح لنا الباب شخص أسمر ضخم . هندى الملامح، قادنا بوقار عبر ممر يجتاز غرفا مغلقة إلى صالون واسع تكشف نافذته النهر . وانتظرنا هناك لحظة قدم لنا أثناءها تابع آخر أسمر يرتدى سترة بيضاء وقفازاً أبيض مشروبات مثلجة .

نظرت إلى ساعتى ، وكانت هى السادسة بالضبط حين فتح الحارس الآسيوى الذى استقبلنا الباب على آخره، وظل يمسك به بينما دلف من الباب شخص وراءه فتاة شقراء تمسك مفكرة وقلما . فهمت أنه هو الأمير حيث هب يوسف واقفا وقال له الآخر بطريقة عابرة .

- أهلا يا يوسف .

وقفت أنا أيضا وهو يتقدم منى بيد ممدودة على آخرها ويقول بلهجة ودودة:

- أهلا بالأستاذ ..

ضغط على يدى وهو يقول : حمدا لله على السلامة . كنت مشغولا عليك ..

وغمغمت بعبارات الشكر والأمير يجلس قبالتنا على أريكة وهو يبسط يده نحونا قائلا تفضلوا .. تفضلوا ..

وبمجرد أن جلسنا سألتنا الفتاة الشقراء باللغة الانجليزية عمّ نشرب وهى ترفع المفكرة التى تحملها ، فقال لها الأمير بانجليزية لا شائبة فيها وهو ينظر نحو يوسف :

- صديقنا يفضل نبيذك المعتق على ما أظن ..

أومأ يوسف برأسه موافقا والتفت الأمير نحوى بنظرة مستفهمة فقلت القهوة دون كافيين .

قالت الفتاة الشقراء: وسموك ؟

رفع يده دون أن ينظر نحوهافأدركت أنه لا يريد شيئا وانسحبت على الفور ومن ورائها الحارس الذى أغلق باب الصالون .

كان الأمير حامد فى حوالى الخامسة والثلاثين ، مدور الوجه، حليق الذقن ، تميل بشرته الى البياض ولكن بملامح شرقية واضحة ، يؤكدها شعره الفاحم السواد وعيناه العسليتان اللامعتان ، وكان يلبس بذلة كحلية وربطة عنق تتداخل فيها زخرفة منمنمة من ألوان سماوية وصفراء هادئة. وبدا أميل الى القصر لكنى شعرت على الفور بحضوره القوى .

كرر الأميروهو ينظر نحوى : حمدا لله على السلامة . كنت قلقا عليك بالفعل لولا أن يوسف كان يطمئننى باستمرار ..

نطق يوسف لأول مرة قائلا بحماس : كنت انقل له تحيات سموك دائما .

وقلت أنا : شكرا يا سمو الأمير . غمرتنى بفضلك أثناء المرض بتلك الزهور . كانت تحمل لى كل يوم رسالة من الأمل .

فقال وهو يستند بظهره الى الأريكة المذهبة المساند ويخرج من جيبه الداخلى مسبحة كهرمانية :

– هذا أقل ما يجب ، لا أدرى إن كان يوسف قد قال لك أم لا ، ولكنى كنت من قرائك فى فترة دراستى فى مصر فى كلية فيكتوريا . لم أنقطع بعد ذلك عن متابعتك عندما كنت أدرس فى انجلترا ، ولكن ..

أكملت : ولكن لم يكن هناك الكثير لتتابعه !

فقال وهو يحرك حبات مسبحته : يؤسفنى ألا يأخذ قلمك الآن المكان الذى يستحقه ولكن كلنا نعرف الظروف .

ثم أضاف باستهانة وكأنه تذكر شيئا : أعرف جيدا رئيس التحرير عندكم . أعرفه منذ كان مراسلا لصحيفتكم فى بلدنا ، هو يعنى صحفى وانسان .. ربنا يسهل له كما تقولون فى مصر !

قلت بهدوء : هو زميل قديم . ربما اختلف معه فى الرأى .. ولكنه انسان طيب بالفعل . كان موقفه كريما معى أثناء مرضى وبعده .

وفى تلك اللحظة فتح الحارس الباب ودخل الخادم بالقفازات البيضاء ، وبعد أن وضع المشروبات أمامنا انصرف وهو يتحرك نحوالباب بظهره وقال الأميرحامد:

– فى الواقع ان فكرتى كما شرحتها ليوسف هى أن نصدر صحيفة صغيرة ولكنها تضم صفوة الأقلام العربية . أقصد الأقلام القومية والتقدمية. أنا أعرف اتجاهك الناصرى بالطبع ، ويخطئ من يحسب أننا كنّا ضد المرحوم ناصر. بالعكس نحن ، أو على الأقل أنا ، أعرف أنه الوحيد الذى حاول أن يصنع شيئا لهذه المنطقة . لم يكن أحد يسمع بنا قبله ولكنه أعطى لبلادنا قيمة فى العالم . وكان يتعلم من أخطائه ، عرف تماما قبل أن يموت أن السوفييت كانوا يخدعونه وأنه لا مصلحة لنا فى أن نناطح أمريكا . وكان على وشك أن يتغير وأن يغير ولكن..

وتذكر شيئا فضحك ضحكة صغيرة وهو يقول : فهم رحمه الله أخيراً روح

الشعب . أنت تعرف رأينا فى مسألة زيارة الأضرحة . ولكنى تفاعلت مع ذلك عندما زار ضريح السيدة زينب بعد النكسة . وإن كان الوقت لم يمهله.

ثم تنهد الأمير وهو يتأمل مسبحته كأنه يخاطبها : انظر الى ما وصلنا إليه . انظر الى حالتنا الآن فى لبنان .

قلت بالرغم منى : فى الواقع إننى لا أرى الآن ما يحدث فى لبنان ولا فى غيره. الطبيب ..

قاطعنى الأمير : أعرف .. أعرف . الطبيب منعك من أى انفعال . وأنا بالطبع أكثر منه حرصا . لا أريدك أن تعرض نفسك لشئ يمكن لا قدر الله أن يحدث انتكاسة . بالعكس . أعتقد أنك فى حاجة الى فترة من النقاهة . ما أفكر فيه الآن وما طلبت من يوسف أن يحدثك عنه هو أن تشارك معنا بالتفكير النظرى فى هذه المرحلة . أريد أن تفكر، بهدوء كامل بالطبع وبراحتك تماما فى تصورك الخاص لصحيفة قومية فى هذه المرحلة . كيف تكون هذه الصحيفة شيئا لا يكرر الصحف الأخرى التى تصدر هنا فى أوروبا . ما هى الأبواب التى تتصور أن تتضمنها ؟ .. ومن هى الأقلام التى يمكن أن تساعد فيها للخروج بتصور جديد للفكر القومى ؟ وما هو الشكل الذى يجب أن تأخذه .. وهل تكون اسبوعية أو نصف شهرية أو حتى يومية إلى آخر هذه الأشياء ..

قلت فى حذر : ولكن سموك تعرف أولا وقبل كل شئ أن الصحيفة مشروع يستهلك اموالا طائلة ومستمرة فى كل عدد .قبل التفكير فى هذه الأشياء يجب أن نفكر فى حجم الجمهور الذى سيقرأ هذه الصحيفة ، وأهم من ذلك فى الإعلانات لأنها مصدر التمويل الأول ..

قال الأمير بلهجة باترة : لا تحمل هما من هذه الناحية . أنا كلفت من يدرس الناحية المالية للموضوع وأعرف بالضبط تكاليف الطباعة والتوزيع سواء كانت الصحيفة أسبوعية كما أميل أنا الآن، أو حتى لو أصدرناها يوميا .يمكن أن أتحمل ذلك لأنى لا أفكر فى الربح ، بل أتوقع الخسارة . ألم تقل له ذلك يا

يوسف؟

كان يوسف يجلس فى مقعده منحنيا ويتابع حديثنا بانتباه دون أن ينبس بل دون أن يلمس حتى كأس النبيذ الموضوعة أمامه ، وحين سأله الأمير قال :

– فى الحقيقة أنى فضلت أن تعرض سموك عليه المشروع بنفسك لأنك أدرى بأبعاده .

قال الأمير حامد مستنكرا : تعنى أنك لم تعرض عليه أهم شئ وهو أن يسافر فترة للنقاهة لكى يفكر بعدها فى كل هذا ؟ .. ألم أكلفك بذلك ؟

غمغمت بالشكر ولكن الأمير قال :

– أنا لا أجاملك يا أستاذ . إيمانى أن الكتاب ، أقصد الكتاب الحقيقيين ، هم أثمن ما نملكه ، لأنهم هم الذين يشكلون العقل والضمير . هل تظن أننا كنا سنصل إلى هذه الحالة لو لم تكن الأمة معتلة الضمير ؟ .. لهذا أعتقد أن المحافظة على كتابنا من أوجب الواجبات ، ولهذا سمحت لنفسى أن ألح على يوسف منذ خروجك من المستشفى أن تذهب لتريح نفسك تماما فى أى مكان تحبه، وسمحت لنفسى أن أرسل معه مساهمة متواضعة لهذا الغرض ، أعتبرها فى الحقيقة واجبا لا أكثر .

ثم التفت إلى يوسف بنظرة تأنيب قائلا : ما معنى هذا؟ .. أنا فى الواقع فى دهشة لأن الأستاذ مازال هنا حتى الآن ولهذا طلبت أن أراكما . ماذا فعلت يا يوسف فى التكليف الذى طلبته منك ؟

صعد الدم إلى رأسى ونظرت الى يوسف الذى وضع يده فى جيب سترته الداخلى وأخرج ظرفا طويلا وضعه على المنضدة التى تفصل بيننا وبين الأمير وهو يقول : ها هو الشيك الذى أرسلته سموك لم أعطه للاستاذ ولم أصرفه..

ولكنى قاطعته قائلا بشئ من الحدة: أنا شاكر جدا ولكنى لا أقبل .. أقصد أنى لا أحتاج الآن إلى أى سفر أو نقاهة ..

وقال يوسف وهو يشير نحوى :لهذا السبب لم انفذ طلب سموك . لم أعتقد أن الاستاذ سيقبل هذا منى أنا، قلت أيضا إن الأفضل أن تعرض سموك عليه ذلك .

كان الأمير يحدجنى بنظرة فاحصة يكاد يكون فيها نوع من البرود وقد يكور سبحته فى يده ثم التفت يخاطب يوسف وهو يشير الى الطرف الأبيض بإصبعه:

- ضع هذا الشئ فى جيبك أولا ..

واسترد الأمير حامد بسرعة تعبير وجهه السمح والتفت يخاطب يوسف بلهجة ودية : ولكن كيف إذن تريد أن تصبح صحفيا ؟ .. الصحفى يا سيد يوسف يترجم أفكار الناس على حقيقتها، كان يجب أن تقول للأستاذ إن هذه ليست حتى هدية ولكنها مقابل بسيط لتعبه بالاشتراك معنا في التخطيط للصحيفة . حين تسمح حالته الصحية بذلك بالطبع .

قال يوسف بابتسامة صغيرة : أنا مازلت مشروع صحفى يا سمو الأمير :

أردت أن أغير الموضوع فقلت : ولكن هناك فكرة واتتنى اثناء الحديث .. فهمت أن المطلوب صحيفة متميزة عما يصدر هنا فى أوروبا ، أليس كذلك ؟

قال الأمير حامد : بالضبط . لا نريد أن نكرر تجارب صحف لندن وباريس ..

- ولكن يوجد الآن بالفعل حشد من الصحف التى تخاطب العرب فى أوروبا . فما رأى سموك فى صحيفة عربية مطبوعة بالانجليزية أو الفرنسية تنقل وجهة نظرنا هنا ؟ .. ذلك هو ما نحتاج إليه بالفعل . كان هنا منذ وقت قريب زميل قادم من لبنان وجد صعوبة فى أن ينشر مجرد خبر أو بيان ..

قال الأمير : فكرة جيدة جدا ..

ولكن الفتور فى صوته أوحى بأنه يعنى العكس تماما . سكت لحظة قبل أن يحنى رأسه مخاطبا حبات مسبحته من جديد : بالطبع هناك صعوبات .. أولا من أين نأتى بالصحفيين العرب الذين يتقنون الكتابة بلغات أجنبية ؟ .. يمكن بالطبع أن نلجأ إلى الترجمة ولكن فى هذه الحالة هل ستخرج المقالات بقوتها الأصلية ؟ . ومن سيكون جمهور هذه الصحيفة ؟.. ستهم قليلا جدا من العرب هنا ولن تهم أحدا تقريبا من الأوروبيين .. ثم معنى ذلك أنه سيكون لدينا طاقمان من المحررين: عرب وأجانب ، وهذا كثير إلى حد ما .. أقصد من الناحية الاقتصادية ..

قلت صادقا : سموك تلخص الأمور بمنتهى الدقة وتضع يدك على أهم

المشاكل..

لم يبد عليه أى رد فعل ولكنه قال وكأنه مستغرق فى التفكير : ومع ذلك فهى فكرة جيدة جدا كما قلت . سنحتاج فى وقت من الأوقات إلى مخاطبة الجمهور الغربى ، ولكن فلنبدأ أولا بالصحيفة العربية . وعندما تنجح يمكن أن نصدر ملحقا شهريا أو نصف شهرى باللغة الأجنبية .

قال ذلك وهو ينظر فى ساعته فقام يوسف وتبعته ونهض الأمير وهو يقول : سأنتظر منك أن تفكر فى الموضوع ، ولكن ليس على حساب صحتك كما اتفقنا . بعد أن ترتاح تماما ..

- أعدك بذلك ..

فقال وهو يشد على يدى بقوة : أعرف أنك تحترم وعدك . وفى المرة المقبلة سيكون اللقاء فى بيتى هنا ، فأنا لا أرتاح كثيرا فى الفنادق وسيكون بيتى هو بيتك بالطبع .

ثم التفت الى يوسف وقال : وأنت مهمتك أن تتابع الاطمئنان على الاستاذ . ستتصل بك ليندا إن احتجت منك إلى شئ فى الأيام المقبلة . مع السلامة.

★★★

وبينما كنا ننزل من عند الأمير حامد كانت السعادة تطفر من وجه يوسف ، ولم يملك نفسه فقال ونحن فى المصعد : أنت أعطيته درسا يا استاذ ..

- ماذا تقصد؟

ولكنه بدلا من أن يرد قال وتعبير الرضا عن النفس يغمر وجهه : تعرف ؟ ..لو لم أخرج الظرف عندما سألنى عن النقود ، ولو لم يكن متأكدا أن الشيك فى داخله ! .. ولكنى عملت حسابى ! .. ألم أفهمه بعد كل هذا العمر ؟

- أنا شخصيا بكل صراحة لا أفهمه ولا أفهمك!

رحنا نتمشى على شاطئ النهر مقابل الفندق ، وكانت الأشجار المصفوفة هناك تنفض أوراقها بسرعة أكثر من الأشجار فى المدينة فكنا نخطو فوق ذلك

المهاد من الأوراق الصفراء التى تصدر خشخشة خافتة مع وقع أقدامنا وكنت لسبب لا أدريه أرتاح لهذا الصوت كما لو كان يحمل رسالة مبهجة خفية . لماذا ؟ .. لا أدرى ! ولكن كل الأشياء فى تلك الأيام كانت تحمل رسالة وكانت تحمل بهجة.

قلت ليوسف : كنت أخشى أن تضايقنى هذه المقابلة لأنى لا أحب هذه المجاملات الرسمية، ولكن هذا الأمير شخص مختلف . يدعو إلى التفكير .

قاطعنى يوسف بحماس .. ألم أقل لك ؟ .. هو غير الآخرين .صاحٍ ويفهمها وهى طائرة ! .. ولكن مشكلته أنه يعتقد أنه يمكن أن يشترى جميع الناس . يقول إن لكل انسان سعرا . هل تعرف قيمة الشيك الذى تركه لأعطيه لك ؟

- لا أريد أن أعرف .

- مع ذلك فهو عشرون ألف دولار .

أطلقت صفيرا خافتا وقلت : هذا للنقاهة فقط؟ .. اذن كم اساوى فعلا عند الأمير ؟ .. ولماذا ؟ .. ما أهميتى بالنسبة له ؟ ..

قال يوسف متحيرا وكأنه قد فكرأيضا فى المسألة من قبل : بصراحة لا أعرف. بالطبع هذا المبلغ بالنسبة له مثل قرش تعريفة بالنسبة لى . هو يصرف مثله كل يوم وربما أكثر. هل تصدق أن جناح الفندق محجوز له على مدار السنة حتى اثناء سفره ؟ بالاضافة إلى غرف الحراس والموظفين والسكرتيرين والخدم ..

- ولكن ماذا يفعل هنا بالضبط ؟

- عنده كثير من الشركات ، وهو يتاجرفى الخيول العربية وفى البورصة وفى كل شئ. وعنده ايضا شركات فى امريكا وفى بلده وفى كل مكان فى الدنيا ..

- ولكن شخصا مثل هذا يا يوسف ما حاجته إليك أو إلى ؟ يستطيع أن يشير باصبعه فيجد بدل الصحفى مائة ، فلماذا نحن ؟ ..

- سأقول لك..

ولكنه تراجع وقال بلهجة ضارعة تقريبا : ومع ذلك فأنا أرجوك أن تفكر فى

المسألة !.. أقصد أنت يمكن بالفعل أن تقدم له هذا المشروع ، أليس كذلك ؟

– لا توجد مشكلة فى هذا . عملت طول عمرى بالصحافة ويمكن أن أقدم له هذه المشروع فى خلال أيام ، ولكن لماذا ؟ .. هل هو بالفعل حريص على العروبة والقومية كما يقول ؟

أطلق ضحكة متقطعة ساخرة: ها.. ها .. ها .. مؤكد أنك لم تبلع هذاالطعم يا استاذ ؟

قاطعته بشئ من نفاد الصبر :

– إن كنت تعرف شيئا يا يوسف فلماذا لا تقوله فورا ؟

بدأ كلامه بشئ من التردد : صدقنى أن ما أعرفه قليل . أعرف لماذا يريدنى أن أعمل معه ، أو أظن أنى أعرف . السبب أن عندئ اقامة شرعية فى البلد وربما احصل على الجنسية قريبا واستطيع أن استخرج تصريحا للصحيفة باسمى . وثانيا فهو يثق بى لأنى عملت عنده سائقا لفترة وهو يعرفنى تماما . وأعرف أيضا بالتقريب لماذا يريد أن يصدر الصحيفة ..

– هذا هو المهم . لماذا ؟ أدخل فى الموضوع مباشرة يا يوسف .

– الأمير حامد يا سيدى شقيق أصغر لحاكم البلد ، ولكنه يعتقد أنه أحق بأن يكون ولى العهد بدل الشقيق الأكبر ، لأن ولى العهد غير متعلم ويقول البعض إنه هنا أبيض..

قال يوسف العبارة الأخيرة وهو يمسح جبهته بيده ، لم أكن سمعت هذا التعبير من قبل ولكنى فهمت معناه وواصل يوسف كلامه : ومع ذلك فالحاكم يخاف من ولى العهد لأن له انصارا . ويخاف أيضا إن عين الأمير حامد بدله ..

فقاطعته ضاحكا ..

– أن يأخذ الأمير حامد مكان الحاكم نفسه !

– عليك نور يا استاذ . والصحيفة على ما اتصور ستكون سلاحا يحارب به ولى العهد ويضغط به على الحاكم . لهذا اوشكت أن اضحك عندما تكلمت

حضرتك عن الصحيفة الافرنجية وعن نشر مشاكلنا فى أوروبا وهذا الكلام . اعتقد يا سيدى أنه يريد صحيفة قوية بالفعل يتكلم عنها الناس وتكتب فيها أقلام كبيرة ، ولكن ما يهمه من كل هذا هو بلده فى الخليج . عشرة أعداد منها تدخل إلى هناك ولو بالتهريب ، وينتهى الغرض من الصحيفة .

سبقت يوسف خطوة وجلست على أحد المقاعد الخشبية التي تواجه النهر فجاء وجلس الى جوارى وقال لى قلقا حين لاحظ صمتى :

– هل أتعبك المشى ؟

– بالعكس . المشى مفيد فى حالتى كما قال الطبيب . ولكنى افكر فيما قلته ، أنت ذكى يا يوسف وتعرف كل شئ فما سبب اهتمامك بالموضوع ؟ .. هل هى مسألة عمل وكسب لا غير ؟

اندفع يقول بشئ من الحرارة : بالطبع أنت تقول لنفسك سائق ومتشرد وطباخ ما علاقته بالصحافة؟ .. أنا ..

قاطعته : أنا لم أقل ذلك أبداً . كل هذه التجارب ستفيدك حين تكتب، ثم إنك شرحت لى أنك درست الصحافة فى الجامعة.

قال والحزن يغمر صوته : أشكرك لأنك تجاملنى ولكنى فى الواقع لم أكن اتصور أن اقترب من سن الثلاثين وأنا فى هذه الحال . كنت منذ الصغرمتفوقا فى الدراسة وكان أبى فخورا بى وتوقع لى مستقبلا كبيراً. من صغرى عشقت الصحافة . فى المدرسة الثانوية كنت مذيع الاذاعة المدرسية. وكنت ارسل مقالات لكل الصحف والمجلات ظهر بعضها فى بريد القراء . وفى الجامعةكنت طالب امتياز فى السنة الأولى وفى السنة الثانية . كانت مجلة الحائط التى أكتبها من الألف إلى الياء تجتذب الطلبة عندما اعلقها يوم السبت كل اسبوع . حتى طلبة الكليات الأخرى كانوا يأتون لقراءتها ، أسميتها «النديم» وحاولت أن استفيد فيها من اسلوب التنكيت والتبكيت فشعر الطلبة أنها تختلف عن الصحف الأخرى التى كانت تملأ الجامعة أيامها فى سنة ٧٥ و٧٦ . وكان أبى يكتب لى عناوين الموضوعات بالخط الثلث بقلم أحمر ويشاركنى برأيه فى تحرير كل عدد ..

لزم الصمت فجأة وقد شرد بفكره بعيدا وقال بعد فترة وكأنه لا يكلمنى أوحشنى أبى ..

أردت أن أخرجه من الاكتئاب الذى حل به فسألته : وعن أى شئ كنت تكتب فى صحيفتك أيامها ؟

قال والحياة تعود إلى صوته بالتدريج : عن كل شئ يحدث فى البلد . ورثت عن أبى حب عبد الناصر . كان مديرا فى شركة من شركات القطاع العام ولكنه لم يمد يده يوما الى الحرام. وعشنا مستورين حتى بعد خروجه إلى المعاش . كان المعاش يكفينا ويزيد ، اقصد فى البداية .وازددت حبا لعبدالناصر وأنا أرى ما حدث لنا بعد موته . أرى أبى العجوز يتعذب لكى يدبر أمورنا بمبلغ المعاش الذى لم تعد له قيمة بينما اللصوص الجدد يزدهرون فى كل مكان . وكنت اكتب عن ذلك فى صحيفة الحائط كنت اقارن بين حال الانسان البسيط مثل أبى أيام عبد الناصر وما اصبح عليه فى عهد الانفتاح ، رشحت نفسى أيضا لاتحاد الطلبة وفزت ، وشاركت فى كل الاضرابات والاعتصامات التى حدثت ايامها .. ولكن جاءت بعد ذلك جماعات اصحاب الجلابيب التى اطلقتها علينا الحكومة فكانوا يمزقون صحفنا كلما علقناها ، وإن قاومنا كانوا يضربوننا بقبضات حديدية يشبكونها فى اصابعهم امام أعين حرس الجامعة الذى كان يحرسهم وحدهم .

قلت متنهدا : اذن ما قاله ابراهيم المحلاوى صحيح .. أنت حالك من حالنا .

قال يوسف بنبرته الحزينة : لا . غير صحيح . نحن قرأنا لكم وتعلمنا منكم ونحن صغار . ولكن لما وقعت الفأس فى الراس وبحثنا عنكم لم نجدكم .

أوجعتنى كلمته فقلت بلهجة الدفاع عن النفس : ماذا كنا نستطيع أن نفعل ؟ .. فى تلك الأيام بالذات التى تتكلم عنها كتبت أنا كتابا عن عبد الناصر ..

ثم وقفت وأنا اكمل : وعلى أى حال فأنا بدأت اشعر بالبرد . وثانيا فقد عاهدت نفسى منذ فترة ألا ادخل فى أى مناقشات وبالذات فى السياسة .

هب يوسف ورائى قائلا : أنا آسف . لم يكن فى نيتى أبدا أن أضايقك . كل ما أردته هو أن أشرح لك لماذا يهمنى موضوع هذه الصحيفة التى يريد الأمير أن

يصدرها أنا لم اتعذب وأتغرب لكى انتهى طباخا ..

وكنا نرجع فى اتجاه الفندق حيث ركنت سيارتى عندما قال فجأة بصوت خفيض :

- أريد يا أستاذ أن أخلص من هذه المرأة !

لم أعلق بشئ . وتغيرت نبرة يوسف وكأنه يريد أن يصحح نفسه فقال :

- أرجوك أن تفهمنى ، أنا لست قليل الاصل،لست مثل الأجانب الذين يتزوجون بنات البلد للحصول على الإقامة ثم يطلقونهن بعد ذلك .. إيلين بنت حلال فعلا .. أقصد .. هل تفهمنى ؟ أريد ..

ولكنه انفجر مرة أخرى : اريد أن أخلص من هذه المرأة !

- سأرى يا يوسف ما يمكن أن أفعله ..

غيرأنى لم أكن افكر وقتها فى حديثه عن ايلين . كانت وخزة لومه لى تجب كل شئ آخر .

★★★

لم يكن عندى موعد مع بريجيت فى هذا المساء ، وقررت أن اكلمها لنلتقى . ولكن عندما وضعت المفتاح فى باب الشقة سمعت صوت أم كلثوم يأتى من المسجل فعرفت أنها جاءت من تلقاء نفسها وخفق قلبى بالفرح . كانت عندى شرائط كثيرة للموسيقى العربية والموسيقى الكلاسيكية غير أنها من كل الشرائط التى عندى لم تعشق سوى صوت الست .

وبمجرد أن دخلت اندفعت بريجيت نحوى فاحتضنتها بقوة . الأصح أنى تشبثت بها وكأنى أريد أن أحتمى .

وشعرت هى بشئ غير عادى فتراجعت الى الخلف وراحت تتأملنى ثم قالت بلهجة تهديد وهى تلوح باصبعها امام وجهى :

- حدث شئ هذا المساء . هل ارتكبت خيانة ؟ .. هل تستحق العقاب ؟ ..

كانت تلبس زى العمل، خلعت السترة وبقيت بالبلوزة الخفيفة البيضاء «والجونلة» القصيرة، وقد حلت ضفيرتها وتركتها تنسدل على كتفها اليمنى، ووقفت تواجهنى مبتسمة وهى تسدد إصبعها نحوى. فأمسكت يدها الممدودة وقبلت تلك اليد وأنا أقودها نحو الكنبة الصغيرة فى غرفة المعيشة . كان مزاجها رائقا هذه الليلة . وأدركت السبب حين رأيت زجاجة النبيذ المفتوحة على المائدة والكمية الناقصة منها .

وحكيت لبريجيت ما حدث فى مقابلة الأمير فقالت متظاهرة بالأسف الشديد وهى تضربنى بقبضتها فى كتفى :

- ولماذا لم تأخذ هذه النقود أيها الساذج؟.. هؤلاء ناس يقذفون بالنقود من النافذة فعلا . لو كنت أقف أنا تحت النافذة وألقى شخص فوقى عشرين ألف دولار وقال خذيها . هى لك . فهل تتوقع أن أقول لا؟ .. بالطبع سآخذها فورا وأصحبك معى فى رحلة حول العالم ...

- مهما كان الثمن ؟

ولكن الرجل لم يطلب ثمنا كما قلت . يريدك أن ترتاح . يحبك لأنك أنت . ولكن ليس كما أحبك أنا ..

ضغطت على يدها وأنا أقول : لو أصدق أن هذا صحيح!

سحبت يدها من يدى فى عنف وقالت فى غضب : ولماذا أكذب عليك ياصاحب السمو لو سمحت ؟.. سأعيد لك اليخت الذى أهديته لى فى الأسبوع الماضى ..

ولكنها انزلقت فجأة من جانبى وركعت على ركبتيها تحت الكنبة وهى تواجهنى

ووضعت يدها على صدرى وهى تقول : متى ننتهى من هذه الشكوك ومن هذه القصص؟.. متى تصدق فعلا أنى أحبك لأنك أنت ؟.. سئمت القلوب الغبية والقلوب الجشعة والقلوب الأنانية . متى تصدق أنى قضيت عمرى أبحث عن هذا القلب؟..

قالت ذلك ثم قبلتنى برفق فى صدرى فانحنيت أرفعها نحوى وأنا أقول : ولكنك تعرفين أيضا أن هذا القلب كان فى طريقه إلى أن يموت قبل أن يلقاك .

✳ فهزت رأسها وقالت : لم أكن سأسامحك لو تركتنى!.. هل تصدقنى؟.. أنا الآن أتعرف على بريجيت الأولى . أكتشفها وكأنى ألتقى بصديق قديم .

ثم قامت فجأة وصفقت بيديها وقالت : هيا، انتهينا الآن من هذه الحكاية . انتهينا منها إلى الأبد ، لن ترجع هذه الشكوك ولن يبقى غير أنت وأنا معا إلى الأبد . والآن فورا إلى الشعر مع صوت هذه السيدة الجميل..

وتوجهت بريجيت إلى رفوف الكتب الموضوعة فى الصالة وسحبت ديوان المتنبى الذى تميزه بغلافه السميك الأصفر وتعرف أنى أحب أن أقرأ فيه كثيرا - ثم فتحت الديوان وراحت تحرك رأسها بسرعة لليمين واليسار وهى تجيل عينيها فى الصفحة المفتوحة وتقول بالعربية كل الكلمات التى تعلمتها منى وكأنها تقرأ شعرا :

السلام عليكم..إزيك.. فين نضارة.. إنت جميلة جدا.. الشاى.. أهلا ..أهلا..

ودفعت الديوان نحوى بعد أن انتهت وهى تقول : هيا .. إقرأ تلك القصيدة التى يوجد فيها البحر تحت شمس ساطعة .. التى تلمس فيها الأمواج الهادئة الشط وتنحسر برفق بينما تجلس النساء فوق الرمال يغزلن شباك الصيد، والأطفال يساعدون أمهاتهم ، وفوق الصخرة يقف صبى يضع يده فوق رأسه ويتأمل البحر الأزرق ، وحين يرى أول القوارب فى الأفق يصيح بأعلى صوته فتترك الأمهات الشباك والغزل .. ويجرين حتى تلمس أقدامهن الحافية الماء وتبتل ثيابهن وهن يلوحن ويتهللن، ويحيى الأطفال عيدا على الشاطىء .. هيا، تلك القصيدة التى قرأتها لى بالأمس .

ضحكت وأنا أقول لها: لايوجد فى هذه القصيدة شىء مما تقولين . لايوجد فيها بحر على الإطلاق ولم يكتب هذا الشاعر شيئا من البحر . لو عرفت معناها ...

لكنها تركت الكأس التى كانت تشرب منها على المنضدة ووضعت يديها فوق أذنيها وهى تقول : ها أنت قد أفسدت كل شىء!.. أبعدت عن سمعى صوت الأمواج .. ثم دفعت الديوان فى يدى وهى تقول : هيا .. إقرأ .

فتحت الديوان كيفما اتفق وبدأت أقرأ من الصفحة التى صادفتنى :

إلى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس عن طلب المعالى
ببيع الشعر فى سوق الكساد
وما ماضى الشباب بمسترد
ولا يوم يمر بمستعاد ...

أغلقت الديوان وأنا أقول :

- لا أشعر الليلة بالرغبة فى الشعر .

أنزلت يديها إلى جانبها فى يأس فسحبتها وأجلستها إلى جانبى . كانت أم كلثوم قد انتهت وقتها من ليالى القمر وساد الشقة صمت . وظلت بريجيت تميل برأسها على كتفى فترة ولكنها رفعت نحوى عينين زرقاوين قلقتين وقالت :

- صارحنى بالحقيقة . حدث الليلة شىء غير مقابلة الأمير . ما هو ؟.. لماذا لا أشعر الآن أنك معى كما كنت بالأمس ؟

حكيت لها مادار بينى وبين يوسف . قلت لها إننى تحدثت معه عن أحوال البلد وإنه قال إننى خذلته . قال إنه حين بحث عنى لم يجدنى . ظلت بريجيت تتطلع نحوى لحظة دون فهم ثم قالت :

- ولكن ما أهمية ذلك .. ما أهمية أى شىء؟.. ألم نتفق على ألا يهزمنا العالم

مرة أخرى؟ .. ألم نتفق حالا على ألا يكون فى الدنيا سوى أنت وأنا؟..

مدت يدها وهى تقول ذلك ثم رفعت ذراعى ووضعتها حول كتفيها فمددت يدى الأخرى وضممتها إلىّ بقوة وأنا أقول لنفسى نعم، يجب ألا يكون سوى هى وأنا . يجب ألا تهزمنا الدنيا مرة أخرى وكانت هى تكمل بصوت خافت ووجهها فى صدرى : نعم، هكذا .. هذا يدفئنى .. هذا يحمينى . لم أعرف أبداً هذا السلام وهذه السكينة .. إلمسنى ، هل تشعر كيف تغيرت بريجيت؟.. هل تشعر بها الآن امرأة تولد من جديد فى سلام الحب؟..

وكنت تدفعين يدى فى صدرك، وتقولين بصوت خافت ، صوت طفولى ، ولكنه صوت متقطع مبهور الأنفاس – بريجيت ياسيدى .. لم تعرف أبدا مثل هذا السلام فى الحب .. فدعها ياسيدى تستمتع بهذا السلام .. دعها تستمتع به إلى الأبد ..

وكنت أدور حول وجهك كله بشفتى ، أدور حول جسمك كله بشفتى ، ولم أقل لك إن هذا العجوز أيضا لم يولد فى الحب إلا معكْ .

وكانت تلك بالفعل ليلة سلام .

ولكنى عرفت الليالى الأخرى ..

فى أيامنا الأولى الدافئة المشمسة تعودت أن أعبر تلك الليالى ، أن أتجاوزها لأن ليالى حبنا الخالص كانت تغمرها بالنسيان وتمحوها .

غير أنى منذ البدء عرفت وجهك الآخر . حين تجلسين تحت الكنبة ، تضمين ركبتيك إلى صدرك بيديك وأنت تحدقين شاردة فى الفراغ، على وجهك ذلك القناع الذى تختفى وراءه بريجيت .. حين لا يجدى أى حديث إليك ولا أى توسل ولا أى اقتراب فى أن يردك إلى دنيانا .. حين تدفعيننى فى صدرى لكى أبعد عنك ولكى أتركك لشأنك الذى لا أعرفه وأنت مقرفصة هناك فى الأرض ، تتشبثين بنفسك فى تشنج كأنك تريدين أن تدفعى جسمك كله داخل جلدك مرة أخرى ..

تعلمت بالفعل أن أتركك فى تلك الأوقات وأن أنتظر، تعلمت ألا أحاول أن أكلمك أو ألمسك ، إلى أن تعودى أنت نفسك بالتدريج، تتلاشى تلك النظرة الزجاجية فى

العينين وتسترد زرقة الحدقتين التماعها الأسر ، قبل أن تسأليني بلهجتك العادية، في نوع من الدهشة لم لا تأتى إلى هنا جانبى؟

وعرفت أيضا ليالى الجنون..

حين تقفزين من الفراش فجأة عارية بعد أن تتمتمى بعبارات بالألمانية وتقفى فى صالة بيتك ، تنزعين من رفوف مكتبك ديوانا من الشعر الألمانى وتقلبين صفحاته بسرعة بحثا عن تلك القصيدة التى استدعتك فى قلب الليل، وتبدئين القراءة بصوت عال، يتدرج فى الارتفاع شيئا فشيئا، كما لو كنت فى صحراء خالية ، فألاحقك واضعا يدى على فمك . وأنت تتملصين وتلكزينني بكوعك لتخلصى نفسك . وتزومين تريدين أن تكملى ذلك الإنشاد المجنون ، لا يردك أن تسمعى طرقات الجيران الساخطة على الجدران ، ولا تذكيرى لك بأنهم يمكن أن يستدعوا الشرطة لهذا الضجيج فى الليل - تسبيننى وتسبين الشرطة والجيران بصوت مختنق ، ولا تهدئين إلا حين أعرضْ عليك أن نخرج ، وأن تنشدى هذا الشعر على شاطيء النهر ، ترتدين وقتها ثيابك فى لهفة محمومة ، وتستعجليننى أن نخرج . ولكن ما إن نخطو خارج البيت حتى تسأليني وأنت ترتجفين : ما السبب فى أنا خرجنا في هذا البرد؟

ولكنى تعلمت أن هذه اللحظات هى جزء منك، وتعلمت بعد قليل أن أحبها لأنها، هى أيضا ، أنت .

★ ★ ★

على أنى لم أنس الأمير حامد فى تلك الأيام ..

وكنت أسأل نفسى فى دهشة هل مازلت بالفعل صحفيا له حاسة الصحفى؟.. بعد كل السنين التى مارست فيها البطالة فى هذه المدينة الأوروبية أنقل الأخبار الرديئة لصحيفة رديئة؟.. ما الذى أزال عن نفسى فجأة ذلك الصدأ رغم تحذير الطبيب وتحذير بريجيت بألا أرفع السلاح مرة أخرى فى وجه العالم الذىهزمنا؟..

شيء أقوى منى كان يدفعني أيامها لأن أكون الصحفي الذي مات من قبل ودفنته . شيء يدفعني إلى أن أبحث وإلى أن أعرف . ولم يكن أمامي سوى أن أطيع .

وبعد أسبوع تقريبا من مقابلة الأمير . توجهت في الصباح إلى مقهى إيلين.

قابلتني بابتسامتها المهنية المرحبة . وقادتني إلى ركن بعيد في المقهى وهي تثرثر : ألم أقل لك؟.. ألم أبشرك ياسيدى بأننا سنقف على قدمينا بأسرع مما نتصور؟ وها نحن أفضل مما كنا من قبل! ولكن هل تعرف شيئا؟.. ربما كان من الأفضل أن نكف عن هذه القهوة الطبية أيضا . قرأت أنها ليست .. ليست مفيدة جدا . العصير أفضل .

وراحت تتكلم دون انقطاع وكنت أغمغم بالموافقة على ما تقول وأنا أقاطعها عند كل فرصة تسكت فيها بالسؤال عن يوسف . لكنها فاجأتنى بعد أن جلست بأن سحبت هي أيضا مقعدا واستقرت في مواجهتي .

ظلت تتطلع نحوى لحظة وهي تشبك يديها أمامها على المنضدة ، وكانت ابتسامتها التقليدية تشحب تدريجيا ، ثم قالت :

– كنت أنتظرك يا سيدى . في الواقع كنت سأتصل بك لو لم تأت اليوم .

تغيرت طبقة صوتها وهي تقول ذلك . اختفت نبرة الثرثرة مع زبون المقهى وأطلت من عينيها نظرة جادة ، توشك أن تكون حزينة وهي تتطلع إليّ.

قلت في قلق : ولكن لماذا؟.. هل حدث شيء؟.. يوسف بخير على ما أرجو..

– نعم .. نعم ، بالتأكيد . أما أنا فلست بخير .

سكتت قليلا وأحنت رأسها كأنها تفكر كيف تبدأ الكلام ولكنها فجأة رفعت نحوى عينين ضارعتين وقالت :

– أرجوك أن تترك لي يوسف !

– أتركه كيف؟.. أنا لم أره من مدة ياسيدتي ولم أحاول أبدا ..

قاطعتنى : أعرف !.. أعرف أنك لم تحاول أبدا أن تأخذه ولكنه هو الذى يحاول أن يذهب معك ..

– ولا حتى هذا .. صدقينى .

كان جفناها يرتجفان بسرعة وقالت بصوت متحشرج إلى حد ما :

– إذن فهو يحاول أن يرجع إلى الأمير . يريد أن يعمل صحفيا ويريدك أن تساعده ، أليس كذلك ؟

لم أرد . فقالت وهى تنظر فى وجهى مباشرة : أعرف كل شىء ياسيدى . وأعرف جيدا ما الذى يريده يوسف ، ولو كان معى مال كاف لأصدرت له صحيفة يعمل فيها كما يشاء ...

وحاولت أن تبتسم وهى تقول ذلك وتعبث بالمنضدة بأصابع مرتعشة ، ولم يفلح هذا فى منع غشاوة الدمع التى تكونت فى عينيها . أردت أن أتكلم ولكنها مدت يدها كأنها ترجونى أن أنتظر وهى تقول مغالبة بإرادتها البكاء : لن أستطيع أن أبقى معك طويلا . وقد يخرج يوسف من المطبخ فى أى لحظة .. لهذا أرجوك أن تسمعنى . أنا أحب يوسف .

– هذا طبيعى .

فى هذه المرة أطلقت ضحكة خافتة وهى تقول لا .. لا

ثم أكملت بعد فترة وهى تحول وجهها قليلا عنى :

– لا. ليس طبيعيا وأنا أعرف . هو كان يمكن أن يكون ابنى وأنا أعرف ، هو أوشك أن ينهى الجامعة وأنا جاهلة وأنا أعرف . لكنى أحبه وهو قد رضى بى .. لاتسألنى لماذا رضى. هل قبلنى لأنه كان يبحث عن العمل وعن الاستقرار؟. ربما . كان يمر بفترة صعبة بعد أن سافر الأمير فى السنة الماضية ولم يكن عنده تصريح للعمل . ولكن جاء قبله كثيرون عملوا عندى . شبان أصغر منه . أكثر وسامة منه . غير أنى لم أفكر فى أى رجل منذ مات زوجى الأول ..

توقفت عن الكلام لحظة ثم أكملت فى تردد : مع يوسف .. كان هناك شىء..

ثم احتبس صوتها مرة أخرى فقلت :

– سيدتى ، الإنسان لا يقرر أن يحب . الإنسان يحب هذا هو كل ما فى الأمر. لاداعى لأن تشرحى لى شيئا ولا أن تبررى شيئا . أنا أصدقك وأفهمك . لا يوجد من يمكن أن يفهمك أكثر منى ..

– إذن فأنت تفهم أيضا خوفى ؟

– بالتأكيد أفهمه .

أبعدت وجهها عنى مرة أخرى وهى تقول بصوت خافت : معذرة، ولكنى لا أعتقد أنك تفهمه تماما . أنا أعرف أن يوسف سيتركنى . بعد حين لابد أن يتركنى. أنا الآن فى الخمسين من عمرى . أعمل كل ما استطيع لكى أظل فى نظره امرأة وزوجة . ولكن كم يمكن أن يستمر ذلك فى رأيك؟ كم يمكن أن يستمر وهو بمثل هذا الشباب وأنا أشيخ كل يوم ؟ سنة؟.. سنتين؟.. أكثر من ذلك قليلا أو أقل منه؟ ليكن ياسيدى . أنا أقبل . أعرف أنها سعادتى الأخيرة ، فأرجوك، أن تتركها تستمر، سيذهب يوسف ذات يوم ، ولكن دع هذا اليوم يبطىء. لا تتعجله. أعرف أنه إن عمل بالصحافة .. إن ترك هذا المقهى مرة، فسيتركه إلى الأبد .. عندما ينبت جناحاه سيطير بلا عودة ، فهل هى أنانية منى أن أريده أن يبقى فى الأرض .. أن يبقى معى؟ .. ربما ..

حل بى حزن عقد لسانى وأنا أنظر إلى وجهها المعذب . هل تتكلم عن نفسها الآن أم عنى؟.. هل أبوح لها أيضا بخوفى من أن يأتى سريعا ذلك اليوم ؟..

كانت تكرر فى ضراعة بما يشبه الهمس وهى تقول : أرجوك ياسيدى .. افعل ما تستطيع .

وابتعدت ولا أدرى ما الذى قلته لها ولكنى كنت مستغرقا فى التفكير حين جاء يوسف أخيرا وصافحنى بحرارة بيده الرطبة وهو يقول :

– مرحبا بالأستاذ . لم أتوقع أن تأتى بهذه السرعة . جلس قبالتى فى المكان الذى كانت تحتله إيلين . وكان قد نسى فى هذه المرة أن يخلع «مريلة» المطبخ

البيضاء ، وسألنى بمجرد جلوسه متوفزا ومتحمساً :

- خيرا إن شاء الله؟ انتهيت من المشروع ؟..

لم أرد عليه فورا . تداخل فى ذهنى ما جئت من أجله وما كانت إيلين تحدثنى عنه منذ قليل ، وانتبه يوسف إلى شرودى فسألنى : الأستاذ متعب؟

- قليلا ، ولكن هذا لا يهم . أردت أن أسألك يايوسف وأرجوك أن تكون صريحا معى ، هل قلت لى كل ما تعرفه عن الأمير حامد ؟

وضع يوسف يده على صدره وقال وفى عينيه نظرة عاتبة : أقسم لك بحياة أبى إنى لم أخف عنك أى شىء مهم أعرفه . ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟

- سأخبرك حالا . فى الواقع إننى دهشت قليلا من إصرار الأمير على أن نتعاون معه أنت وأنا . بصراحة نحن لسنا نجمين فى عالم الصحافة ، وكما قلت لك فهو يستطيع بماله أن يستأجر من يشاء من الكبار ..

- العفو ياأستاذ ، اسمك ...

قاطعت يوسف بإشارة باترة : اسمى لم يعد يعرفه أحد . لا أعيش فى الوهم ولا الكذب . ربما كان البعض يعرفوننى منذ عشرين عاما أو أكثر ، ولكنى الآن لست ورقة رابحة فى لعبة الصحافة .

قال يوسف فى تردد : ولكن هذه بالفعل فرصة لكى يعود قلمك إلى الظهور ، وأنت تستحق هذا وأكثر منه ..

ابتسمت قائلا : بالضبط يايوسف . لابد أن يكون الأمير قد فكر بهذه الطريقة. ها هى فرصة لشخص ضائع لن يتردد فى قبولها .. ولكن دعنا من هذا الآن . أريد أن أسألك أيضا هل تعرف اسحاق دافيديان؟

قال بلهجة ساخرة : بالطبع ، من لا يعرفه؟.. هو «بلدياتنا» ومن أكبر المليونيرات هنا. هاجر من مصر سنة ٥٦ وأخذ جنسية البلد ، وهو يملك الآن نصف العمارات فى المدينة ..

ثم قال بعد سكتة وهو يضحك : مشيت فى مظاهرة ضده .

- مظاهرة ضد دافيديان ؟.. لماذا ؟

- خرج أهالي الحى هنا فى مظاهرة لأنه يشترى البيوت القديمة الرخيصة الإيجار ثم يهدمها لكى يبنى محلها عمارات ضخمة فاخرة، إيجاراتها ضعف دخل السكان الذين شردهم . فأين يسكن هؤلاء ، فى الشارع ؟

- لم أكن أعرف هذه الحكاية . وإلى أى شىء انتهت المظاهرة؟

هز كتفيه قائلا : كما تنتهى كل مظاهرة . رفعنا لافتات ضد دافيديان وذهبنا إلى عمدة الحى وسلمناه عريضة ، أما هو فاستمر فى شراء العمارات القديمة وهدمها .. المتظاهرون يا أستاذ معهم حناجرهم وهو معه المال ومعه القانون ، فما الذى يمكن أن تفعله مظاهرة؟

- معك حق . ولكن هل سمعت أو قرأت أنه تبرع بمائة ألف دولار بعد حرب لبنان لجيش إسرائيل؟.. هل كنت تعرف ذلك؟

- لم أسمع بهذا ولكنه لا يدهشنى. هو من رجالهم المعروفين هنا . يكتب لكل الصحف دفاعا عنهم ، وينظم ندوات ، ويستضيف الوفود التى تأتى من هناك و...

ثم توقف لحظة قبل أن يقول فى دهشة: ولكن ما الداعى إلى كل هذه الأسئلة؟.. ما علاقة دافيديان بما نحن فيه؟

- هل تعرف فيم يتاجر دافيديان إلى جانب العقارات ؟

- فى كل شىء تقريبا . فى الفنادق والبنوك والبورصة وكل شىء ..

نظرت إلى عينيه وأنا أقول :

- ألا تعرف أيضا أنه أكبر تاجر للخيول العربية فى أوروبا؟.. كنت أنت الذى نبهتنى حين تحدثت عن تجارة الأمير حامد فى الخيول . فى الواقع يا يوسف إن أميرك هو أكبر شريك لدافيديان .

تطلع نحوى مبهوتا وخرج منه السؤال كصرخة : الأمير حامد؟ لا !

فقلت مؤكدا : نعم .

قال ومازالت نبرة عدم التصديق فى صوته : ربما كنت مخطئا .. الأمير رجل قومى أنت سمعته بنفسك يتحدث . كيف؟ له أصدقاء من كل الأحزاب العربية ، بل ومن منظمة التحرير نفسها !..

– اسمع يايوسف . من أسبوع وأنا لا أفعل شيئا غير البحث فى موضوع الأمير . اتصلت بكل من أعرف هنا ، حتى بالعاملين فى السفارات العربية الذين أحاول طوال الوقت أن أتجنبهم، وذهبت إلى البورصة ، وتحدثت مع محررى الاقتصاد فى الصحف ، ومع تجار الخيول وحتى مع محررى أبواب سباق الخيل!.. لو كانت عندى ذرة من الشك لما تحدثت إليك .

ظل صامتا فترة ثم قال : ولكن لماذا يفعل هذا؟.. عنده مال قارون ..

– هذا سؤال آخر لا أعرف جوابه . ولا أعرف أيضا لماذا يريد هذه الصحيفة الملعونة ولا لماذا يريدنا معه . كل ما أعرفه أننى لم أطمئن إليه من أول لقاء .

عبارة قالها عن عبد الناصر وعن الأمريكان أيقظت فى نفسى شيئا، وما عرفته عنه بعد ذلك أكد حدسى . ربما كان يريد الصحيفة بالفعل بسبب طموحه للحكم ورغبته فى أن يحارب ولى العهد .. وربما تكون المسألة أكبر من ذلك لا تعرفها أنت ولا أعرفها أنا . هو على أى حال ذكى جدا وغنى جدا وطموح جدا . ومقتنع إلى أبعد حد . أمثاله لا يغيبون عن أعين الكبار الذين يخططون ..

ولكننى أمسكت لسانى ولم أكمل ما كنت أفكر فيه وقلت بدلا من ذلك :

– هو باختصار يريدنا خاتمين فى إصبعه لكى يفعل شيئا لا نعرفه .

ولم يكن يوسف يتابعنى وقتها كان يتمتم :

– الأمير شريك دافيديان .. إذن لو عملنا مع الأمير فكأننا نعمل مع دفيديان .. ودافيديان دفع التبرع لإسرائيل .

ثم ضحك بمرارة وهو يقول : أنت سددتها فى وشى ياأستاذ !

– كيف لا سمح الله ؟

فقال دون أن يحول وجهه نحوى وكأنه يكلم نفسه : ماذا أفعل الآن؟ .. أبقى

هنا وأعيش طباخا وأموت طباخا أو قهوجيا؟ أرجع إلى البلد لأعيش عاطلا؟ هنا على الأقل أرسل مبلغا لأبى فى كل شهر . أهج فى دنيا الله؟ .. أين؟.. وهل سيختلف الحال فى أى مكان؟ .. ماذا أفعل؟

قلت وكأنى أدافع عن نفسى : اسمع يايوسف أنا لم أطلب منك أى شىء. كل مافى الأمر أنك ألححت أن أضع مشروع هذه الصحيفة والآن أريدك أن تعرف لماذا لا أستطيع ذلك .

ثم أكملت وقد تذكرت شيئا : على أى حال لى عندك طلب وحيد . أنا لا أعرف كما قلت لك إن كان الأمير يعمل بمفرده أم أن وراءه أجهزة . وكل ما أطلبه منك أن يبقى هذا الكلام بيننا ..

وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : لا أريد أن تصدمنى سيارة فى الطريق أو أن يطعننى مجهول بسكين وأنا عائد إلى بيتى فى الليل ..

قال بطريقة آلية : لا سمح الله !

فأكملت : أنا أمزح بالطبع ، ولكنى أقصد أننى أفضل أن يبقى هذا الكلام بيننا ، وبعد ذلك فأنت حر . يمكن أن تواصل العمل مع الأمير لو شئت .

أطلق ضحكة من مقطع واحد كأنها زفرة: تظاهرت ضد السادات وحكم علىّ بالسجن وهربت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يفرط فى مستقبل البلد وضاع مستقبلى أنا الفقير فى المبادىء ، بينما الكبار والأغنياء .. أهلا يا مبادىء!

قال ذلك وأراد أن يقوم وفى وجهه هم وانكسار فأمسكت معصمه ليظل جالسا وقلت : لماذا تيأس بسرعة؟.. لم تنته الدنيا لأنك لن تعمل فى صحيفة الأمير . اكتب إن كنت تريد وحاول أن تنشر ما تكتبه فى الصحف التى تصدر هنا أو أرسلها أيضا إلى صحف البلاد العربية .. لا يعجبك أن تكون طباخا أبحث عن عمل آخر وحاول أنت أيضا أن تكون غنيا وأن تكون قويا ..

شعرت وأنا أتكلم بأننى غير مقتنع على الإطلاق ولكننى أكملت مع ذلك : أرجوك

يايوسف . لا تجعل الدنيا تهزمك كما هزمتنى .

لم يعلق بشىء على كلماتى التى كانت تخرج متدافعة ولكنه تمتم بعبارات شكر تقليدية وهو ينصرف بخطى سريعة ناحية المطبخ، وتطلعت إيلين ناحيتى من أقصى المقهى بنظرة مستفهمة فحولت بصرى .

خرجت من المقهى مسرعا وأنا ألوح بالتحية لإيلين عن بعد .

كان هناك متسع من الوقت قبل أن ألتقى ببريجيت فى مقهانا فى الظهيرة . قررت أن أذهب إلى البيت وأن أرتاح هناك قليلا قبل الموعد ولكننى بدلا من ذلك قدت السيارة حتى شاطىء النهر وركنتها إلى جوار المقهى ثم رحت أتجول فى الشوارع الهادئة القريبة من النهر . كان الجو باردا والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالمطر ولكنى لم أهتم .

اعتقدت أنى سأنتهى من الموضوع كله!.. أحكى ليوسف ما عرفته ثم أنفض يدى من حكاية الصحيفة ومن الأمير ..أفرغ مرة أخرى للفرح الذى عاهدت نفسى ألا أعرف غيره، فلماذا لم يكن هذا هو ماحدث ؟

ليكن . أنا بالفعل أخطأت . لم يكن من شأنى أن أتدخل فى حياة يوسف ولا فى حياة إيلين ولا أن أشغل نفسى بهذا الأمر . كان يجب منذ البدء أن أعتذر ليوسف بأن صحتى تمنعنى من العمل ثم ينتهى الأمر . ما أهمية ذلك التنقيب الذى انغمست فيه؟ .. أى كسب حققته حين عرفت من هو؟ .. لن تنقذ أنت لبنان من دافيديان ولن تحارب إسرائيل باكتشافاتك . اتفقنا منذ زمن طويل أنك لست مهما فما الداعى الآن لهذه الألاعيب؟.. لن تنقذ حتى يوسف . ارتاع المسكين مثلما ارتعت انت حين عرفت الحقيقة . لم تكن تتصور حين بدأت أنك ستصل إلى هذه النهاية . كنت تريد فقط أن تعرف من هو هذا الأمير حامد ، فإذا كل الخيوط تقودك إلى دافيديان . صحيفة قومية وتقدمية حقا!.. حسبها سموه بدقة شديدة: أطعمه أولا بوهم المبادىء . أعطه الأمل فى أن يرجع صحفيا بالفعل بعد أن أصبح نكرة. دوخه أيضا بأموال لا يحلم بها . برحلات وبدولارات وبمشروعات لا آخر لها .

ثم فى النهاية ضعه خاتما فى أصبعك وحركه كما تريد . مهما كان الثمن فسيتكلف أقل من غيره وسيكون أكثر طاعة . ولكن لماذا ؟.. ما الذى يريده منى بالفعل ؟ .. لماذا أنا ؟..

قادتنى قدماى دون أن أدرى إلى حديقتى السرية الصغيرة، ولم يكن فيها أحد.. جلست مجهدا على أقرب مقعد . كانت الأشجار قد اكتست كلها باللون الأصفر الذى فقد بريقه ونفضت على الأرض أوراقا تغطيها طبقة بنية بلون الصدأ . شعرت بالبرد بعد قليل فقمت وأخذت أمشى بسرعة فى ممرات الحديقة القصيرة المتقاطعة التى تعود دائما إلى نقطة البدء. إهدأ!.. إنس هذا الأمير فى النهاية . ألم تعاهد بريجيت ونفسك أن تتجنب هذه الدنيا؟.. ولكن هذا هو ما نفذته بالفعل . انسحبت داخل جلدى وحاولت أن أنسى كل شىء . حتى مكالماتى مع خالد وهنادى أصبحت شيئا عابرا فى حياتى ، أحرص على ألا تطول . كنت أهرب من كل ما يذكرنى بالصراعات القديمة وبنفسى القديمة . قبلت أيضا أنى أب مهزوم يجب ألا يحارب لكى يسترد ما فقده بالفعل. فلم هذه الحيرة الآن؟ لماذا كان يجب أن يظهر هذا الأمير؟.. هل أصارع - أنا أيضا - خيلا من فوارسها الدهر؟.. من فوارسها الأمير حامد ودافيديان ؟.. - خيلا عربية حقا !

ولكن كفى!.. قلنا إن الحكاية انتهت فلنرجع كأنها لم تكن . فليذهب الأمير ودافيديان إلى أى داهية . فليذهبا إلى النسيان وهذا هو الأهم . فكر فقط فى الفرح الوحيد الذى يمكن أن تفوز به من هذه الدنيا .

قالت إيلين : لا تتعجل نهايته !.. فلا تتعجل النهــاية . لا تفكر حتى فى أن نهاية ستأتى . بريجيت هناك . من لحم ودم . ليست وهما وليست خدعة . نعم .. نعم..

كنت أفر من الحديقة ، أوشك أن أعدو وأنا فى طريقى إلى المقهى .

ووقفت لحظة ألهث حين رأيت ذلك المبنى البيضاوى الداخل فى النهر . أشعر أن دموعا تريد أن تطفر من عينى .

أية نعمة أن مقهانا مازال قائما هناك!

أية نعمة أنه سيحتوينا معا !

أية نعمة أن أراها هناك ، آتية من آخر الطريق ، تخطو بسرعة كعادتها ، تطأ الأرض بخفة كعادتها ، لا تمشى ، بل تطفو فوق أثير لا يرى . وأنا معك ، أهجر أيضا هذه الأرض الطافحة بشرورها ، لألحق بك ، يرتفع بى حبك إلى هذا الأثير ، إلى تلك البراءة لنهرب معا إلى السكينة ، ولنصنع معا هذا الفرح .

الفصـــــل التاسع

هــــذا الكــــهف

كانت تلبس معطفا واقيا من المطر. وجهها يخفى قلقا لايغيب عنى.

إلى جوار نافذتنا المعتادة ساعدتها على خلع معطفها ولم يكن تحته الزى الأزرق. كانت تلبس بلوزة بيضاء فوقها «جيرسى» أزرق بلون عينيها وقد رفعت شعرها خلف رأسها وعقصته كيفما اتفق فتناثرت منه خصل ذهبية صغيرة حول وجهها الذى بدا أقل استدارة.

سألتها ونحن نجلس متقابلين: ألم تذهبى إلى العمل؟

أشارت بيدها إلى الغيوم فى السماء: رحلة سياحية فى هذا الجو؟ اتصل بى المكتب فى الصباح ليقول إنه لاتوجد أفواج اليوم.

– وما العمل ؟

– أدع أن تطلع الشمس!.. ولو أن هذا لن يفيد كثيرا – أوشك الموسم السياحى أن ينتهى على أية حال ولابد أن نفكر فى المستقبل..

كنت أعرف أنها تدبر نفسها بصعوبة بالمرتب الزهيد الذى تحصل عليه من شركة السياحة. لم يكن لديها تصريح رسمى بالعمل ولاعقد مع صاحب الشركة ولكنه كان يجدد لها العمل باستمرار لإجادتها لعدة لغات وقناعتها بالمرتب البسيط. أراحه كثيرا أنها أجنبية ليس لها حقوق فى التأمين أو المعاش فتمسك بها بينما كان يتخلص باستمرار من مواطناته قبل مرور ستة أشهر على عملهن لكى لاتصبح لهن حقوق قانونية. وظلت بريجيت منذ عرفتها تعيش فى حدود مرتبها دون أن تسمح لنفسها بأى ترف، ولم تقبل أيضا شيئا منى. إن دعوتها للغداء مرة فلابد أن ترد دعوتى فى اليوم التالى. وذات مساء اقترضت منى مبلغا زهيدا فوجدت فى الصباح ظرفا فى صندوق البريد وبداخله النقود. لم تستطع الانتظار إلى الظهيرة لترد القرض حين نلتقى. وفى النهاية كففت عن دعوتها إلى المطاعم أو إعطائها أى هدايا صغيرة لكى أريحها تماما. وأعرف الآن عن يقين أنها لن تقبل أن أساعدها حتى لو فقدت عملها، فما الذى سيحدث لها ولنا؟..

فاجأتنى بريجيت حين مدت يدها لتمسك بيدى وهى تقول ضاحكة:

– لا تقلق .. لن تتخلص منى بسهولة! . .لابد أن هناك حلا آخر أو عملا آخر.

حدثنى مدير الشركة اليوم عن شخص يريد أن أعطيه دروسا فى اللغة الفرنسية. أستطيع على ما أظن أن أعطى دروسا للمبتدئين وللأجانب..

ولم أعرف إن كانت قد قالت ذلك لتطمئننى أم أنه حقيقى. ظلت تمسك بيدى بين يديها وتربت عليها كأنها تهدهدها وهى تتطلع من زجاج النافذة. وكان المطر لحظتها يتساقط فى قطرات كبيرة فوق النهر فتثب الأمواج وهى تستقبل تلك القطرات.

وقالت بريجيت وهى تنظر نحوى بابتسامة ماكرة: أرأيت ؟.. ها هى السماء تمارس الحب مع النهر وسيلدان أمواجا جديدة.

ثم بدأت تهز يدى وهى تقول بصوت مرتفع إلى حد ما: هيه!.. أنت!.. فيم تفكر؟

- أفكر فيما قلت أنت الآن وفى أشياء حدثت اليوم. أفكر فيما سيحدث غدا.

مطّت شفتيها وهى تسحب يدها من يدي قائلة: إذن أنت لم تتغير أبدا. قلت لك مرات كثيرة لايهم ما حدث ولا ما سيحدث. نحن لانملك غير لحظتنا، هنا والآن..

قلت مازحا: عمرى ضعف عمرك وتعطيننى دروسا؟

- وما ذنبى إن كنت لم تتعلم درسك طول هذا العمر؟..

الحق معها!.. ولكن ماذا أفعل وصورة إيلين تخايلنى طول الوقت؟.. لايفارقنى صوتها الحزين وهى تحاول ألا تفقد كل كبرياء بينما تتوسل إلى بالفعل؟ .. أى نذير هذا ؟..

ظلت بريجيت تتطلع عبر النافذة فى صمت وقد ارتسم على وجهها الشارد شبح ابتسامة بينما تزداد الأمطار غزارة وتتدافع الغيوم السوداء فى السماء.

ثم التفتت نحوى وقالت: أظن أننا أسرة من المجانين!

- أنت قلت! ولكن ما الذى ذكرك بهذا الآن؟

- تلك الأمطار .. ذكرتنى بيوم كهذا اليوم فى طفولتى «قطبت جبينها لحظة كأنها تسترجع الذكرى بالضبط» غير أن صباحه كان مشمسا مع ذلك. لكن

أجلس مع أبى فى مكتبته أراقبه صامتة كالعادة عندما التفت نحوى فجأة وقال: بريجيت! هل تعرفين أسماء الأشجار؟.. ولم أكن أعرفها، فقال عار أنك حتى الآن لاتعرفين أسماء الأشجار، هيا - فلنفعل اليوم شيئا مفيدا . سأعلمك الأسماء!.. وكانت فى طرف البلدة حديقة نباتات واسعة كأنها غابة، ولكن حين وصلنا إلى هناك بدأت الغيوم تغطى الشمس وأصبحت الحديقة معتمة تقريبا، ثم هطل المطر. غير أن شيئا من ذلك لم يوقف أبى. كان يصحبنى من شجرة إلى أخرى. يقطف ورقة من إحدى الأشجار ليقارن بينها وبين ورقة جارة لها بانهماك تام . يحكى كل التفاصيل التى يعرفها وأنا أتابعه، لاأريد أن تفوتنى كلمة. ولم تكن معنا حتى مظلة نغطى بها رءوسنا . كنا نجرى لنحتمى فى ظل أغصان شجرة دردار أو أغصان أخرى وارفة دون أن يكف عن شرحه ودون أن أغفل أنا عنه لحظة. ولكن حين وصلنا إلى البيت صرخت أمى فى فزع. بكت وراحت تصيح فى وجه أبى أن يغير ملابسه بسرعة وهى تخلع عنى ثوبى المبتل وتجفف شعرى والدموع فى عينيها مدمدمة: ستموت البنت، سيصيبها التهاب رئوى وستموت، بالتأكيد، وبالتأكيد ! ولم يذهب أبى ليغير ملابسه بل وقف مزروعا فى مكانه يقطر منه الماء ونظر نحوي فى ذعر وكأنه قد انتبه فجأة إلى ما حدث، فغمزت له بعينى لأطمئنه. هل تعرف؟.. لم يمت هذا الدرس أبدا. عندى فى كل بلد أصدقاء من الأشجار، أذهب إليها لتشاركنى فرحي ولكى أشكو لها حزنى. أعتقد أن الأشجار تفهمنى، أنا واثقة أنها تفهمنى. ما رأيك أن ننجب طفلا؟

لم أنتبه إلى السؤال فى أول الأمر. ولكن الخيوط المتوازية كانت تتجمع الآن بجوار عينيها وحول ذقنها والتمعت عيناها وهى تنظر نحوى في لهفة:

- أنت تمزحين؟

- لا، لم أفكر أبدا فى طفل منذ.. منذ غاب ذلك الآخر.

- طفل؟ .. فى مثل سنى يابريجيت؟

- وما يهم؟.. لايكون الوقت متأخرا أبدا لكى تقدم هديتك للحياة. طفل هو أنت وهو أنا. نعيش فيه معا ونعيش معه، بعيدا.. فى جزيرة أو فوق جبل. نعلمه أن يحب الأشجار والزهور والشعر، ونعلمه هو أيضا كيف يتخذ من الأشجار أصدقاء له -

يصغى لما تقوله أغصانها ويفهم الرسائل التى تبعثها أوراقها المتساقطة. نعلمه أيضا ألا ينساها فى الخريف. يقول للشجرة إنه معها فى عذاب الموت والميلاد، وإنه هو أيضا سيولد معها من جديد حين تنبت أوراقها الخضراء مرة أخرى، لكنه لن ينساها وهى تقف عارية فى الشتاء، بل يمنحها بحبه الدفء. دعنا ننجب ذلك الطفل!

كانت وجنتاها متضرجتين. كانت ترتجف بالفعل وهى تهز يدى فى لهفة وحماس.

سكتُّ لحظة قبل أن أقول لها: وماذا سيحدث عندما ينزل يوما من فوق ذلك الجبل أو يرحل من تلك الجزيرة؟.. هل سيحنو عليه الناس مثلما تحنو الأشجار؟

- ولكن ألم أقل لك إننا سنعلمه الحب قبل كل شىء؟ لابد أنه سينجو بالحب مثلما نجونا نحن. أليس كذلك؟ سينجو دائما.. دائما..

ولكن شيئا من الشك تسرب إلى صوتها وهى تتمتم «دائما .. دائما» بلا انقطاع، بصوت خافت كأنما تريد أن تقنع نفسها وأن تقنعنى بأن ذلك صحيح. وبدا لى الآن وهى تزم شفتيها المرتجفتين أنها تغالب البكاء وتغالب الاعتراف بأنها تسعى وراء حلم بعيد.

كيف أحميها؟.. لو أعرف كيف أحمى هذه التى منحتنى كل ذلك الحب، والتى تجلس الآن أمامى مهزومة تبحث عن طفل مستحيل فى عالم مستحيل!.. رحت أربت على يدها وأضغط عليها برفق، أريد أن أنقل لها دون كلام أنى أفهم، وأنى معها فى لحظة الحنين تلك، أن أقول لها أنت يا ابريجيت التى قلت إننا نجونا بالحب، والتى قلت فلنعش لحظتنا التى نملكها، فلم لا تفعلين الآن ذلك؟.. ضممت أناملها ثم رفعتها إلى فمى وهمست لتلك الأنامل البيضاء الطويلة التى أعشقها فقط دعى هذا اليوم يبطىء. أنا لا أطمع فى الأحلام المستحيلة. فقط دعيه يبطىء، هذا هو كل ما أطمع فيه .

ولكن خاطرا شريرا تسرب إلى ذهنى فجأة فأنزلت يدها وهتفت

- بريجيت ! هل أنت..

- لا !

- أنا لم أسألك عن شيء بعد.

هزت رأسها في بطء وهي تقول: ولكني أعرف سؤالك ياصديقي . لا . لست حاملا . لن أفعل شيئا من وراء ظهرك إن كان هذا ما تخشاه.

لزمت الصمت والتفتُّ نحو النافذة من جديد. كان بخار الماء الذي تكاثف على الزجاج يحجب رؤية النهر والجبل، وحلَّت بالمقهى عتمة كعتمة الغروب. وحين عدت أنظر إلى بريجيت كانت تحني رأسها ويبدو وجهها الذي تحيط به الخصلات المهوشة مطموسا وكأنما يبين هو أيضا من وراء غيمة.

كان صمت ووجوم. توهج شيء لحظة واحدة ثم انطفأ. وطوال جلستنا لم أحاول أن أشرح شيئا أو أن أبرر شيئا . ولم تنفع محاولاتي ولا محاولاتها في طرد الكآبة التي حلت بعد جوابها عن سؤالي الذي لم أنطق به. رحنا نثرثر ونحاول أن ننسى ذلك الطفل الذي ولد لحظة واحدة عشق فيها الأشجار ثم مات على طرف سؤال. ولكنا نعرف أنه هناك يخايلها ويخايلني. يعذبها بالندم لأنها أحبته ويعذبني لأني وأدته من قبل أن يكون.

وانتهت جلستنا بسرعة بعد ذلك. عرضت عليها أن تأتي معي فاعتذرت بأنها مصدعة وتود أن ترتاح قليلا. قالت أوصلني حتى البيت. وقبل أن تنزل من السيارة قالت بلهجة عابرة سأتصل بك لكي نلتقي في المساء.

كنت أنا أيضا مجهدا . وحين وصلت إلى البيت سحبت رسائلي من صندوق البريد وصعدت إلى الشقة ثم ألقيت الصحف على المكتب وأنا أغمغم فليكن يابريجيت. فليكن ياإيلين. فليحدث ما يحدث! ... وكان الإجهاد يخلي السبيل للاستهانة.

أرجأت موعد الحديث مع خالد وهنادي. لم أكن مستعدا بعد. لم أكن قد تخلصت بعد من الطفل الذي لم يولد لأفرغ للأطفال الكبار، فرحت أجول في الغرفة أعيد ترتيب الأشياء دون هدف. أنقل المقاعد وأغير ترتيب الكتب في المكتبة، مرة حسب الحجم ومرة حسب الموضوع، ووجدت فوق أحد الأرفف صورة

عبدالناصر التى تهشم زجاجها يوم أسقطتها معى على الأرض. كان الزجاج المكسور قد كشط جزءا من فمه وشوه ابتسامته فبدا وجهه حزينا. قررت مرة أخرى أن أعيد وضعها فى إطار جديد، ثم وقفت وسط الصالة الصغيرة أتأمل يمينا ويسارا. لم يبق ما يمكن عمله!.. لم يكن هناك من الأصل ما يمكن عمله فعدت مستسلما، جلست إلى المكتب وأخذت أستعرض حصيلة البريد.

وجدت بعض أعداد من صحيفتى القاهرية. ألقيت نظرة على العناوين ثم وضعتها جانبا. استبقيت عدد الخميس وفتحت الصفحة الثامنة التى تنشر فيها منار مقالها الأسبوعى، ولكن المقال لم يكن هناك. كان هناك بدلا منه موضوع دينى «بين الشريعة والتاريخ» فوضعت العدد فوق الصحف الأخرى، وبدأت أدير رقم القاهرة فى قرص التليفون وأنا أنظر شاردا للصورة المنشورة مع المقال الدينى. كانت صورة جانبية لوجه امرأة محجبة، تغطى الطرحة البيضاء شعرها وتحيط بوجهها. قلت لنفسى وأنا أواصل بطريقة آلية محاولة التقاط الرقم أنا أعرف هذا الوجه. ليس غريبا عنى.

ثم فجأة وضعت السماعة واختطفت الصحيفة.

نعم!.. بالطبع هى منار!.. نعم هى صفحة المرأة كالعادة يتوسطها اسم منار! وهناك عنوان فرعي بخط صغير تحت العنوان الرئيسى «بين الشريعة والتاريخ: ماذا جرى لحقوق المرأة؟» جريت بعينى على السطور وكنت قد خمنت الفكرة منذ العنوان: الشريعة صانت للمرأة حقوقها المادية والأدبية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينتقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئا بالشواهد والاقتباسات من المراجع الدينية. ولم أجد أسلوب منار التقليدى. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم فى مقالاتها كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخى للرجل، وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرون أعناق النصوص.. إلخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة فى مقالها أن الرجال لو فهموا الشريعة كما ينبغى لتحققت المساواة منذ زمن بعيد لأن النساء لهن في الشريعة حقوق مساوية لواجباتهن، وإذا كانت للرجال حقوق إضافية فلأن عليهم واجبات إضافية.

وضعت الصحيفة أمامى ورحت أحدق فيها.

حتى الأسبوع الماضى فقط كانت تتوسط كلمتها تلك الصورة التى تظهر منذ عشر سنين فى صفحة المرأة، الصورة التى تطل بوجهها المبتسم وسط هالة شعرها الأسود المفروق وهو يسترسل على جانبى وجهها. فى الصورة الجديدة كان وجهها وقورا وهى تحدق بنظرتها الجانبية إلى بعيد. وعاد إلى ذهنى اللقب القديم الذى كانوا يصفون به منار أول ما عملت فى الصحيفة. كانوا يتندرون على حماستها ويسمونها «منار شفيق» على اسم درية شفيق التى كانت تؤلف حزبا نسائيا، حلَّه عبدالناصر بعد الثورة. طرأت على بالى لحظات من حوارنا معا وهى تدافع عن حقها فى أن تختار العمل الذى تشاء وفى أن تلبس ما تشاء وفى أن تفعل مثلما أفعل بالضبط، وإياك أن تقول لى رجل وامرأة!

والآن ما رأيك يا صديقى ؟

قل لى أنت ماذا تفعل لو ظللت تكتب مثلها ثلاثين سنة لتقول الكلام نفسه: يجب تحرير المرأة.. يجب تحرير المرأة، فإذا بالمرأة لاتريد أن تتحرر ولا يحزنون؟ ماذا تفعل فى النهاية؟.. إن لم تهزمهم فاتبعهم!

ومع ذلك فهناك رد أبسط : منار تمضى فى طريق الفضيلة وأنت تتردى فى الرذيلة!

بسيط جدا!

مددت يدى إلى سماعة التليفون ورحت مرة أخرى أدير رقم القاهرة، لكنى وضعت السماعة من جديد. وما رأيك فى خالد؟.. بسيط جدا أيضا؟.. يخرج من صلب الطالح صالح؟..

هيا فلتواجه الحقيقة . نعم . أحيانا أشعر بالخجل من نفسى لأنه بمثل هذا الشباب وهذه البراءة ولأننى ذلك الكهل أتشبث بآخر قطرة مما يمكن للحياة أن تقدمه. أذكر جيدا ما قاله إبراهيم عن الظروف التى تصنعنا. إذن فما هى تلك الظروف التى جعلت جيلنا لايرى فى الحياة عارا؟.. لماذا قبلنا اننا بشر نخطىء ونصيب ونعصى ونتوب، نطمع فى رحمة الله ونثق أن أوان التوبة سيأتى قبل أن

تضيع فرصتها، ولماذا يريد خالد أن يكون ملاكا لايشوب نقاءه مجرد دور من الشطرنج ؟ .. أعرف أنه لو عاش تلك الحياة مثلما بدأ فلن يعرف الحيرة التى عشناها نحن. لن يحاول أن يصحح ماضيه مثلما تحاول منار الآن بطريقتها ومثلما أحاول بطريقتى. لن يكون فى الحياة صراع ولا فى الروح صدع. سيكون كل شيء سهلا وواضحا . ومع ذلك فهناك شيء فى داخلى يقول إن هذا مستحيل ياخالد!.. لم يحدث أبدا أن نبتت للبشر أجنحة الملائكة. لو أنك معى الآن لتكلمنا مثلما كنا نتكلم من قبل كأصدقاء. لحاولت أن أشرح لك وأن أستمع إليك. ولكن هيا!.. لا تتلذذ بتعذيب نفسك!..

طويت الصحيفة وطويت صورة منار ثم عدت أدير الرقم. وبعد المحاولات المعتادة جاءنى صوت خالد:

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ياخالد. إمال فين هنادى؟.. ماردتيش على الأول ليه زى العادة؟

- هى قاعدة جنبى وحاتكلمك حالا «ثم ضحك» أصلها زعلانة.

- زعلانة منى؟

- لأ، منى أنا.

- عملت لها إية تانى ياخالد؟.. حكاية التليفزيون برضه؟

- لأ، بتتفرج على التليفزيون زى ما هى عايزة. أصلها .. «ابتعد صوته قليلا» استنى يابنت .. ما تخطفيش السماعة..

ولكن صوت هنادى تدفق باكيا : إسمع يابابا... قول لخالد ده مالوش دعوة بىَّ أبدا - وإلا أنا حا أطفش من البيت ده خالص!

- ياساتر يارب!.. تطفشى مرة واحدة؟ ليه كفى الله الشر؟

- كل يوم يا بابا ينكد علىّ ويخترع لى حكاية جديدة!.. دلوقت مش عايزنى أروح النادى. حتى ماما قالت له يسيبنى فى حالى مش بيسمع الكلام.. مش

بيرضى يخلينى أخرج و...

اختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء.

- إهدى ياهنادى.. إهدى وادينى خالد. حتروحى النادى زى ما انتى عايزة. بس بطلى عياط ياحبيبتي عشان خاطر بابا . أرجوك..

ولكن صوتها استمر وسط بكاء لاتسيطر عليه: قل له .. قل له يا بابا.

- حاضر ، ادينى خالد.

جاء صوته هادئا: السلام عليكم.

- إحنا سلمنا على بعض قبل كده يا خالد!.. إيه حكايتك مع اختك؟

- يا بابا أصل النادى فيه مساخر وفيه شباب فاسدين وأنا..

- أى حته فى الدنيا فيها ناس فاسدين وفيها ناس كويسين. سيبها تتعلم بنفسها وتحمى روحها..

احتد وهو يقول: إذا كنت أنا الراجل بطلت أروح النادى. هى تروح؟ حضرتك حتدلعها زى ماما وتسمع كلامها أول ما تنزل لها دمعتين؟ هنادى ما بقيتش صغيرة، وأنا هنا ولى أمرها!..

- انت بترفع صوتك علىّ ياخالد؟.. وأنت ولى أمرها؟.. أنا لسه ما متش يا ابنى.

- بعيد الشر، أنا ما أقصدش كده. أنا قصدى..

ارتفع صوتى أنا أيضا - مش عايز أعرف قصدك!.. أنا قلت لك مالكش دعوة بيها وسيبها فى حالها. فاهم ولا لأ؟ .. ياأخى أنا عمرى ما فرضت عليك رأى ولا قلت لك اعمل كذا ولا بطل كيت.. سيبتك حر تفكر زى ما أنت عايز وتتصرف زى ما أنت عايز . مش كده؟

-أيوه.

- إمال اشمعنى أنت عايز تفرض رأيك على غيرك؟.. دى حاجة غريبة! سيب هنادى كمان حرة، خليها تخرج وتروح النادى وتعمل اللى هى عايزاه. فاهم؟

تردد لحظة ثم قال بصوت خافت: أمرك. مادام حضرتك مش مقتنع بوجهة نظرى «ثم سكت لحظة» بس أنا كنت عايز أكلم حضرتك فى موضوع تانى خالص.

– طيب الأول ادينى هنادى.

– أيوه يا بابا.

– خلاص ياهنادى. أنا فهمت خالد إنك تخرجى وتروحى النادى وقت ما أنت عايزة. لكن طبعا لازم تاخدى إذن ماما، وتقولى لها حتخرجى إمتى وحترجعى إمتى..

كانت شهقات البكاء لاتزال تغمر صوتها وهى تقول : ما هو أنا... ما هو أنا بأعمل كده والله يا بابا .. ميرسى يا بابا.

– وبرضه ياهنادى مش عايزك تزعلى أخوك.

انفجرت مرة أخرى: وهو ده حد يعرف يزعله؟ .. ده ينكد على بلد بحالها وهو قاعد متسلطن ويقول لك «السلام عليكم»..

كانت تقلد طريقته بالضبط فابتسمت بالرغم منى ولكنى قلت – عيب ياهنادى. كده أنا اللى حا ازعل منك. ده أخوكِ الكبير ولازم تحترميه.

– بس كده؟ .. إنت تأمر. باى باى.. أنا باحترمك ياسى خالد، مبسوط؟.. خد كلم بابا.

– استنى دقيقة يا هنادى!

– أيوه يا بابا.

– باقول لك يا هنادى «سكتُّ لحظة ثم قلت» أرجوكِ يا هنادى.. خليكِ زى ما أنت وإوعى تتغيرى!

سألت فى دهشة : وإيه اللى حيغيرنى يا بابا؟

– مش عارف. فيه حاجات كتير بتغير الناس ياحبيبتى، حاجات من برَّاهم وحاجات من جوَّاهم.

- ولو إنى طبعا مش فاهمة أى حاجة من اللى حضترتك بتقوله، لكن إن شاء الله كله حييجى كويس! بس أنت ما تاخدش فى بالك كده ورّوق..

وضحكت لأول مرة منذ بدأت المكالمة ضحكتها الصافية الطلقة. وهى تقول: باى باى .. معاك خالد.

وصلنى صوته من بعيد وهو يخاطب أخته. لو سمحتِ تخرجى لأنى عايز أكلم بابا في موضوع خاص .. أيوه يا بابا.

حاولت أن أتخلص من انفعالى وأنا أسأله بهدوء:

- خير ياخالد؟

- خير بإذن الله . كل خير . بس ربنا يوفق. أنا كنت عايز أكلم حضرتك عن موضوع ماما.

- أى موضوع؟

- اللى حضترتك عارفه يعنى..

- أنا مش عارف أى حاجة ياخالد .. قول بسرعة فيه إيه؟

- قصدى يا بابا إن حضرتك عارف إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

صرخت : وده موضوع نتكلم فيه فى التليفون ياخالد؟

- معلهش سامحنى. أصل أنا شاعر كده إن ماما ربنا هداها فى الفترة الأخيرة. ماما اتغيرت خالص.

- وأنت اللى اقنعتها بـ ... بالتغيير ده؟

- ياريت ، كنت كسبت ثواب. هى والله اللى ربنا هداها كده لوحدها . قعدت مدة تشوف البرامج الدينية فى التليفزيون، وبعدين بقت تاخد منى كتب لغاية ربنا ما هداها خالص. فأنا بيتهيأ لى إنى لو كلمتها دلوقت عن الصلح ألاقى عندها استعداد . بأقول يعنى..

صرخت مرة أخرى : ما تقولش حاجة ياخالد. مش فى التليفون!

- ليه ؟ .. هو احنا بنقول حاجة عيب؟ إسمعنى بس يا بابا. أنا رأيى إنى

أحاول دلوقت أجس نبض ماما يمكن تكون..

بذلت مجهودا لكى لا أصرخ مرة أخرى.

– ما تحاولش حاجة يا خالد. كتر خيرك إنك مهتم بالمسألة دى، بس دى حكاية مش مجالها التليفون زى ما قلت لك. حا ابقى أكتب لك جواب.

قال بإصرار : حضرتك عودتنى دايما على الصراحة وإننا نتكلم كأصحاب. فماتزعلش دلوقت لما أقول لك رأيى. إنت بصراحة غلطان.. لأن زى ما قلت لحضرتك إن ده أبغض الحلال وحضرتك غلطان.

سكت لحظة ثم قلت:

– وإيه لزوم «حضرتك» دى بقى ياخالد؟ كتر خيرك يا ابنى. إنت قلت رأيك بصراحة وأنا سمعته. بس برضه ما تفتحش الموضوع ده بعد كده. وأنا متأكد إن ده كمان حيكون رأى والدتك لو كلمتها. مع السلامة دلوقت.

– و«عليكم السلام ورحمة الله».

كنت أرتجف وأنا أضع سماعة التليفون.

قمت مرة أخرى أذرع الغرفة الضيقة. إلى أين ستنتهى ياخالد؟.. نعم كنا صاحبين دائما كما قلت. ولكننا كنا دائما نتناقش قبل أن تقول رأيك. الآن أنت تريد أن تقرر وحدك وأن تنفذ وحدك. تريد أن تنفذ ما تريده لهنادى ولأمك ولى.

هل ستقول لى مثل يوسف ولكى عندما بحثت عنك لم أجدك؟ لا .. لا ألوم نفسى هنا أبدا. أنت الذى اخترت. كنت ناضجا واخترت. يأتى إلى ذهنى الآن ذلك النقاش الذى دار بيننا ذات مرة ونحن نلعب الشطرنج أيام كنت فى الثانوية . كنت أيامها قد قرأت مسرحية ماكبث فقلت لى ولكن يا بابا ماذنبه؟.. الساحرات أغوينه بالعرش وقلن إنه لابد أن يرتقى ذلك العرش. كان مسيراً حين قتل، فما ذنبه؟ قلت لك يومها إن ماكبث هو الذى خلق الساحرات لكى يحقق أطماعه وإن الساحرات هن بنات أفكاره لا أكثر نعم. ولكن ما أهمية هذه الحكاية؟ لماذا تطرأ على بالى الآن؟ .. نعم، تذكرت. أفكِّر، كم كنت رقيقا وحساسا ياخالد! حتى ماكبث القاتل كان صعبا عليك أن تدينه!.. فأين ذهبت تلك الرقة الأولى؟ أين ذهبت تلك

الحساسية؟ لماذا تقول بذلك الحسم وبتلك الإدانة القاطعة «إنت غلطان»؟ ماذا تعرف عن التجربة التى عشتها أنا أو التى عاشتها أمك لتصدر الحكم بهذا الإصرار؟ «غلطان يا بابا»! إن كنت أنا حتى الآن أحاول أن أفهم دون أن أدينها هى قطٌ، فكيف تدينني أنت بهذه البساطة؟.. كيف احتكرت الحقيقة لنفسك؟

أعرف أنك منذ مدة كففت عن أن تقرأ ماكبث أو غيرها. لم تعد تقرأ غير الكتب التى تثبت لك أنك على حق وأن كل الآخرين على خطأ. ولكن احذر ياخالد!.. إحذر لأن كل الشرور التى عرفتها فى الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم. تبدأ فكرة وتنتهى شرا: أنا على حق ورأيي هو الأفضل. أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال. أنا الأفضل لأنى شعب الله المختار والآخرون أغيار. الأفضل لأنى من أبناء الرب المغفورة خطاياهم والآخرون هراطقة. الأفضل لأنى شيعى والآخرون سنة أو لأنى سنى والآخرون شيعة. الأفضل لأنى أبيض والآخرون ملونون أو لأنى تقدمي والآخرون رجعيون. وهكذا إلى ما لا نهاية. انظر ياخالد إلى ما يدور فى الدنيا الآن. انظر إلى تلك الحرب التى لاتريد أن تنتهى بين العراق وإيران وكل طرف فيها على حق ومفاتيح الجنة تُوزع دون حساب والدم ينزف دون حساب. انظر إلى تلك المجزرة فى لبنان وشعب الله المختار يستأصل شعبا غير مختار ويقول قائد جيشه «العربى الجيِّد هو العربى الميت» !.. كل ذلك القتل لأن القاتل دائما هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طوال الوقت لتستأصل الآخرين، الأغيار، أعداء الرب، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدم .. الأعداء دائما وإلى ما لا نهاية. مع أنه لاتوجد في العالم حرب شريفة غير تلك التى تدافع فيها عن بيتك أو عن أهلك أو عن أرضك وكل حرب غيرها فهى قتل جبان.

ستقول لي ياخالد ولكن أنا لم أفعل شيئا من هذا كله! أنا فقط تحدثت عن الطلاق وعن النادى وعن الشطرنج!.. نعم، ولكن احذر مع ذلك من هذا الطريق يا ولدي!.. احذر ياخالد لأنه يبدأ من هنا وينتهى هناك. يبدأ بأنت مخطىء وينتهى بأنت تستحق القتل!

رجعت إلى المكتب محموما. نعم، سأكتب هذا كله!.. سأكتب هذه الرسالة إلى خالد.

سأنبهه قبل أن يفوت الوقت. وأخرجت القلم والورقة.

ولكن انتظر!

هناك شيء ناقص في ذلك كله! أنت تريد أن تقول له الحقيقة كما تعرفها.. تريد أن تكون أمينا معه كما كنت دائما، ولكنك لم تذكر شيئا عن بريجيت!

لم تقل له إن لك عشيقة !

هل تجسر أن تفعلها؟

قلت من قبل إنك تشعر بالذنب وبالذات حين تفكر في خالد وفي براءته.

وتعرف أيضا أنك لاتستطيع الحياة دون بريجيت.

شعورك بالذنب صادق وحبك صادق، ولكن لا الذنب يلغي الحب ولا الحب يلغي الذنب.

فهل تكتب ذلك أيضا؟

نعم. يجب أن يعرف كل شيء!.. أن يعرف وأن يفكر!.. يفكر ثم يصفح، يفكر ثم يدين، ولكن المهم أن يفكر !

المهم أن تعرف أنت كيف تكتب له.

★★★

بعد أيام زارتني بريجيت في الشقة زيارة غير متوقعة في الظهيرة.

أدهشني رنين الجرس المستمر الذي تصحبه طرقات ملحة وعندما فتحت الباب اندفعت بريجيت إلى الداخل كالإعصار. ظلت تقف وسط الصالة الصغيرة محتقنة الوجه وهي تركز عينيها في وجهي ثم قالت بلهجة غاضبة :

– ما معنى هذا ؟ .. أنت الذي كنت وراء حكاية الدروس هذه؟

– أي حكاية يابريجيت؟.. أنا لا أفهم أي شيء.

حاولت أن أمسك بيدها وأقودها لكي تجلس فسحبت يدها في عنف وهي تقول: هل سمعت أني أبحث عن إحسان؟

– ولكن أنا لا أعرف عن أى شىء تتكلمين. قولى ما المسألة؟

– ومع ذلك فقد ذكر اسمك.

قلت فى شىء من الغضب – من الذى ذكر اسمى؟ اهدئى من فضلك وقولى كلاما مفهوما بدلا من كلمات الإحسان .. وذكر اسمك. ما هى الحكاية بالضبط؟

قالت فى بطء متعمد وهى تركز على كل كلمة من كلماتها: الأمير العربى .. الذى يرد دروس اللغة الفرنسية.. ذكر اسمك.

سكتُّ لحظة ثم قلت متشككا : أمير؟ اسمه الأمير حامد؟

– إن كنت تظن أنى سأحفظ هذه الأسماء!.. ربما. أظن هذا هو اسمه.

سبقتها إلى الجلوس على مقعد وأنا أحاول أن استوعب بسرعة ما حدث فسألتها:

– ولكن كيف وصل إليك؟

ظلت تقف وفى عينيها نظرة اتهام وهى تقول:

– هذا ما أود أن أعرفه منك. قلت لك من قبل إن مدير الشركة..

– نعم ، نعم أذكر.. عرض عليك أن تعطى دروسا فى الفرنسية بعدما قلّت أفواج السياح. ولكن هل ذكر لك وقتها اسم الشخص الذي يريد الدروس؟

– لا ، قال إنه شخص غنى. هذا كل ما فى الأمر.

بدأت بريجيت تشك في اتهامها لى بأننى وراء هذا الموضوع فتقدمت بخطوات مترددة وجلست إلى جوارى وهى تسأل فى حيرة:

– ولكن إن كان يتكلم الفرنسية بطلاقة فما حاجته إلى دروس؟

– هو يتكلم الفرنسية أيضا؟

– أنت لاتعلم ذلك ؟

نفد صبرى وقلت بصوت مرتفع: كفى!.. قلت لك إنى لا أعرف شيئا على الإطلاق عن هذه الحكاية. لم أر هذا الأمير سوى مرة واحدة فى حياتى وحدثتك

عنه يومها.

- نعم، ولهذا اعتقدت أنك ربما.، لأننى تكلمت وقتها عن الأموال التى يبذرها وقلت إننى لا أمانع..

- لست غبيا إلى هذا الحد يابريجيت. أظن أنى أعرفك أفضل من ذلك. ولكن ماذا قال لك عنى؟ أرجو أن تتذكرى فهذا مهم..

غير أن بريجيت تذكرت شيئا آخر فقالت: انتظر لحظة. إن كنت لم تحدثه عنى فكيف عرف بعلاقتنا؟

- هو تحدث عن هذا أيضا؟

- ليس بشكل مباشر . كان يلمِّح هو شخص معقد ولم أستطع أن أفهمه تماما..

أسندت بريجيت رأسها إلى ظهر المقعد وأغمضت عينيها وقالت بلهجة متعبة:

- لم أعد أطيق الحكايات المعقدة. لم أعد أطيق أى حكايات..

غير أنى توسلت إليها أن تركز قليلا وأن تذكر لى كل ما دار، وبالكاد فهمت منها ما حدث.

عرفت منها أن الأمير انتقل من الفندق لأنها ذهبت إلى عنوان آخر أعطاه لها مدير الشركة. قالت إنه قصر كبير في الجبل على ضفة النهر الأخرى، وإنها لم تدخل فى حياتها قصرا بهذه الفخامة والاتساع. ظل كل فرد من الحاشية يسلمها إلى آخر حتى وصلت فى النهاية إلى مكتب الأمير. لم تتوقع أن تجده بمثل هذا الشباب والأناقة. بصراحة توقعته كهلا يلبس جلبابا أبيض ويغطى رأسه بذلك «الإيشارب» الذى لاتعرف اسمه. توقعت أنه يريد أن يتعلم بعض جمل وكلمات لكى يتصرف عندما يشترى من المحلات أو عندما يجلس في المطاعم مثل أولئك الآلاف الذين يزحمون المدينة فى الصيف. ولكن الأمير الذى استقبلها بتهذيب شديد تحدث معها قليلا بالانجليزية وشرح لها أنه قرر أن يقضى وقتا فى هذا البلد الذى يتكلم الفرنسية ولهذا فهو يريد أن يتدرب على المحاورة والكتابة. نبهها مع ذلك أنه لايبدأ من الصفر لأنه سبق أن أخذ دورات فى الفرنسية، ولكنه غير مقتنع

بالمستوى الذى حصلّه..

لم يكن كل هذا يعنينى فسألتها فى لهفة – ولكن ماذا قال لك عنى ؟ ماذا قال عنا؟ هذا هو المهم.

– قلت لك إنه تحدث بطريقة ملتوية. سألنى إن كنت مهتمة بالصحافة ولما نفيت ذلك قال بشكل عابر ولكني أعتقد أن لنا صديقا مشتركا يعمل بالصحافة. رددت عليه أن صديقنا الوحيد المشترك فيما أعلم هو مدير الشركة الذى أعطاه اسمى وأعطاه عنوانى، فقال طبعا، وهو الذى فهمت منه أنك تعرفين بعض الصحفيين هنا ومنهم صديقى فلان. تجاهلت ذلك، وقلت إنى أفضل أن نبدأ الدرس لأن مدته ساعة وقد فات منها بعض الوقت بالفعل. بدا عليه لحظتها شىء من الضيق ولكننا فيما بقى من الساعة لم يخرج حديثنا عن تعليم اللغة الفرنسية. عاملته مثل أى تلميذ. بدأت أوجه له أسئلة بالفرنسية وأتحدث معه عن قواعد اللغة فاكتشفت أنه لايحتاج إلى أى شىء. وخطر لى أنك أنت الذى كنت وراء هذه المسألة وأن الأمير أراد أن أعرف ذلك حين ذكر اسمك فشعرت بالسخط عليك، غير أنى لم أسأل الأمير عن أى شىء. واصلت معه الدرس حتى انتهت الساعة فشكرنى وقال إنه سيتصل بى لنحدد موعد الدرس التالي. ودعته دون أن أرد على ذلك، ولكن سكرتيرته التى اصطحبتنى خارج مكتبه قدّمت لى ظرفا أبيض مغلقا. فتحته أمامها فوجدت بداخله الشيك. هل تعرف ما هو المبلغ؟

– أرجو ألا يكون عشرين ألف دولار !..

فضحكت ضحكة صغيرة وقالت – بالنسبة لى هو أهم حتى من عشرين ألف دولار!.. كان الشيك هو مرتبى بالضبط من الشركة فى شهر كامل. أعدته إلى الظرف ورددته إلى السكرتيرة وقلت لها أن تشكر الأمير وتبلغه أنى لا أستحق أى أجر، لأنه إذا كان يحتاج إلى درس فلست أنا التى أصلح لذلك. هو ليس مبتدئا والفرنسية ليست لغتى الأصلية. من يحسبنى؟

– ولكن صديقى يوسف كان سيقول مع ذلك إنك قد أعطيته درسا بالفعل!

– ومن يكون هذا أيضا؟

- لا يهم. ولكن حاولى أن تتذكرى. هل كان سؤاله هذا هو كل ما ذكره عنى؟

- نعم، لم أعطه الفرصة لشىء آخر . أردته أن يفهم أنى لا أريد الدخول معه فى أى حديث خارج حكاية الدروس، وقد فهم . ولكن ما الذى كان يريده بالفعل فى رأيك؟

فكرت ثم قلت: أنت لم تسمحى له بأن يتكلم لكى نفهم. كل ما يمكن أن نخرج به من هذه الحكاية هو أنه يريد أن يبلغنا بأنه يعرف علاقتنا .

قالت باستهانة: وما أهمية أن يعرف أو لا يعرف؟.. أنا لا أمانع أن يعرف العالم كله أنى أحبك .. وأنت؟

- أنت تعرفين الجواب جيدا يابريجيت. تعرفين أنك أنت لى هذا العالم كله.

- وإذن فما أهمية أن يبلغنا أو لا يبلغنا؟.. أتعرف ماذا أظن؟.. أحسب أنه يريد أن يستعرض علينا ثراءه لاغير. أعترف لك بأن هناك شيئا جعلنى أنفر منه من أول لحظة ، جلعنى أندم على أنى وافقت أصلا على هذا الدرس. ربما هو قصره الكبير أو ثراؤه الفاحش أو محاولته أن يبدو دبلوماسيا جدا وجذابا جدا .

- هو بصراحة لايحاول ذلك. هو بالفعل ثرى جدا ودبلوماسى وجذاب.

- ربما ، ولهذا السبب لم أحبه. قلت لك من قبل إنى لا أحب العاقلين ولكنى أفضلهم مع ذلك على الأثرياء. تخيل!.. كل هذا المكان وكل هذه الحاشية لخدمة إنسان واحد، لماذا؟.. وهؤلاء العرب الفقراء الذين ينشرون صورهم فى المخيمات.. لماذا لايسكن فى بيت أصغر ويعطيهم الفرق؟

زفرت وأنا أقول: انتهى منذ زمن طويل هذا الكلام يابريجيت . منذ زمن طويل جدا!

- منذ متى؟

- ربما منذ الحرب الاسبانية ! .. أصبح الكلام بهذه الطريقة عارا إن لم يكن جريمة فى هذه الأيام. إسألى والدك.

ابتسمت بريجيت للمرة الأولى وقالت: نادرا ما نتكلم فى هذه الأشياء. أتحدث

معه فى أمور أهم. هو الآن مشغول بدراسة أصوات الطيور!.

ثم التفتت نحوى وقالت: هل سامحتنى على هذا الغضب الذى لم يكن له داع؟

قلت فى حزن حقيقى: بل سامحينى أنت يابريجيت لأنى أجرُّ عليك المتاعب.

لكنها عادت تسند رأسها إلى المقعد قائلة بشىء من الدهشة:

– لماذا تطاردنى هذه الحكايات؟.. لماذا أنا؟.. أنا لا أريد شيئا غير أن يتركنى العالم فى حالى، هل هذا كثير؟

وبعد ذلك غابت تماما. أمالت رأسها نحوى وهى تثبت فى وجهى حدقتيها الزرقاوين ولكنى أثق أنها لاترانى ولا تسمعنى وأنها يمكن أن تستمر على ذلك الوضع ساعة كاملة. تضع ساقا على ساق، تسند يديها إلى المقعد، تميل برقبتها نحوى، ويظل كل ذلك ثابتا على حاله طويلا قبل أن تهز رأسها وهى تتلفت فجأة وتسألنى: هه؟ ماذا كنت تقول؟

ولكن شيئا كان قد حدث لى أنا أيضا. جنون آخر كان قد استبد بى مثل جنونها. كانت لحظات الموات تلك هى اللحظات التى أبوح فيها بكل ما لا أقوله فى صحوها، أبوح قبل كل شىء بما أخاف منه. فهمست: أعرف يابرجيت ولو لم تنطقى أن شرخا قد حدث بيننا منذ قتلت أنا ذلك الطفل الذى صنعته أحلامك وأن صدعا آخر قد دقه الآن ذلك الأمير. نعم، أنت لاتريدين شيئا غير أن يتركك العالم وأنا لا أريد شيئا غير أن تكونى أنت هذا العالم. أعرف يابريجيت أنى مجرد صفحة فى كتاب حياتك، ولكن أنت صحفتى الأخيرة، لو طويتها فسينتهى كل شىء، فدعى تلك الصحفة تطوى نفسها على مهل.

أنت قلت إننا نجونا بالحب، فلا تدعى العالم يهزمنا لنضيع من جديد. هل أقرأ لك شعرا يابريجيت؟

لم يختلج لك جفن. ولكنى قمت وأحضرت ديوان نيرودا الذى أحبه وجلست أحتضنك وأقرأ لك:

أيتها الوردة

أيتها الوردة الصغيرة
أحيانا هشة وضيئلة
أحيانا أشعر أن كفًا واحدة
تكفى لكى تحتويك
ولكن فجأة تلمس قدمى قدمك
وفمى شفتيك
فإذا بك تكبرين
وإذا بكتفيك كجبلين
وإذا صدرك يغمر صدرى
فلا تكاد يدى تحيط بخصرك الصغير، كهلال وليد
انطلقت بالحب نفسك جارفة، موج بحر
يرتطم بالسماء التى تضيئها عيناك.
فأنحنى على فمك
وأقبل الأرض.

هذه هى أنت يابريجيت !.. لم يصف نيرودا غيرك!
وكنت أهمس لك، وكنت أصرخ ، ولكن قناع وجهك المائل لم يتحرك..

الفصـــــل العاشر

كل أطفـــال العــالم

حيرتني معرفة مايريده الأمير من بريجيت أو مني. وتذكرت أنني في الفترة الأخيرة كنت ألاحظ هنديا معينا يجلس في المقهى حين ألتقي ببريجيت، وأنني كنت ألقاه أحيانا في الطريق أمام البيت. ولكني لم أهتم بذلك. قلت ربما هي مصادفة . من يهمه أن يراقبنا؟

وظللت أياما بعدها أيضا أحاول الاتصال بالأمير في الرقم الذي حصلت عليه من بريجيت، ولكن ليندا هي التي كانت ترد عليّ باستمرار لتقول إن سموه غير موجود.

ولم أفلح أيضا في الاتصال بيوسف لأرى إن كان يعرف أخبارا عن الأمير. لم يكن موجودا بدوره في أي وقت. وأخيرا ذهبت إلى المقهى، رغم أني كنت أحاول تجنب اللقاء مرة أخرى بإيلين. رأيت برنار يجلس في ركنه المعتاد وأمامه كوب البيرة، لوّح لي بيده ولكن إيلين التي كانت تحمل بعض الطلبات للزبائن أشارت لي أيضا أنها تريدني. فرغت من مهمتها بسرعة ثم تقدمت نحوي متجهمة الوجه.

قالت : معذرة، ولكن ماذا قلت ليوسف في ذلك اليوم الذي تحدثنا فيه؟ ما الذي جرى له ؟

ـ لا أفهم يا إيلين. ما الذي جرى؟ سامحيني ولكن لم تسنح الفرصة لأكلمه عن شيء يخصك . تبادلنا الحديث فقط عن موضوع الصحيفة وقلت له إنني لا أستطيع أن أشترك في العمل فيها ...

استندت إيلين بيدها إلى إحدى الموائد وهي تتطلع في وجهي بنظرة يوشك أن يكون فيها اتهام، ثم أحنت رأسها وقالت بلهجة متشككة :

ـ هذا كل ماحدث؟

ـ نعم.. «ثم قلت بعد تردد» وتبادلنا أيضا حديثا عن الأمير.

ـ قلت له أن يعود إليه؟

ـ بالعكس، ومع ذلك فأنا لا أملك أن أطلب منه أن يعود أو لايعود. هو حر يفعل مايشاء .

ـ وتقابلتما بعدها، أليس كذلك؟

ـ إطلاقا. أنا جئت اليوم لأراه. أحتاجه فى موضوع هام بالفعل.

أفلتت منها ضحكة ساخرة وهى تقول: هام بالفعل!.. اتصل به ياسيدى عند الأمير إن كنت تريده!

همَّت بأن تنصرف ولكنى أمسكت بيدها أستبقيها وأنا أقول :

ـ من فضلك يا إيلين. ماذا حدث بالضبط؟.. أقسم لك إنى لم أر يوسف منذ آخر مرة جئت فيها إلى هنا. ولم يتصل هو أيضا بى. ولكنى أفهم منك أن شيئا قد حدث فما هو؟

تطلعت إيلين فى اتجاه برنار لحظة ثم عادت تنظر فى وجهى طويلا قبل أن تقول :

ـ أنا لا أعرف ياسيدى عن أى شىء تحدثتما أنت ويوسف فى ذلك اليوم الذى جئت فيه، ولكن بعد أن انصرفت ترك المطبخ ولزم حجرته بقية اليوم، ثم فى الصباح قال إنه ذاهب إلى الأمير. ومن يومها لم أعد أراه تقريبا. يصحو فى الصباح ليذهب إلى الأمير ولا يرجع إلا فى آخر الليل.

ثم ضحكت ضحكتها الساخرة مرة أخرى وقالت : وهل يمكن أن تشرح لى لماذا لم يعد يحلق ذقنه؟..

غير أن أحد الزبائن ناداها فى تلك اللحظة ولوَّح لى برنار مرة أخرى فذهبت نحوه. وبينما أجلس قال لى:

ـ هل كانت تحدثك عن يوسف ؟

ـ نعم، ولكننى لم أفهم أى شىء. كأنها تتهمنى.

قال باستخفاف ـ هى لاتفهم أى شىء.

ـ إذن أنت تعرف شيئا؟

قال باللهجة نفسها : وأنا لا أفهم أى شىء. ولا أحد فى الدنيا يفهم أى شىء.

قلت لنفسى هو فى إحدى حالات مزاجه السيىء. وكانت عيناه بالفعل محمرتين أكثر من العادة وهو يتجرع آخر ما فى كوبه ويشير إلى إيلين بيده أن تأتيه بكوب آخر. اعتمد ذقنه بيده وراح يتأمل صورة الفتاة السمينة التى تحمل ريشة الطائر ثم أطلق ضحكة مفاجئة قبل أن يسألنى : ما اسم ذلك الطبيب الذى نصحك أن تترك المهنة؟ أنا أيضا أريد أن أذهب إليه!

ـ تستطيع أن تترك المهنة دون إذن الطبيب يا برنار لو أردت .

ـ مع الأسف لا . المهنة قيد. هناك التأمينات وهناك المعاشات وكل هذه التعقيدات. لا تستطيع أن تغير مهنتك فى هذه السن دون سبب.

ـ أنت تتكلم جادا؟.. ألم تكن أنت الذى قلت مرة عندما كان إبراهيم هنا إن الصحفى يجب أن يبتعد مسافة عن عمله ؟

ـ أنا أقول أشياء كثيرة لا أعنيها . مثل صحيفتى بالضبط!

قلت مواسيا ـ ومع ذلك فصحيفتك تفعل شيئا جيدا هذه الأيام. هى الصحيفة الوحيدة على ما أظن التى تشن حملة على استخدام إسرائيل للقنابل المحرمة دوليا ضد المدنيين فى لبنان.

أحنى رأسه ولزم الصمت.

وكانت صحيفة «التقدم» الصغيرة التى يعمل فيها برنار تصلنى فى البريد كل يوم مع الصحيفة اليومية الرئيسية فى البلد. وعادة ماكنت أكتفى بقراءة العناوين، وحتى هذه العناوين أصبحت تصيبنى بالدوار وأشعر أحيانا أن كل الداء القديم

سيرجع فأتركها مكوّمة على المكتب عدة أيام دون أن أنظر فيها. ولكن لفت نظرى فى الأيام الأخيرة أن صحيفة «التقدم» ظلت على مدى أيام تنشر احتجاجات كثير من المنظمات الإنسانية على ضرب المنازل والمستشفيات والأهداف المدنية فى بيروت، وعلى استخدام إسرائيل للقنابل الفوسفورية التى تسبب حروقها آلاما رهيبة لضحاياها قبل أن تقتل، والقنابل الخداعية التى تلقى على شكل دمى ولعب لكى تقتل الأطفال، والقذائف التى تفرغ الهواء حول المبانى وتقوضها على من فيها فى لحظات. كانت المنظمات الإنسانية تحتج على استخدام هذه الأسلحة التى يحرمها القانون الدولى، ولم تكن الصحيفة الصباحية التى تصلنى تشير من قريب أو من بعيد إلى هذه الأسلحة ولا إلى بيانات الاحتجاج عليها.

قلت لبرنار ـ ومع ذلك فهناك شىء ناقص فى نشركم لهذه البيانات. أنتم لم تسألوا أبدا من أين تأتى هذه الأسلحة التى تستخدمها إسرائيل، لم تقولوا كلمة واحدة عن أمريكا التى تعطيها هذه الأسلحة لكى تجربها فى لبنان.

نظر إلىّ برنار وقال بلهجة ساخرة ـ وتريدنا أن نذكر أمريكا أيضا؟.. ألا تكفى رسائل الاحتجاج التى تصلنا من أصدقاء إسرائيل والتى ننشرها كل يوم؟.. هل تريد رسالة احتجاج من أمريكا نفسها؟.. تريد أن تغلق الصحيفة؟

ثم استدرك ـ ولو أن هذا حل جيد جدا، لو أغلقت الصحيفة.. لن أحتاج إلى شهادة طبية!

خطر فى بالى شىء فسألته: أنت الذى تحرر هذه الأخبار يا برنار؟

لم يرد. ورفع كوب البيرة إلى شفتيه قبل أن يكتشف أنه فارغ فأعاده ثم قال بلهجة فخمة :

ـ صحيفة التقدم! أفانتى! أفانتى.. «إلى الأمام إلى الأمام!..» ألا ترى أننا نفعل أشياء رائعة!.. نهاجم بمنتهى الشدة العنصرية فى جنوب أفريقيا، وندافع بحرارة عن حقوق النساء فى العالم، ونكتب مقالات تفيض عطفا على بلاد العالم الثالث، ونحن تقدميون بالفعل! ولكن تعال، حاول مرة أن تكتب مقالا حقيقيا عن

دورنا نحن فى أزمة هذا العالم الذى نذرف عليه الدموع!.. تعال، حاول أن تعطى لما يحدث فى لبنان الاسم الذى يستحقه!.. إسأل كيف تكون هذه المجزرة اليومية حربا، وكأنه يمكن أن تكون هناك حرْب فعلا بين جيش جرار يملك أحدث الطائرات ويلقى أفتك القنابل من الجو ومن البحر على مدينة يحاصرها ولا تملك طائرة واحدة ولا جيشا ولا أسطولا. إسأل، كيف تكون حربا أن يدافع مئات أو بضعة آلاف عن هذه المدينة بالبنادق والرشاشات أو حتى بالمدفعية والدبابات؟ أين هى الحرب فى هذه المذبحة اليومية؟ إسأل!

ـ ألا تستطيع أن تسأل أنت ؟

قال بلهجة قاطعة ـ لا . لا أستطيع أن أسأل. هل رأيت أحدا فى صحفنا استطاع أن يسأل؟

ولم أقل له إننى حتى فى الصحف العربية لم أجد من يسأل هذا السؤال. كانوا فى صحفنا أيضا يتكلمون عن تطورات «الحرب» وعن مفاوضات «السلام»، وعن بطولة الفدائيين الصامدين فى بيروت، وينشرون قصائد حرة وقصائد عمودية كأن هناك بالفعل حرباً حقيقية بين بلدين أو بين جيشين.

وضعت إيلين كوب البيرة صامتة أمام برنار وسألتنى بلهجة فاترة عما أريد أن أشرب. ولما طلبت القهوة انصرفت دون كلمة. تابعها برنار ببصره وقال :

ـ مسكينة!.. زوجها يمر بأزمة روحية!

فقلت بمرارة : ـ وأنت أيضا على مايبدو يا برنار!.. وأنا كذلك.

قال برنار ـ أنا أمر بهذه الأزمة منذ أربعين عاما على الأقل !

ـ أربعون عاما !.. هل ذهبت أنت أيضا إلى الحرب الاسبانية؟

شرد ببصره لحظة وقال ـ لا، كنت صبيا صغيرا وقتها، ولكن الحرب الاسبانية هى التى أتت إلىَّ .

نظرت إليه مستفهما فأكمل : كان أبى عاملا وعضوا فى حزب العمال الثورى،

وأقاموا فى مدينتنا معسكرا للاجئين الاسبان من الحرب، فتطوع أبى مع من تطوعوا للعمل فى هذا المعسكر، وكنت أذهب معه أحيانا. مازالت محفورة فى ذهنى تلك القصص التى سمعتها فى المعسكر. فظائع القتل والتعذيب التى ارتكبها الملكيون والجمهوريون على السواء. ربما يكون هذا هو السبب فى أننى لم أنضم فى حياتى إلى أى حزب، ربما يكون هو السبب فى أننى قررت عندما كبرت أن أعمل بالصحافة، قلت لنفسى قد يساعد فى شىء أن تقول الحقيقة. قد يتعلم الناس وقد يفهمون «ثم سكت لحظة وقال» تعال ! قل الحقيقة!

شرب جرعة كبيرة من الكوب الذى أمامه، ثم اندفع يقول فى شىء من الغضب

ـ لن يمنعك أحد، فنحن بلد حر!.. ولكن انتظر ما يجرى لك!.. ستظل طول عمرك من «التقدم» إلى «التقدم»!.. من صحيفة صغيرة إلى صحيفة أصغر. سيتحملونك ويشفقون عليك ..

ثم لوح باصبعه فى وجهى منبها ـ على ألا تتجاوز حدك مع ذلك!.. يجب أن تعلم أين تقف.

قلت فى حزن :

ـ إذن فهذا هو الحال فى الدنيا كلها !

ـ لا أعرف الدنيا كلها. أعرف نفسى فقط. أعرف الآمال الكبيرة التى بدأت بها وأعرف كيف انتهت. أعرف أن ابنى نفسه الذى حاولت أن أعلمه منذ الصغر كل ما عرفته عن الدنيا، الذى قلت سأربيه على الحقيقة يعمل الآن تاجرا للسلاح. يبيعه للأفريقيين لكى يقتلوا بعضهم بعضا ويكدس هو مئات الألوف. لا أدرى، ربما يكدس الملايين. أعرف أنى عندما حاولت أن أمنعه سخر منى وتشاجر معى. قال إنى أريده أن يصبح فاشلا مثلى! لم يكن ينقص إلا أن يصفنى بأننى أبله. لا أتلقى منه حتى بطاقة صغيرة فى عيد الميلاد!.. ومن يدرى ماذا سيفعل جان ـ باتيست عندما يكبر ؟

ولزم الصمت من جديد. وكان حديثه قد ملأنى بالهم فأردت أن أنصرف ولكنه

عندما لاحظ أنى أهم بالقيام ، قال

ـ انتظر.. أنت لم تشرب قهوتك بعد.

وكانت إيلين لحظتها تضع أمامى فنجان القهوة متجهمة الوجه فقال لها برنار بهدوء

ـ هذا السيد يا إيلين لا علاقة له بما حدث لزوجك.

نظرت إيلين إليه ملياً فكرر بطريقة جازمة ـ لا علاقة له!

انصرفت دون كلمة وسألته فى دهشة : ما الذى جعلك تقول هذا ؟

ـ لأنى أعرف أنه لاعلاقة لك!

ثم استرد شيئا من حيويته وقال بضحكته المعتادة: يجب أن تكون سعيدة مع ذلك!.. كانت تشكو دائما من أن يوسف يشرب النبيذ منذ أن يستيقظ فى الصباح وحتى ينام فى المساء، وهو الآن لايذوق الخمر. تغيير روحى كبير.

سكتٌّ آملا أن يكمل حديثه ولكنه قال لى :

ـ لا تتطلع إلىَّ هكذا! أنا لا أعرف شيئا عن يوسف ولا عن تغييره الروحى. ولكنى أعرف شيئا عن الأمير.

انتبهت تماما عندما ذكر الأمير، ولكنه تردد لحظة قبل أن يقول : من واجبى أن أقول لك. أعتبر نفسى مسئولا لأننى أنا الذى قدمتك إلى يوسف وطلبت منك أن تساعده فى العمل فى هذه الصحيفة مع هذا الأمير، وقلت لك إنه أمير تقدمى.

ـ وما الذى جدَّ؟ أليس بالفعل تقدميا؟

ـ يتوقف هذا على ماتعنيه بالكلمة. ولكن أرجو على أى حال ألا تكرر ما سأقوله. إن صحت مصادرى فهناك طبخة كبيرة يعدونها الآن لمنطقتكم وما يجرى فى لبنان هو مجرد بداية. هناك إعادة ترتيب كاملة للأوراق ومفاوضات سرية بين كل الأطراف، مفاوضات بين دول وبين أجهزة وبين منظمات وسموّه ضلع رئيسى فيها..

قلت بعد سكتة قصيرة ـ لست مندهشا.

ـ هل كنت تعرف إذن؟

ـ لا، لا أعرف أية تفاصيل وليست عندى مصادر كمصادرك ولكن كانت عندى شكوكى فى هذا الأمير وفى علاقاته منذ البداية وحذّرت يوسف منه.

تفرس فى وجهى وهو يقول : ـ أخطأت فى ذلك ياصديقى. هؤلاء الناس لايحبون أن يكتشف عنهم أحد أى شىء، والأفضل إذا اكتشف أحد شيئا أن يصمت!

★★★

لم استغرب بعد ماسمعته من برنار من فشل محاولاتى فى الاتصال بالأمير حامد.. غيرْ أنى أخفيت كل ماسمعته عن بريجيت. لم أذكر الأمير قط. تمنيت أن تظل على اقتناعها بأن كل ماحدث منه هو مجرد محاولة لاستعراض ثرائه. عرفت أنها لو شكت فى أن هناك شيئا آخر وراء المسألة ـ لو عرفت أن الأمير ربما كان يجس نبضها ليصل عن طريقها إلى ما أعرفه أنا أو ليستخدمها كسلاح ضدى ـ فسيفتح ذلك الجروح القديمة. الجروح التى حاولت أن تداويها بالهرب إلى هذه المدينة والتى قد تهرب الآن منها. وكنت أعرف أن ما أفعله ليس فيه شىء من الأمانة وأعرف أنى أنانى، ولكنى لم أحتمل فكرة أن أفقدها.

ودفعنى الاحساس بالخطر إلى أن أتشبث بها وأغوص أكثر فأكثر فى الدوامة التى تجرفنا معا، تحولت الموجة إلى طوفان عارم يغمر الليل والنهار معا، وكنا نتقلب فى هذا الطوفان دون أن نضيع فيه، نندمج معا فى موجة واحدة، فى قطرة واحدة لاتنفصل.

وهل كنت أنت أيضا يابريجيت تشعرين بالخطر؟.. كنت تعطين من نفسك دون تردد، نلج معا آفاقا لم نرتدها من قبل فى لهفة محمومة لانريد أن تضيع دقيقة. وكنت أحتضنك أتحسس كل جزء من جسمك كأني لو تركتك يدى فستتسربين من

بين أصابعى، كأنى لو لم أضمك بين أحضانى فستتلاشين فجأة. أتحسسك كأن أصابعى ستخلد إلى الأبد هاتين الوجنتين حين تتضرجان بالرغبة، حين ترتسم فيهما تلك الخطوط وأنت فى قمة النشوة وكأن وجعا لايحتمل يتخلل فرحة لاتحتمل، أتحسس الشفتين اللتين تنفرجان فى تأوه يرتعش له الجسد كله، والعنق الأبيض الطويل الذى يبرز فيه عرق واحد أزرق حين تصخب فيه دماء الحب. أتحسس كتفيك الملساوين المدورين، أريد أن أثبت فى أصابعى لحظة انتفاضهما تلك لتظل حية إلى الأبد، حين ينهض صدرك شامخا مستنفرا وأنت تلهثين. أمرُّ بيدى على ذراعيك الجميلتين، على ساقيك البيضاوين الطويلتين، على هاتين القدمين الرقيقتين الناعمتين، اللتين تحملانك فوق الأرض بخفة، كجناحى حمامة بيضاء. أمر بشفتى على جبينك، أتحسس عند منبت الشعر زغبا يدغدغ كل حواسى. أقبّل جفنيك وأمرُّ بجانب يدى على تلك الرموش الطويلة الناعمة. أتأمل عينيك الزرقاوين حين تنيران بلمعة الصبوة .

أريد أن أخلدك فى أصابعى وفى يدى وفى شفتى. أخشى فى قمة الحب من الفقد. أخشى ونحن قطرة واحدة فى الموج أن ننفصل.

وشعرت أنت رغم كل شىء أن هناك شيئا غير عادى يحدث. وقلت فى لحظة كنت أغمس فيها شفتى فى المكان الذى أحب، فى تلك الفجوة بين رقبتك وكتفك وأنا أمسّد غابة شعرك الذهبى، أغطى بها وجهى، قلت فى ضحكة صغيرة وأنت تتحسسين بدورك شعرى الخشن، الذى كان ملمسه يثيرك .

قلت ـ أصبحت شرها هذه الأيام !.. ما الذى جرى لك؟

ولم أرد، كنت مخدرا بالحب وبعطر جسدك.

فأكملت ضحكتك وقلت : ليس لأنى أقل شرها!.. ولكنى أخاف عليك.

قلت دون أن أرفع رأسى: طبيبى يقول إنى لم أكن فى أى وقت أحسن منى الآن.

ـ أرأيت؟ ألم أقل لك إنا نجونا بالحب؟ ومع ذلك فيجب أن نأخذ حذرنا . يجب

أن نتعقل قليلا.

وشعرت أنت بجسدى يتوتر قليلا بعد كلمتك، فرحت تربتين بيدك على ظهرى وتسألين :

ـ هل أغضبتك؟

ـ نعم !.. نقص حبك!. تكررين كلاما كالذى يقوله العشاق قبل الانفصال!

فقلت وسط قبلات متقطعة ـ كم مرة قلت هذا الكلام؟.. هل يبدو علىَّ أنى سأنفصل عنك؟.. لن أسمح لك أنت حتى أن تنفصل عنى لو أردت!.. أنت ملكى.. كنت ضائعا منى وقد وجدتك. أريدك أن تبقى ملكى طويلا. ملكى إلى الأبد.

فتمتمت وكأنى أكرر عبارة محفوظة : لو أن الزمن لايكون!..

ولكنى لم أذكر بالضبط متى سمعت هذه العبارة.

★★★

فى خلال تلك الأيام المشحونة ، تلقيت رسالة رقيقة من رئيس التحرير فى القاهرة.

كنت قد أرسلت إليه إيصالات المستشفى، فكتب فى رسالته إن الصحيفة ستسدد تكاليف العلاج وتمنى لى أن أقضى فترة نقاهة مريحة، لكى يعود إلى الصحيفة قلمى «الذى يعتز به»!.. ونصحنى مرة أخرى بألا أرهق نفسى وبألا أعود إلى الكتابة إلا عندما استرد عافيتى تماما. وقال إنه عمل بنصحيتى فلم يبلغ أحدا فى الصحيفة بمرضى لكى لايصل الخبر إلى الأسرة والأولاد.

أثَّرت فى نفسى رسالة رئيس التحرير بالفعل. كنا زميلين قديمين لم تتوطد الصداقة بيننا أبدا لأن فكرته عن الصحافة كانت تتلخص فى أن كل سلطة فى الحكم على حق حتى ترحل، وهو يضع قلمه فى خدمتها. لكنه كان شخصا ودودا مع زملائه لا يتردد فى تقديم الخدمات البسيطة التى يستطيعها بحكم منصبه. وحمدت له بالذات تلك الإجازة المفتوحة التى قدمها لى لكى أسترد صحتى. فقد

أراحتنى من متابعة الصحف وكتابة الرسائل الشهرية والبحث عن الأخبار الطريفة أو عن أى أخبار أخرى.

ولكن كان من الصعب أيامها ألا أتابع مايحدث فى لبنان. وكانت الأخبار مثل الضربات المتلاحقة على الرأس. تدمير وسط بيروت بكل أنواع القنابل، ٢٥٠ قتيلا فى غارة واحدة من قنبلة فراغية. الموافقة على ترحيل الفدائيين من لبنان.. وصول قوة أمريكية للإشراف على ترحيل الفلسطينيين.. إلخ. وكنت أتابع أيضا تطور حملة صحيفة التقدم على انتهاك إسرائيل لقوانين الحرب الدولية واستخدامها للأسلحة المحرمة. وأقرأ أيضا رسائل الاحتجاج الغاضبة التى يبعث بها أنصار إسرائيل إلى الصحيفة. وكانت أعنف رسالة قرأتها بتوقيع «أ . ف . دافيديان، رجل الأعمال» الذى كتب يقول إن الصحيفة تنزلق فى طريق خطر وإنها تروج الأكاذيب المختلقة التى تذيعها منظمة التحرير. وقال إن الحرب فى لبنان هى باختصار لطرد المخربين الذين يقتلون نساء إسرائيل وأطفالها فى الجليل. وذكّر الصحيفة بأن ملايين النساء والأطفال من اليهود قد ماتوا فى معسكرات النازيين المجرمين فى أوشفيتز وبوخنفالد والمعسكرات الأخرى «فهل تريدون أن يستمر اليهود فى دفع هذه الضريبة إلى الأبد؟.. لايحتاج الشعب اليهودى إلى دروس فى الأخلاق أو فى الإنسانية من أحد».

وقلت لنفسى بعد أن قرأت هذه الرسالة.. من يقرأ هذا الكلام ياسيد دافيديان يعتقد أنك أنت أيضا دفعت الضريبة فى أوشفيتز!.. أما أغلب ظنى فهو أنك كنت أيامها فى قصر كبير فى حى «الظاهر» فى القاهرة أو فى «ستانلى» فى الإسكندرية، تعيش عيشة المليونيرات وتفكر فى الولائم والصفقات أكثر من تفكيرك فى جرائم النازيين.

ومع ذلك فكل شىء يصلح، الحديث عن النازية والخيل العربية وهدم مبانى الفقراء القديمة والتبرعات لإسرائيل. كل شىء يصلح مادمت تنجح!

موت طفل واحد هو موت للدنيا كلها بالطبع، ومع ذلك فلن يسألك أحد كم طفلا

قتلوا فى الجليل: خمسة أو عشرة؟.. وكم ألفا من الأطفال أبادتهم إسرائيل فى لبنان ومن قبلها فى فلسطين ؟.. ولم لا؟.. لست وحدك!

كانت الأخبار فى الصباح تتحدث عن سقوط مئات القتلى والجرحى كل يوم فى المدينة المحاصرة، فينقل تليفزيون البلد فى المساء احتفالا مهيبا مليئا بالمراسم الدينية وبالدموع وبالغضب لدفن أربعة جنود إسرائيليين سقطوا فى «الحرب». لا يحزن العرب لقتلاهم بالطبع! ولم لا؟ هناك بشر حقيقيون وبشر لاحاجة لهم على الإطلاق. وكنت قد قرأت فى صحيفة «التقدم» أيضا هذا التصريح لبشير الجميل، المرشح رئيسا للبنان، وقال فيه «هناك فى منطقتنا شعب لالزوم له. اسمه الشعب الفلسطينى»!

وعرفت معظم الأخبار من التليفزيون فى أوقات غياب بريجيت. تابعت ابتسامات المبعوث الأمريكى إلى لبنان فيليب حبيب وتصريحاته عن نجاح خططه لوقف إطلاق النار. وحاولت ألا أفكر فى أن أمريكا هى التى زودت إسرائيل بالطائرات والقنابل التى تقتل وتشعل النار، وهى نفسها التى ترسل المبعوث لوقف إطلاق النار. حاولت ألا أفكر فى أنها هى القاتل وهى المعزّى. وما فائدة مثل هذه الأفكار مادامت هى نفسها أيضا التى توسطت لترحيل المقاومة من لبنان؟.. مادامت قد قررت وأرسلت بالفعل تلك القوة العسكرية مع حلفائها لنفى المقاتلين الفلسطينيين من هناك ووقعنا نحن معها على ذلك وتصافحنا؟.. مادام كل شىء قد انتهى وبدأت المقاومة تخرج من لبنان؟

ولكن كاتبا واحدا فى البلد لم يطق أيامها صبرا. أخيرا فعلها برنار!

شد بصرى فى ذلك الصباح عنوان العمود الذى كتبه «المعصومون» وكدت أكذّب عينى منذ بدأت أقرأ العبارات الأولى فى المقال : «أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام. أصابه الخرس فلم ينطق شيئا عن الجرائم ضد حقوق الإنسان مادامت تأتى من الدولة العبرية. يرجع صحفيون من هناك يريدون أن يحكوا عن الفظائع التى رأوها لكن مايكتبونه لاينشره أحد. أليس كذلك ياعزيزى لورانس؟..

تقول إن هناك أصواتا ترتفع على استحياء؟.. ولكن انتظر!.. سيأتى الرد عليها فورا فى أبواب بريد القراء المفتوحة على مصاريعها فى كبريات صحفنا. تلك الأصوات الشجاعة هى بالطبع معادية للسامية!

سيشهرون فى وجهك مسألة أفران الغاز الهتلرية. تقول إنك لم تكن قد ولدت أيام جرائم الإبادة هذه؟.. لا يهم . أنت مسئول عنها أدبيا. فإسرائيل من المحرمات. إسرائيل معصومة لايمسها أحد!.. وكل مايفعله ذلك البلد فهو حسن .

ولكنك ستقول إنه لاتوجد جرائم رديئة وجرائم حسنة. لاسيما إن كان ضحاياها من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى على أسرّة المستشفيات..

إذن فأنت يسارى متطرف مهيج وعميل لمنظمة التحرير..»

• واستمر المقال بهذه اللهجة الغاضبة ثم ذيله برنار بعبارة تحت توقيعه قال فيها «أفهم بالطبع بعد هذه الكلمة أنى معاد للسامية فلا داعى لأن يكتب أحد لكى ينبهنى إلى ذلك»!

لم أقرأ فى حياتى فى صحيفة فى البلد كلاما من هذا النوع. وقلت لابد أن أقابل برنار لأعرف منه ما الذى حدث بالضبط وما الذى قالته لورانس التى يشير إليها فى كلمته. وفكرت أن أطلبه وأحدد معه موعدا غير أنى تذكرت تجربة لقاء الممرضة النرويجية ماريان فقررت أن أؤجل ذلك. وكنت قد اتخذت قرارا حاسما آخر فى تلك الأيام هو ألا أشاهد على شاشة التليفزيون خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت أو أن أقرأ شيئا عن الموضوع ، ولما دخلت إسرائيل بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل فلم تجد غير حفنة من كتائب «المرابطين» الناصريين يردون على المدفعية والدبابات بالبنادق قررت ألا أفتح التليفزيون على الإطلاق. قلت هذا يفوق حتى تعذيب الذات.

غير أنى لم أستطع الهرب طويلا. ففى المساء نفسه الذى قرأت فيه كلمة برنار جاءتنى المكالمة التليفونية. أيقظتنى من نوم قلق بعد الظهيرة. كان هناك صوت غير واضح يتكلم اللهجة اللبنانية.

ـ حضرتك الأستاذ..؟

ـ نعم .

ـ معك سامى من الصليب الأحمر اللبنانى.

ـ أهلين .

حاولت أن أتذكر بسرعة : هل أعرفه؟

لكن سامى قال بصوت متهدج : معى صاحبك المصرى الأستاذ إبراهيم يريد أن يتكلم معك. حاول أن تهدئه الله يرضى عليك!

قلت فى لهفة : إبراهيم

فجاءنى صوته من الطرف الآخر متحشرجا ومتقطعا : اسمع توجد جبال من... جبال!

ـ إبراهيم!.. ارفع صوتك قليلا من فضلك. أنا لا أسمعك . كيف حالك؟

ـ ملعون حالى! قلت لك توجد جبال من الجثث. ويوجد ملايين من الذباب. الذباب مازال يغطى عينى، وتحت جلدى رائحة الموت.. أكتب أكتب ما أقوله لك بسرعة .

فتشت بحركة آلية على المكتب عن قلم وأوراق وأنا أهتف فى السماعة

ـ لا أفهمك يا إبراهيم . ماذا تريدنى أن أكتب؟ أى ذباب؟

رد إبراهيم فى صراخ غاضب. أكتب ما أقوله لك. فى صبرا تغطى جبال من الذباب جبالا من الجثث. لا، أشطب هذا. أشطب الذباب، ما أهميته؟ لا أستطيع أن أفكر. أنتظر لحظة.. ولكن الذباب مازال بالفعل يطن فى أذنى... آسف. ولكن لم يعد هنا مكان أكتب فيه. بعد أن خرجت المقاومة أغلقوا صحفنا كلها. أريد أن أقول لك ما رأيته قبل أن يضيع الوقت. لابد أن تسجله. انتظر لحظة.. انتظر.

ساد الصمت لحظة قبل أن يأتى صوت سامى.

ـ رجوتك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم. حالته صعبة!.. كلنا والله حالتنا صعبة بعد ما رأيناه فى صبرا وفى شاتيلا. ولكن الأستاذ إبراهيم مريض بالسكر كما

تعرف.. يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا. ها أنذا أقولها أمامه بالصوت العالى، يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا...

ولكن إبراهيم اختطف السماعة وجاء صوته صارما وشعرت أنه يبذل مجهودا جبارا لكى يتمالك نفسه : إسمع. لايوجد وقت. لن أجد حتى التليفون الذى اتصل بك منه لو ضاعت هذه الفرصة. ماذا نشروا عندكم عما حدث فى صبرا وشاتيلا؟

ـ لم ينشروا شيئا، ما الذى حدث؟

صرخ ـ كيف؟ ولا حتى فى أوروبا؟ منذ ثلاثة أيام تدور المجازر هنا. منذ دخلت إسرائيل إلى بيروت والمجازر تدور. كيف لم ينشروا شيئا؟

أنا عائد توا من صبرا وهناك...

ولكن إبراهيم لم يكمل . كانت هناك صفارة طويلة وانقطع الاتصال.

ظللت أصرخ فى السماعة الميتة : إبراهيم! إبراهيم!.. ماذا حدث؟

ماذا حدث؟.. جريت أفتح التليفزيون. كان هناك مسلسل «دالاس».

تركت التليفزيون وفتحت الراديو. أدرت المؤشر بسرعة على المحطات . لم تكن هناك نشرة أخبار. كانت هناك موسيقى وأغان فى كل مكان. ولكن بينما أدير المؤشر بسرعة وبلا انقطاع إلى اليمين وإلى اليسار انقطع المسلسل فى التليفزيون. ظهرت مذيعة تقول بوجه جامد: وصلتنا توا رسالة خاصة من بيروت. ننصح الأشخاص الحساسين والمصابين بأمراض خطيرة بألا يشاهدوا هذه الرسالة.

صمت . ظلام على الشاشة. دون أى مقدمات يظهر مذيع أعرفه اسمه جان ـ باسكال. نحيل وفى وجهه وعينيه تعبير حزن غير محدد. الآن فى عينيه غشاوة ندية من الدمع. كان يرتدى القميص والبنطلون ومن خلفه بقايا بيت مهدم. كانت شمس، وكان عرق يتفصد من جبينه. ظلت الكاميرا مسلطة على وجهه فترة قبل أن ينطق.

قال بصوت حاول أن يجعله هادئا : سيداتى وسادتى المشاهدين.. فى خلال عشرين عاما من العمل هذه هى الرسالة التى تمنيت ألا أنقلها إليكم..

يرتعش صوته مع ذلك وهو يقول : هذه أول مرة تدخل فيها الكاميرا إلى مخيم صبرا بعد المذابح ضد الفلسطينيين خلال الأيام الماضية..

تتجول الكاميرا بعد ذلك فى صمت. تتجول وسط أزقة ضيقة. وسط بيوت مدمرة تبرز منها أسياخ حديد ملتوية وبقايا أثاث محطم ولكن لامظهر لأى حياة تتحرك. ثم تتمهل الكاميرا وهى تنقل الصور من بعيد.

أكوام من الجثث ملقاة على الأرض.

جثث وراء جثث. وجثث فوق جثث..

كومة لجثث مختلطة لرجال ونساء ملقاة على وجوهها وجنوبها وظهورها.

كومة أخرى ترتمى على ظهورها وسيقانها منفرجة، نساء وأطفال..

كومة ثالثة جثث رجال منتفخة كأن جلودها وثيابها ستنفجر فى أى لحظة..

بحيرات دم متجلط تحت الرؤوس وحول الأجساد .

جثث أخرى لرجال وأطفال يحتضنون بعضهم البعض بسواعد ملتوية..

جسد محشور يتدلى نصفه الأعلى فقط من بين الأنقاض ورأسه منكس فى الأرض، رقبته من الخلف مجزوزة بالعرض..

طفلتان متجاورتان، نصفهما العلوى عار.. حاول أحد أن يغطى نصفهما السفلى بصحيفة مفتوحة فلم ينجح ، تبرز السيقان الصغيرة منفرجة.

ترتعش الكاميرا عندهما وتقترب قليلا، واحدة من الطفلتين فى مكان العينين فجوتان تجلط فيهما الدم.

كومة جثث ممدودة الأذرع إلى جوار جدار مهدم، كأنها تتسلق بعضها البعض.. فى الجدار ثقوب رصاص وخطوط دم بالطول.. أصابع جريحة كانت تتشبث قبل السقوط..

جثث كأنها تسجد إلى جوار حصان أبيض يرتمى على جنبه وجرح كبير يشق

بطنه وقد انتفخ كفلاه وظل ذيله متشنجا.. إلى جواره عجوز أشيب تبرز ساقاه النحيلتان من جلباب أبيض، بجانبه عكاز تمتد يده إليه وفى رأسه ثقب مدمم.

فوق الحصان ذباب كبير، وفوق الجثث ذباب كثير.

يرن التليفون مرة أخرى فلا أمد يدى إليه. أظل مسمرا مكانى أتابع الصور على الشاشة.

تنتهى الرسالة القصيرة يقول جان ـ باسكال بصوته المتهدج لم نستطع أن ننقل لكم كل الصور التى شاهدناها فى صبرا وفى شاتيلا. بعضها لا تحتمله عين بشر.. يقول كلاما كثيرا لا أستوعبه.

أمد يدى شاردا إلى سماعة التليفون. هو صوت إبراهيم من جديد. يقول سأمليك الآن بسرعة. أخشى أن ينقطع الاتصال مرة أخرى. أكتب، فى صبرا وفى شاتيلا ذبحت إسرائيل والكتائب وجيش سعد حداد آلاف الفلسطينيين...

صرخت : آلاف؟.. يوجد من هذه الصور آلاف؟

لم يسمعنى إبراهيم. قال : هل تكتب؟.. معك القلم؟.. سأقول لك الوقائع واكتبها أنت بعد ذلك كما تشاء . عندما وصلت إلى صبرا كانت الجثث تصنع حواجز فى أزقة المخيم الصغيرة. حواجز يجب أن تعبر فوقها إن أردت أن تمر وأن تتجول فى المخيم. يجب أيضا أن تعبر رائحة الموت وسحابات الذباب. فى واحد من الشوارع كانت الأرض زلقة. غاصت قدمى. كان هناك جير طرى على الأرض يغطى حفرة كبيرة. ومن هذه الحفرة كانت تبرز رؤوس مهشمة وأذرع وسيقان مسودّة.

ـ ولكن كيف؟ كيف قتلوا كل هؤلاء؟

ـ بكل الأسلحة. بالرشاشات، بالبنادق، بالسكاكين، بالبلط، بالسيوف، بالخناجر، بالجرافات التى هدمت البيوت على من فيها من أحياء وأموات، بالدبابات الإسرائيلية التى كانت تدك المخيمات طول الوقت تفتح للجزارين الطريق، بالسحل فى الشوارع، ببتر الأعضاء..

سكت إبراهيم لحظة وكان يلهث. ابتعد.

قال سامي يائسا: ألا تستطيع يا أستاذ أن تهدّئه؟.. هو يتجول حتى الآن بحريته ولكنى أقول لك إنه عاش بمعجزة . لولا أنه يشبه الأوروبيين ومعه تصريح مزور لقتله الإسرائيليون أو الكتائب منذ زمن. الرب يرحمنا!.. ولكن صدقه يا أستاذ. ما رأيناه هنا تهون جنبه رؤيا يوحنا!. من مات فى الحرب رحمه ربه. هنيا له من مات فى الحرب!

اختطف إبراهيم السماعة مرة أخرى. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا : هل كتبت كل ما قلته لك؟

ـ نعم.. تقريبا كله.

ـ إذن اكتب هذا. فى مدخل المخيم بيت لصاحب محطة بنزين عجوز أعرفه اسمه مقداد، ذبحوه وذبحوا كل أسرته، أولاده وبناته وأحفاده وأزواج البنات ، كلهم قتلوهم ذبحا، أحصيت بنفسى أربعين جثة فى بيت مقداد. كلهم جزروهم وبتروا أعضاءهم واغتصبوا كل النساء والبنات ثم تركوهن عرايا..

ارتفع صوت إبراهيم . لم يعد هادئا وهو يقول : رأيت زينب مقداد. كانت حاملا فى شهرها الأخير. شقوا بطنها وأخرجوا منه الجنين. مزقوا أطرافه ووضعوا ساقيه وذراعيه وجسده على شكل دائرة على صدر أمه بعد أن بتروا ثدييها، وضعوا رأس الجنين وسط الدائرة وكان الدم متجلطا وكان الدود والذباب يأكل فى الرأس المبتور..

تقيأت على الفور. خرج كل ما فى جوفى دفعة واحدة.

سمع إبراهيم سعالى وشهقاتى فأجهش بالبكاء لأول مرة.

وجاء صوت سامى فى السماعة يكرر مؤنبا: طلبت منك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم، فماذا فعلت؟

ومن بعيد كان صوت إبراهيم كأنه فى حلقة ذكر: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!

وكنت أقول بصوت متحشرج وسط السعال : أستاذ سامى ـ أعطنى .. أعطنى.. رقم التليفون.. من فضلك أعطنى..

ولكن كل الرد من الناحية الأخرى كان صفارة طويلة.

فى التليفزيون كان مسلسل دالاس مازال يدور دون صوت . فى أذنى كان إبراهيم يتكلم وكان جان باسكال يتكلم وكنت أحاول أن أنظف الأرض والمكتب بمنشفة وكان جرس الباب يدق بإلحاح وعندما فتحته وجدت بريجيت.

دخلت وهى تترنح وتمد يديها أمامها كالضريرة، وكانت عيناها ميتتين بالفعل وقالت فى همس متشنج : أرأيت؟.. أرأيت؟

أشارت بيدها إلى التليفزيون وقالت : كنت فى المقهى المجاور ورأيت الصور.. أرأيت؟

ثم ارتمت على صدرى وهى تكرر كلمتها : أرأيت؟.. قتلوا كل أطفال العالم! أرأيت؟

وكان جسمها كله ينتفض وهى تتكىء على كتفى.

وكنت أنا أيضا أنتفض.

★★★

الفصل الحادى عشر

صعــــود الجبــــل

سجلت كل ما قاله لى إبراهيم.

قلت أقسم أن أكتبه ، أقسم أن أكتب ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى . ولو اضطررت أن أحمله على لافتة وأمشى به فى الشوارع .

لكن أول شىء فعلته فى الصباح كان هو أن توجهت إلى مكتب الصليب الأحمر فى المدينة .

فكَّر كثيرون مثلى ووجدت المكتب مزدحما بالعرب . وكانوا يتزاحمون حول موظف واحد فى حجرة الاستعلامات ، وسمعت نشيجا كأنين متصل يصدر من ركن فى الغرفة يخفى الزحام مصدره . وراح المتجمعون حول الموظف الجالس خلف مكتبه يبرزون صور نساء وأطفال وهم يحاولون جميعا أن يشرحوا له وهو يدون فى ورقة ويصيح : الأسماء !.. الأسماء أولا !

رأيت موظفا يقف فى ركن من المكتب وحوله أشخاص آخرون يتكلمون جميعا فى وقت واحد وبأيديهم أيضا صور وظروف مغلقة ، وظل هو يشير طوال الوقت إلى لافتة مكتوبة بعدة لغات من بينها العربية : «الاتصالات التليفونية والبريدية ببيروت مقطوعة. أترك استفسارك ورقم تليفونك وسنتصل بك بمجرد أن تصلنا المعلومات» .

زاحمت الآخرين حتى وصلت إلى هذا الموظف وقدمت له بطاقتى الصحفية، رفعها وألقى عليها نظرة ، وأشك أنه فهم أى شىء وسط الضجة التى تحيط به

لأنه ردّ إلىّ البطاقة واكتفى بالإشارة إلى اللافتة المعلقة ثم انصرف عنى إلى غيرى. لكنى أمسكت بذراعه وقلت له : من فضلك ! .. استمع إلىّ أنا صحفى وبالأمس تلقيت مكالمة من مكتبكم فى بيروت منْ شخص اسمه سامى ..

ولكن آخرين كانوا أيضا يجذبونه من ذراعه ويوجهون له أسئلة فيرد «حالا .. حالا..»

قلت فى يأس : أريد أن أعرف كيف أتصل بسامى فى بيروت !.. هناك زميل صحفى فى بيروت .

ردّ على فى بطء ليشعرنى أنه كان يتابعنى وقال ، فهمت ، ولكن أؤكد لك ياسيدى أن جميع الاتصالات ببيروت مقطوعة منذ خمسة أيام مركـزنا الرئيسى يتصل بالأمم المتحدة و ... وبالجهات الأخرى لفتح الاتصال بالمكتب من جديد. أنت صحفى وتستطيع أن تتأكد مما أقوله . أنا لا أعرف كيف اتصل بك موظفنا من هناك ، ولكن اترك اسم صديقك ورقم تليفونك ...

ثم تحول إلى غيرى وكانت هناك سيدة بدينة تربط رأسها بإيشارب مشجر تقف إلى جوارى صامتة ومستندة على عكاز . سألتنى.

– ماذا قال لك يا ابنى ؟

شرحت لها فأخرجت من صدرها كيسا جلديا صغيرا فتحته وقدمت لى صورة مهترئة لوجه شاب وسيم فى العشرين من عمره تقريبا اعتنى جيدا بتشذيب شاربه وقالت :

– هذا هو ابنى ، موجود فى صبرا . إسأله الله يرضى عليك إن كانت عندهم أخبار عنه . هو الوحيد الذى عاش لى ، بقيتهم ماتوا فى الحرب ..

كررت لها ما قاله لى الموظف، ولم أملك نفسى أن أسألها : وأنت ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ..

أشارت إلى ساقها . لم تكن هناك ساق . قالت

– نقلونى هنا ليعالجونى ، خيبة الله على ! .. خيبة الله على إن كانوا قد حكموا علىّ أن أعيش ويموت ولدى الباقى ..

لم تكن تبكى كانت تنظر نحـــوى وهى ترفع فى وجــهى الصـــورة بيــد ترتعـش وتكرر «خيبة الله على» . ثم سكتت وظلت شفتاها منفرجتين.

ولكن فى تلك اللحظة ارتفع صوت المرأة المختفية خلف الزحام وهى تقول بصوت مبحوح فى نداء عادى ، كأنما بشىء من الدهشة لا أكثر : يا ولدى ! .. يا كل الشباب!..

وصمت المكتب كله فجأة وتحولت الوجوه إلى الناحية التى صدر منها الصوت وسرت قشعريرة فى بدنى حين سمعت ذلك النداء . وأحنت السيدة البدينة رأسها وراحت تتطلع إلى الصورة وقد انطلقت دموعها الحبيسة تغمر خديها وهى تتمتم بدورها بصوت لا يكاد يبين .

- يا ولدى !.. يا كل الشباب ! ..

أسندت ظهرى إلى الحائط وقد انتابنى دوار خفيف وأنا أتطلع إلى وجهها وإلى الوجوه الأخرى فى المكتب. ولكنى انتبهت على الفور ، مددت يدى إلى السيدة واسندتها حتى وصلنا إلى المكتب ، دونت اسمها وعنوان المستشفى الذى تعالج فيه عند الموظف. وتركت اسمى واسم إبراهيم ثم غادرت المكتب.

وفى هذا اليوم والأيام التى تلته كنت أقرأ كل ما تكتبه الصحف . قالت إسرائيل فى البدء إنها لم تكن تعلم بما يدور فى صبرا وشاتيلا ، ولكن الصحف العبرية نفسها سخرت من هذه الحجة البليدة فاضطر رئيس الوزراء (بيجين) أن يقول «أغيار يقتلون أغيارا ويتهمون الإسرائيليين» !.. ألقى المسئولية كلها على الكتائبيين . قال إنهم تسللوا إلى المخيمات من وراء ظهر إسرائيل وانتقموا من الفلسطينيين بعد قتل زعيمهم بشير الجميل، الذى لم يعرف أحد مع ذلك من الذى قتله . لكن هذا الادعاء لم ينفع أيضا . واضطر وزير الدفاع (شارون) أن يعترف فى البرلمان بأنه هو الذى أدخل الكتائبيين إلى المخيمات لتطهيرها من (المخربين). قال إنه فعل ذلك لأنه لم يرد أن يدخل جيش إسرائيل إلى المخيمات حرصا على الأرواح البشرية ! .. كان يقصد أرواح الجنود الإسرائيليين بالطبع. ولكنه قال إنه لم يأمر بالمذبحة ولم يسمع بها .

ولم ينطل ذلك على أحد أيضا . وظلت الحقائق عما فعلته إسرائيل تتكشف يوما بعد يوم وأسقط الارتياع مما حدث فى المخيمات كل التحفظات فراحت الصحف تهاجم إسرائيل وتتهمها دون مواربة . ولكن صحيفة (الوطن) الكارهة للعرب باستمرار، شذت عن ذلك وراحت تهوّن من الجريمة ومن عدد القتلى وتقول إنها جزء من الحرب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، وإنه لا داعى للمبالغة فهى ليست المجزرة الوحيدة التى جرت هناك . كان دفاعها عن إسرائيل يفوق دفاع بيجين نفسه. أما افتتاحيات الصحف الأخرى فكانت كلها تشبّه ما جرى فى صبرا وشاتيلا بجرائم النازيين. وكتب (برنار) يقول فى افتتاحيته إن كل الجرائم التى ارتكبها هولاكو وأتيلا وهتلر فى سنين ، من تفنن فى القتل والحرق والاغتصاب والتعذيب نجحت إسرائيل وحلفاؤها فى اختصارها فى أربعين ساعة فقط.

وكنت أذهب كل يوم إلى المطار . أقام الصحفيون هناك ما يشبه مركز العمليات، وكنا ننتظر كل طائرة تأتى من دمشق أو من قبرص أو أثينا ، ننتظر أى زميل عائد من بيروت أو أى دبلوماسى أو أى شخص يمكن أن يكون قد رأى صبرا وشاتيلا بعد المذابح . نبحث عن أى إنسان سمع شيئا من شهود عيان عما جرى فى كابوس الأيام الثلاثة . واختفت حتى المنافسة الصحفية التقليدية، فكان كل من يعرف خبرا أو يتصل بأى مصدر يبلغ الباقين بما عرفه. بدت وجوه الصحفيين أيامها متجهمة ، تغالب نوعا من الإحساس بالعار ، وكأنما هم أيضا قد شاركوا فى المذبحة أو كانوا مسئولين عنها كأنما يجب أن يكفروا عن ذنبهم بأن يتكلموا أخيرا ويقولوا كل الحقيقة التى يعرفونها . وكانت الشهادات التى نستمع إليها تكشف عن هول يتجاوز الخيال ، ولكن المراسلين قرروا دون اتفاق فيما بينهم ألا يعملوا هذه المرة حسابا لمشاعر القراء وألا يخففوا من بشاعة ما يستمعون إليه . حتى رؤساء التحرير كانوا يتركون ما يكتبه الصحفيون كما هو فى أغلب الحالات .

كنت أكتب كل ما أعرفه ، وأرسل فى كل يوم رسالة للصحيفة فى القاهرة بما

أسمعه فى البلد ، وبردود الفعل وبأقوال الصحف . وبدأت أيضا أبعث لأول مرة مقالات للصحف العربية التى تصدر فى أوروبا ، ولم أكن أهتم بمتابعة ما ينشرونه منها وما لا ينشرونه . كان المهم أن أكتب أكبر كمية أستطيعها ، فلا بد أن يتسرب منها شىء فى النهاية .

والتقيت فى هذا المركز الصحفى المرتجل بأنطوان، رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية فى البلد . كان شابا طويلا يضع حول رقبته باستمرار الشال الفلسطينى المنقّط وقال لى إنهم سينظمون بعد أيام مظاهرة فى المدينة مع بعض الأحزاب اليسارية ، وسألنى إن كان يمكن أن أساعد فى ذلك . قال إن المظاهرات التى تنظمها تلك الأحزاب لا تضم فى العادة غير عشرات من الأشخاص ، ولكنه يتمنى لو تكون المظاهرة هذه المرة كبيرة . وأشار إلى صورة بعرض صفحة فى إحدى الصحف ، صورة لكومة من جثث أطفال محترقين ومتفحمى الوجوه وسط أنقاض بيت فى شاتيلا، وقال لى بانفعال: مظاهرة كبيرة بحجم هذه الجريمة ! .. ثم استدرك : ولو أنه لو خرجت المدينة كلها في مظاهرة فلن تكون كبيرة بما فيه الكفاية .

وعدت أنطوان أن أحاول ما يمكن عمله . ولم يكن من حقى كمراسل صحفى معتمد أن أنظم مظاهرات أو أن أقوم بنشاط سياسى داخلى فى البلد ولكنى كنت أعرف شخصا متخصصا فى ذلك .

غير أن يوسف قال لى بما يشبه التحدى : لا بد أن أسأل الأمير أولا ! ..

★★★

كنت قد اتصلت به قرب الفجر لأضمن وجوده ، وذهبت إلى المقهى قبل أن يفتح أبوابه للزبائن . فجلسنا وحدنا فى المقهى الخالى . تغير شكله كثيرا عن آخر مرة قابلته فيها باللحية الشقراء المهوشة التى تحيط بوجهه دون تنسيق ، واستقبلنى استقبالا فاترا إلى حد ما ولكنه ظل مهذبا وهو يستمع إلىّ . قلت له إنى فهمت أن له اتصالات بأبناء الحى وربما ببعض الجمعيات يوم حدثنى عن

المظاهرة ضد دافيديان وربما يمكن أن يساعد على أن تضم المظاهرة أكبر عدد ممكن ، لكنه فاجأنى بحديثه عن الأمير .

سـألت يوسف : ولكن ما علاقة الأمير بذلك ؟

ظل ينظر فى وجهى ولكن جفنيه كانا يختلجان بحركة طفيفة وظلت حدقتاه تتحركان بعصبية . ثم قال ونبرة التحدى تزداد فى صوته :

– الأمير أفهمنى أشياء كثيرة يا أستاذ ، أشياء كانت غائبة عنى ..

لم أكن أريد الدخول معه فى جدل ، كنت أحتاج إلى عونه وهذا كل ما فى الأمر .

فقلت بهدوء :

– افعل ما تشاء واسأل الأمير أو أى إنسان آخر . لا أظن أن أحدا سيعترض على أن تشترك في مظاهرة ضد هذه الجريمة ، أو على أن تساعد فى تنظيمها . كل العالم أفزعته المذبحة، حتى فى إسرائيل يتظاهرون ضدها إن كنت تشاهد التليفزيون ..

هز رأسه فى وقار وأشار بإصبعه فى وجهى وهو يقول :

– أرأيت يا أستاذ ؟ .. حتى فى إسرائيل يتظاهرون ضدها ! .. فما معنى ذلك؟

قلت حريصا على ألا أفقد صبرى : ما معناه يا يوسف ؟

– معناه يا أسـتاذ أن السياسة بحر غويط ! .. إسرائيل صنعت المذبحة وإسرائيل تتظاهر ضدها فما معنى ذلك ؟ .. طبعا أنت سيد العارفين فى السياسة ، ولكن أنا على قد حالى ، أنا كنت فى غيبوبة ولكنى والحمد لله أفقت .

– أفقت على ماذا ؟ وكيف أفقت ؟

قال وهو يهز يده في وجهى بعصبية – أفقت من الجهل ، أفقت من الضلال ! والفضل لسمو الأمير . أفهمنى أشياء كثيرة كانت غائبة عنى . هذه الدنيا يا

أستاذ غابة مليئة بالوحوش ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوياء . ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ..

– ولكن إن كان الأمير يا يوسف هو الذى قال لك هذا الكلام ، فكيف يعمل سموه مع دافيديان ؟ ..

ثم تذكرت شيئا فقلت : وماذا عن النبيذ الذى قدمه إليك يوم قابلناه ؟

ابتسم يوسف فى إشفاق وهو يهز رأسه قائلا :

– ألم أقل لسعادتك إن السياسة بحر غويط ؟ .. فى بعض الأحيان يا أستاذ يجب أن تشتغل مع عدوك وأن تدخل فى عبّه لكى تعرف سره ! الأمير يشتغل مع دافيديان ومع الجن الأزرق لكى نصل إلى غرضنا بإذن الله . ومعك حق ، سموه كان يقدم لى النبيذ عندما كنت فى الضلال ، بل هو يقدم لأعدائنا الويسكى عندما يزورونه . لكنه بعون الله لا يذوق قطرة خمر . إنما للضرورة أحكام .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول بتأثر :

– أخذنى سموه على كفوف الراحة حتى أوصلنى إلى التوبة والحمد لله . ثم أفهمنى كيف نخدم قضيتنا ...

كانت إيلين قد دخلت المقهى فى ذلك الوقت وراحت تجول بعيدا عنا ترتب الموائد والمقاعد فقلت ليوسف بلهجة عابرة :

– وذلك الحديث الذى ذكرته لى عن إيلين فى المرة الماضية .. هل قررت شيئا؟ رجع يوسف فى مقعده وتثاءب ثم قال باستهانة :

– لا . لم يكن لحديثى هذا معنى . أيامها كنت فى الضلال . يجبَ أن نبقى معا – من المهم أن أحصل علي جنسية البلد لكى أخدم القضية هنا براحتى (.. ثم رفع إصبعه أمام وجهى مرة أخرى وهو يقول) وإيلين أيضا من أهل الكتاب ...

– هل الأمير حامد هو الذى قال لك هذا ؟

لم يرد يوسف فقمت وأنا أقول :

- إذن اسأل الأمير ، وإن قال لك إن المظاهرة لا تضر قضيتنا فاتصل بى ..

نهض أيضا وهو يقول :

- لا تؤاخذنى يا أستاذ . لا أستطيع أن أتصرف من عقلى فى هذه المسائل كما قلت لك . أنا إنسان على قد حالى وبحر السياسة ...

- غويط . فهمت يا يوسف .

صافحته ، وهممت بأن أنصرف ولكن بعد أن مشيت خطوتين رجعت وسألته :

- اسمع يا يوسف . هل حكيت للأمير عن الحديث الذى دار بيننا عن دافيديان ؟

قال بنبرة التحدى الأولى وإن ظل اختلاج جفنيه :

- أنا لا أخفى شيئا عن سمو الأمير .

أردت أن أقول له شيئا ولكنى عندما رأيت وجهه ونظرته الزائغة عدلت عن ذلك وطاف بذهنى خاطر مرعب وأنا أراه أمامى : هل سيصبح خالد هكذا ؟

وعند باب المقهى فاجأتنى إيلين التى قالت لى بما يشبه الهمس ولكن فى نوع من الضراعة :

- أريد منك خدمة أخيرة يا سيدى .

- إن كنت أستطيع .

- أريد فقط أن تقول ليوسف إننى لا أمانع فى الطلاق سأتنازل عن أى حقوق.

- ولكن أنا ليس لى أى تأثير عليه يا إيلين لأطلب منه ذلك ..

غير أنها لم تسمع ، أكملت بنبرتها المتوسلة :

- يمكن أيضا أن أعطيه تعويضا صغيرا لكى يدبر معيشته بعد الطلاق . أريد أن ننفصل دون مشاكل (ثم همست بصوت مرتعش) أنا خائفة . أنا الآن أخاف منه يا سيدى ..

كانت شفتاها ترتجفان وهى تقول ذلك وتختلس النظر نحو يوسف الذى ظل واقفا يتمطى وهو يضع يديه فى جنبيه . فقلت لها :

- لا أريد أن أكذب عليك يا إيلين . لن يستمع يوسف الآن لأى شىء أقوله له. حاولى بطريقتك .

★★★

ذهبت بعد هذه المقابلة إلى الجامعة . وكنت أعرف هناك أستاذا مصريا قدمنى لبعض الطلبة العرب ، ووجدت عندهم الحماس الذى افتقدته عند يوسف ووعدونى بالاتصال بأصدقائهم من العرب ومن أبناء البلد للاشتراك فى المظاهرة.

اتصلت أيضا ببعض السفارات العربية فاعتذرت جميعها بأنها لا تستطيع أن تشترك فى مظاهرات لأن ذلك يتعارض مع التقاليد الدبلوماسية وحين شرحت أنى لا أريد منهم المشاركة ، بل المساعدة بإعطائى أسماء مواطنيهم أو عناوين جمعياتهم قالوا إن ذلك أيضا ليس من اختصاصهم .

وعاملتنى بعض السفارات بشك شديد ، على أساس أننى مدسوس من خصومهم العرب الآخرين لتوريطهم فى أنشطة مشبوهة بل قال لى مستشار صحفى بشىء من التهكم : ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة؟ .. ألم توقع على كامب ديفيد؟

قلت له : نعم ، ولكن ماذا فعل من لم يوقعوا على كامب ديفيد ؟

فخرجت من مكتبه شبه مطرود .

غير أنى لم أدخل في جدل معه ولا مع غيره . كنت أحاول بالفعل كل الطرق . وذات مرة سألت بريجيت إن كانت تعرف فى المدينة أعضاء من الجمعية التى يرأسها دكتور مولر، فسألتنى بدهشة : أية جمعية ؟.. ذكّرتها بجمعية الأطباء الدولية لحقوق الإنسان فقالت ولكن هذه الجمعية هى الدكتور مولر بالذات ! قد يكون فيها بعض أصدقائه من الأطباء فى النمسا ولكن هذا هو كل شىء . قلت ليكن . هل يمكن أن يساعدنا مولر بأى شكل ؟ هل يعرف منظمات للأطباء فى

المدينة ؟ .. هل يمكن أن يقدم شيئا لهذه المظاهرة ؟ قال لى ذات مرة إن هذه المدينة تهمه لأنها ملتقى دولى.

هزت بريجيت رأسها بالنفى بشكل قاطع قالت : مولر لا يشترك فى نشاط إلا إذا كان هو النجم .

★★★

كان صباح الأحد ، صباح المظاهرة ، مشمسا ودافئا .

وكان المفروض أن تبدأ فى العاشرة صباحا فذهبت على قدمى قبل الموعد بساعة تقريبا . قررت الشرطة منع المرور فى الشوارع المؤدية إلى الميدان الكبير الذى كان نقطة التجمع ، وفي الشوارع الأخرى التى ستخترقها المظاهرة. وحين وصلت إلى الميدان وجدته محتشدا بالفعل بالمئات ، واستمر آخرون يفدون من الشوارع الجانبية . كان معظم الموجودين من الشباب وقد أحاطوا المنصة المقامة حول تمثال الفارس بالأعلام الفلسطينية وباللافتات المكتوب عليها «كفى مذابح فى لبنان» و «بيجين وشارون قاتلان» و «كلنا مسئولون عن صبرا وشاتيلا» و «حزب العمال يدين قتل الفلسطينيين» .. إلخ .. إلخ ورأيت كاميرات تحيط بالمنصة ، ومصورين يلتقطون صورا، وجنود الشرطة فى كل مكان وفى أيديهم أجهزة الاتصال الصغيرة .

قابلت فى الميدان كل من أعرفهم . كان الطلبة العرب يوزعون منشورات تضم صورا للمجازر طبعوها على نفقتهم ، ورأيت برنار قريبا من المنصة مع صحفيين آخرين، وجاءت بريجيت ومعها صديقة لها ، ولمحت يوسف الذى تقدم منى قائلا بانفعال :

– لم أر مظاهرة بمثل هذا الحجم فى المدينة . جئت معى ببعض الأصدقاء .

– شكرا يا يوسف . استأذنت الأمير ؟

تفادى الإجابة وأشار إلى ركن من الميدان قائلا : هل ترى من هناك ؟

وكان يشير إلى رصيف بعيد عن جسم المظاهرة حيث يقف بعض الأشخاص

الذين يلبسون الطاقية الإسرائيلية وقد رفعوا لافتة حوّروا فيها عبارة بيجين لتصبح «عرب يقتلون عربا ويتهمون إسرائيل» كانوا أقل من عشرين شخصا وكانت الشرطة المحيطة بهم تفصل بينهم وبين بقية المظاهرة .

قلت ليوسف : لا شأن لنا بهم . هذه مظاهرتهم وهذه مظاهرتنا .

قال يوسف بحماس : ولكن يجب أن نعطيهم درسا !

– الدرس جاهز بالفعل يا يوسف انظر إلى عددهم واترك الناس تحكم . لا داعي للعصبية ولا للانفعال . ولكنك لم ترد على سؤالي . هل استأذنت الأمير ؟

قال بصوت خافت وهو يشيح بوجهه عني : نعم ، ولكن سموه لا يحب المظاهرات . يعتقد أنها تضيّع الوقت وتعطل العمل للقضية .

ثم التفت نحوي بوجه بائس : قلت مع ذلك إني لن أخسر شيئا لو أتيت . لن يعرف الأمير..

– الحقيقة هي أنك تعشق المظاهرات يا يوسف !

انصرف عني بخطوات مسرعة . وفي تلك اللحظة اقترب مني برنار وسألني عما قاله يوسف وعندما نقلت له ما دار قال :

– أنا أفهم الأمير . لعلمك كانت هناك جهات كثيرة تحاول منع المظاهرة ، تدخلوا عند السلطات وقالوا إنها يمكن أن تخرج عن السيطرة ويمكن أن تخل بالأمن .

– ولكن لماذا أرادوا منعها ؟

– ولماذا منعوها في بلاد كثيرة منها بلادكم العربية ؟ هم يريدون أن تموت الحكاية بالصمت كما ماتت جرائم أخرى . يريدون أن تموت الذاكرة ويموت الغضب ليستمر اللعب في الخفاء . أفهم الأمير ، ولكني لا أفهم يوسف . مسكين هذا الشاب .

ثم نظر إلى ساعته قائلا : ربما لا أبقى في المظاهرة طويلا . ستبلغني بما يحدث إن جرى هنا شيء مهم .

- بالطبع ولكن لماذا لا تريد أن تنتظر حتى النهاية ؟

قال وهو ينظر فى ساعته مرة أخرى : لا أريد أن أترك جان - باتيست وحده فى البيت . معه الآن جليسة لكنها ستنصرف فى الظهر.

- ما زال الظهر بعيدا ، فلم أنت قلق إلى هذا الحد ؟

تلفت برنار حوله وقال هامسا : هناك أشياء غريبة تحدث منذ نشرت تلك الكلمة التى قلت إنها أعجبتك ..

- نعم أقرأ الرسائل الغاضبة التى يكتبونها فى الرد عليك فى الصحيفة .

قال بلا اكتراث : دعك من هذه الرسائل . دعك أيضا من المكالمات التليفونية والرسائل البذيئة المجهولة . كل ذلك لا يعنينى . ما يعنينى هو جان باتيست .

قلت فى دهشة : جان باتيست ؟ ما علاقته بكل ذلك ؟

- هذا ما أود أن أعرفه !.. ولكننى تلقيت تحذيرا من المدرسة بأنهم شاهدوا أشخاصا غرباء يتحدثون معه عند باب المدرسة قبل أن أصل لاصطحابه . أنت تعلم أن المدرسين يراقبون الأطفال من بعيد ..

ثم عاد ينظر إلى ساعته بتلك الحركة الآلية.

قلت لأطمئنه : لا تبالغ يا برنار . لسنا فى غابة .

- حقا، وهؤلاء الأطفال الذين يختفون وينشرون صورهم فى الصحف أو يعلقونها فى مكاتب البريد كيف يختفون ؟

- أنت تعرف أفضل منى أن تلك فى الغالب جرائم انحرافات جنسية وليست جرائم سياسية .

- من يدرينى ؟

ثم أضاف بلهجته الساخرة : هل رأيت لماذا أحتاج إلى عنوان طبيبك ؟ واحذر أنت أيضا يا صديقى .

ولكن فى تلك اللحظة بدأ صوت الميكروفون، وكان رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية يقدم المتحدثين فى المظاهرة . وشرح أننا بعد أن نستمع إلى

الكلمات سنتوجه إلى مجلس المدينة وإلى سفارة أمريكا لكى نقدم البيانات والمطالب التى سنتفق عليها فى المظاهرة ثم قدَّم ممثل منظمة التحرير .

تقدم ممثل المنظمة من المنصْة . كان نحيلا يلبس نظارة طبية سميكة . وكنت أعرف عنه أنه حاصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، وأن له آراء مستقلة لا ترضى عنها المنظمة .

قال بصوته الهادىء : تاريخ المذابح ضد شعبنا قديم ومتكرر . سأحدثكم عن مذبحة واحدة فقط وقعت فى فلسطين فى سنة ١٩٤٨ . أيامها كان العرب يحاربون لكى يبقوا فى أرضهم وكان الإسرائيليون يقاتلون لطردهم من هذه الأرض . لكن سكان هذه القرية لم يشتركوا فى القتال . أعلنوا للعرب ولليهود معا أنهم لا يريدون أن يشاركوا فى الحرب ، فكافأت عصابات الإرجون الإسرائيلية سكانها المسالمين ..

هكذا بدأ ممثل المنظمة يحكى تفاصيل مذبحة دير ياسين . راح يحكى كيف أباد الإسرائيليون ثلثى سكان القرية ذبحا وطعنا فلم يبق حيًا إلا من لاذ بالفرار. حكى كيف قتلوا أطفال القرية وشيوخها وبقروا بطون نسائها الحوامل وتساءل ما الذى جرى فى صبرا غير ذلك ؟.. ومن كان رئيس عصابة الإرجون التى ارتكبت المذبحة ؟ .. أليس هو بعينه مناحيم بيجين رئيس وزراء إسرائيل هذه الأيام ؟.. أيامها لم يكن هناك تليفزيون ينقل الصور ولم تكن هناك كتائب تكلفها إسرائيل بالعمل . أما الآن فأنتم رأيتم المجزرة وعرفتم أن من ارتكبوها كانوا يطبقون الدروس التى نفذتها إسرائيل من قبل فى دير ياسين وفى قبية وفى عين الحلوة ، وأن الهدف كان واحدا فى كل مرة : إبادة الفلسطينيين ونفيهم من أرضهم ثم من كل أرض يلجأون إليها . فماذا سيفعل العالم لوقف إبادة شعبنا؟.. إن كنتم قد نسيتم كل المذابح السابقة أو لم تسمعوا بها فأنتم فى هذه المرة قد رأيتم بأعينكم ولا عذر لكم ..

وبعد أن تكلم ممثل المنظمة قدم أنطوان نائبا اشتراكيا وأستاذا جامعيا من أهل البلد . وكنت أعرفه جيدا هو أيضا . ظل على مدى سنوات ينشر كتبا ومقالات عن استغلال الغرب وشركاته الكبيرة لبلاد العالم الثالث . كان يقول دائما

إن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية ويثبت ذلك بالأرقام والإحصاءات . وعقب كل كتاب له كانت الشركات ترفع عليه قضايا ، واعتدت إن أجد فى صندوق البريد منشورات غير موقعة تطالبنى بإلحاح بألا أعيد انتخاب هذا «الخائن» للبرلمان !

بدأ حديثه فى المظاهرة أيضا بالأرقام . قال إن حوالى عشرين ألف قتيل وخمسين ألف جريح سقطوا حتى الآن ردا على ضرب سفير إسرائيل بالنار فى لندن ولإعادة السلام للجليل . قال إن هذا يذكره بما كان يشاهده فى الأفلام الأمريكية وهو صغير ، عندما كانت حفنة من الأمريكيين تقتل على الشاشة جحافل الهنود الحمر فيسقط هؤلاء بالعشرات والمئات وهم يطلقون صرخات وحشية وكأنهم ليسوا بشرا، وكأنهم يرتكبون جريمة لا تغتفر لأنهم يدافعون عن بقائهم أحياء فى أرضهم ، ولكن حين يصاب «البطل» الأميركى الفريد بجرح قاتل تتمهل الصورة وترتفع الموسيقى الحزينة وكأنما هى نهاية العالم قد حلّت . قال إنه يشعر بالخجل من نفسه حتى الآن لأنه كان يفرح فى الأفلام لقتل الهنود . لم يعلم إلا عندما كبر وقرأ كيف أباد البيض فى أمريكا شعبا كانت له حضارته ، وكان وقت اكتشاف أمريكا يمثل خمس سكان العالم .

وأنهى النائب كلمته بشىء من الغضب وهو يسأل : أليس ما رأيناه فى الأفلام هو ما يحدث الآن فى الواقع ؟ .. ألم تعط أمريكا العرب إلى إسرائيل لكى يلعبوا بهم هنودا حمرا ؟ .. إن قتلت منهم إسرائيل الآلاف فهم مجرد أرقام ، وإن سقط إسرائيلى واحد فهى الكارثة والإرهاب ؟ ..

وسكت لحظة قبل أن يقول : إنها إهانة للعقل وإهانة للسلام أن تسمى إسرائيل هذه المجزرة المتصلة وهذا الطوفان من الدم باسم «السلام للجليل» .

وفى تلك اللحظة ارتفع صوت يهتف : الموت لإسرائيل ! .. تسقط أمريكا !

كنت أعرف الصوت وإن لم أر الوجه ، كان هو يوسف . وردد وراءه الهتاف اثنان أو ثلاثة . ولكن ممثل منظمة التحرير اختطف الميكرفون من المتحدث وقال: لن تكون هناك هتافات . أرجوكم نريد أن نحافظ على النظام فى المظاهرة وأرجو أن تساعدونا على ذلك .

وتتابعت بعد ذلك خطب من ممثلى الأحزاب والنقابات والمنظمات وتشنج يوسف مرة أخرى بعد كلمة لأحد المتحدثين فأسكته المحيطون به فى غضب . وأردت أن أتوجه إلى حيث يقف لأطلب منه أن يهدأ ولكن فى تلك اللحظة كان شخص يتحدث فى الميكرفون شد إليه كل الانتباه . كان رجلا طويلا عجوزا، أشيب، ناحل الشعر ولكن صوته خرج قويا لا يتناسب مع مظهره وسنه .

بدأ كلمته بعبارة : اسمى رالف وأنا صحفى وأنا يهودى وأمريكى ..

كنت أول من دخل صبرا بعد المجزرة . دخلتها بعد آخر موجة من المذابح. التقطت صورا وسجلت ما سمعته ممن ظلوا على قيد الحياة ولن أقول لكم كل ما رأيته ولا كل ما سمعته . أنا متأكد أنكم تعرفون ما فيه الكفاية .. سأقول لكم أشياء قليلة لا غير .

أنتم سمعتم أن الكتائبيين وقوات سعد حداد وقوات مسيحية أخرى هى التى . ارتكبت هذه الجرائم وأنا أقول لكم إن إسرائيل هى التى دبرت ورتبت هذه المجزرة وشاركت فيها من الألف إلى الياء وسأقدم لكم الدليل .

وبدأ رالف بعد ذلك يقدم الدليل . قال إن إسرائيل احتلت بيروت الغربية يوم الأربعاء فلم تواجه أى مقاومة تقريبا . لم يكن قد بقى أحد ليدافع عن المخيمات بعد نفى الفدائيين ، ولكنها حاصرت صبرا وشاتيلا من جميع الجوانب بالدبابات والمدفعية . ومنذ صباح الخميس أول أيام المجزرة – بدأت تقصف بيوت المخيمين بالمدافع فسقط الكثير من القتلى والجرحى . خرج من مخيم شاتيلا وفد من المسنين يرفع الأعلام البيضاء . أرادوا أن يقولوا إن المخيمات لم يعد فيها من يحارب وهى تستسلم ويمكن للإسرائيليين أن يدخلوها دون قتال إن أرادوا . لكنهم قتلوهم على الفور. ذكر رالف أسماءهم وأكد أنهم كانوا جميعا فوق الستين. فى ذلك الوقت لم يكن بوسع أحد أن يدخل المخيمين أو أن يخرج منهما إلا من خلال الكماشة الإسرائيلية وفى مساء الخميس أدخلوا عصابات القتلة المأجورين . قال رالف إن البعض قد يسميهم كتائبيين أو غير ذلك ، ولكنه لا يسميهم غير قتلة محترفين قبضوا الأجر ونفذوا التكليف . كانت أسلحتهم إسرائيلية ، وأزياؤهم إسرائيلية ، وحتى أربطة أحذيتهم إسرائيلية . وهذه

العصابات التى دخلت لم تكن أفرادا بل فرقة كاملة : ألف وخمسمائة مجرم . استمروا يذبحون ويغتصبون ويعذبون ويسحلون ثلاثة أيام متواصلة ، يخرجون ليحصلوا على الزاد والذخيرة من الإسرائيليين ثم يرجعون لاستئناف المجزرة. وفى تلك الأثناء كان الاسرائيليون يراقبون ما يجرى من فوق المبانى العالية، بالنظارات المكبرة، يطمئنون الى أن الأجراء ينفذون التكليف الذى قبضوا ثمنه. وفى الليل ، عندما قطعوا الكهرباء عن كل بيروت ، كانوا يطلقون صواريخ لإنارة المخيمات لعملائهم . بعد ذلك أعطاهم الإسرائيليون جرافات لهدم البيوت على من فيها من الأموات والأحياء ولحفر القبور الجماعية .

سكت رالف لحظة قبل أن يقول محاولا أن يسيطر على انفعاله :

ــ كنت قد شاهدت هذه القبور الجماعية من قبل فى مخيم عين الحلوة بعد سقوطه . هدمت قوات إسرائيل بالجرافات كل بيوت ذلك المخيم ودفنت القتلى فى حفر عميقة . وسمعت ممن بقى حيا فى عين الحلوة أن هذه الجرافات كانت تلتقط أيضا فوق حمالاتها الحديدية المسنونة مع الجثث والأنقاض بعض الجرحى الذين كانوا يصرخون أنهم أحياء ولكنهم دفنوهم مع القتلى . ذلك أيضا ما حدث فى صبرا وشاتيلا، كل الفرق أنهم تركوا فيهما بعض تلك الجثث فى الطريق .

ارتفع صوته قليلا وهو يقول : ولكن هل سألتم أنفسكم لماذا ؟ .. أنتم تعرفون أن كلمة الجثث هينة جدا بجانب ما رأيتموه . تعرفون أن الذين ارتكبوا المجزرة وأمروا بها أرادوا أن يجعلوا الإنسان شيئا مقززا . كانت هناك فرق متخصصة فى ذلك . تشوه الوجوه بالسكاكين وبالبلط وتسلخ جلود الضحايا وتبتر ذكور الرجال وأثداء النساء وتقطع الأصابع والأيدى وتترك عامدة تلك الأعضاء المبتورة إلى جانب الجثث ، فلماذا ؟ .. حتى النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم . فهل سألتم أنفسكم لماذا أرادت إسرائيل أن تعلن هذه الجريمة ؟

ارتفع صوت غاضب من الرصيف الآخر يقول : اسكت ! أسكت يا خائن !

ولكن رالف أكمل دون أى اضطراب : سأقول لكم . لقد تعمدوا ترك هذه الجثث . لقد أرادوا أن يثيروا الفزع . أرادت إسرائيل أن تبلغ رسالة للعرب وقد

أبلغتها : أرادت أن تقول نحن نقدر دائما على مثل هذا . ما حدث فى صبرا وشاتيلا يمكن أن يتكرر فى غيرها . استسلموا ولا تفكروا فى المقاومة .

ثم سكت مرة أخرى سكتة أطول من سابقتها والتفت نحو الرصيف الآخر قبل أن يكمل : سأقول شيئا لهذا الذى وصفنى بأننى خائن لأنى يهودى ولأنى أقول الحقيقة عن المذبحة التى دبرتها إسرائيل . سأقول له إن أبى أنا أيضا قد قتله هتلر فى أوشفيتز . ولكنى عندما رأيت ما حدث فى صبرا وشاتيلا عرفت أنه مات مرتين ، لأن من أبيدوا فى صبرا وشاتيلا هم أيضا ستة ملايين .

ارتفع الصوت من الركن نفسه ساخرا هذه المرة : خائن وكذاب !

واستمر رالف : سأنقل لكم أيضا ما شاهدته وما قاله لى رجل من الصليب الأحمر فى صبرا وشاتيلا . قال لى لقد صنعنا حفرة عمقها ثلاثون قدما وعرضها وطولها مائة وخمسون قدماً . رأيت هذه الحفرة بنفسى ولم تكن عميقة بما فيه الكفاية لأنى رأيت جثثا تبرز من الجير الذى ردموها به . قال الرجل إنهم دفنوا ثلاثة آلاف جثة ، ولا تحسب ضمن هذا العدد من دفنتهم عصابات القتلة بالجرافات ومن قتلهم قصف إسرائيل للمخيمات ولا من اقتادوهم ليقتلوهم خارج المخيمات . كم ألفا تحسب هؤلاء ؟ .. وكم مليونا يصبحون لو حسبتهم بالنسبة لسكان هذه المخيمات ؟

ثم التفت مرة أخرى إلى مصدر الصوت وقال أنت لا تخون إن قلت الحقيقة ، بل تخون إن لم تقلها .

وكان كل الرد على رالف زمجرة غاضبة من ذلك الركن . وكانت هى الصوت الوحيد الذى يقطع الصمت المطبق فى الميدان .

تقدم أنطوان رئيس جمعية الصداقة ليقرأ المطالب التى ستقدمها المظاهرة . ولكن ممثل منظمة التحرير همس فى أذنه بشىء فقال أنطوان : ستكون هناك كلمة أخيرة :

أمسك ممثل المنظمة بالميكروفون وقال :

ـ سأضيف شيئا أو شيئين إلى ما قاله رالف . نعم أرادت إسرائيل أن تحقق

من الجريمة الهدف الذى نكره ، ولكنها أرادت شيئا آخر كشفه بيجين حين قال أغيار يقتلون أغيارا - أراد بيجين أن يقول هذا هو ما يفعله العرب ببعضهم البعض : يقتلون بمثل هذه الوحشية وبمثل هذا الإهدار للآدمية - ولهذا فإن ما تفعله بهم إسرائيل مبرر تماما - لا يكفى إبعاد هؤلاء الناس عن أرضهم وإنما يجب إبادتهم. ولكننا نعرف الآن أن تلك الجريمة لم يدبرها وينفذها الأغيار، بل الاسرائيليون أنفسهم. ألم يلفت نظركم حقا أن إسرائيل التى تدافع عن نفسها بأنها هى التى تدخلت لوقف المجازر لم تقبض على واحد، مجرد واحد، من هؤلاء القتلة؟.. وهم كما سمعتم من رالف لم يكونوا مجرد آحاد، بل كانوا ألفا وخمسمائة مجرم على الأقل، فأين هم؟.. أنتم وأنا نعرف الجواب: هم تحت حماية من سلحهم وأستأجرهم واستخدمهم. ولكننا يجب ألا نستسلم لإفلاتهم. فليكن أول مطالبنا الآن هو التحقيق فى الجريمة والقبض على القتلة. لو تم ذلك فسنعرف كل الحقيقة.

وافق المتظاهرون على الاقتراح، وبدأت المظاهرة تتحرك وكان انطوان فى المقدمة يهتف فى مكبر الصوت بالشعار الذى تقرر، ونحن نكرره وراءه بوقفة مع كلمة «بيجين..شارون.. قاتلان».

وظل رجال الشرطة يحيطون بالمظاهرة ويتابعون جوانبها بسياراتهم، وهى تخترق ببطء شوارع المدينة الخالية من المرور، وكان بعض المارة يتوقفون على الأرصفة يتفرجون وبعضهم يسأل عن السبب فيها ،وسمعت واحدة تقول لصديقتها باستخفاف ونحن نمر بجوارها «هم عرب» فقالت صديقتها «هذا ما ظننت أنا أيضا، ولكن يوجد آخرون أيضا، تصورى!»

وكنا نمر إلى جوار أحد المقاهى الذى صف مقاعده على الرصيف فى ذلك اليوم المشمس، وراح الزبائن أيضا يتطلعون إلى المظاهرة في صمت ، ولكننى فجأة رأيت شخصا يندفع من صفوف المظاهرة وهو يصرخ. رأيته يمسك بتلابيب رجل عربى يلبس جلبابا أبيض وأمامه زجاجة بيرة ثم يلقى بكوب البيرة على جلبابه.

كان هو يوسف، وجريت لأوقفه.

هب الرجل مذعورا ويوسف ما زال يقبض عليه ويسبه. يسأله كيف يشرب البيرة ودماء الشهداء لم تجف .

ظل الرجل يتطلع إلى اليمين وإلى اليسار ممتقع الوجه وهو ينادى شخصا ما: «رأفت .. يا رأفت» .. بينما هو يربت على كتف يوسف قائلا :

– عظيم .. عظيم يا أخ ! .. انتهينا يا بطل .. مع السلامة .. مع السلامة .. يا بطل العرب .. يا رأفت .. يا زفت يا رأفت !

لكنه لم ينجح فى أن يبعد قبضة يوسف التى تجذب جلبابه وكنت قد وصلت إليهما ، غير أن شرطيين كانا قد سبقانى وقبضا على ذراعى يوسف وراء ظهره..

ووصل (رأفت) الذى يناديه الرجل أيضا لحظتها من داخل المقهى وهو يصرخ.

– ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟ .. كنت فى دورة المياه !

كان شابا مصرى الملامح مفتول العضلات.

قال له – إدفع الحساب بسرعة وهيا بنا .

لكن أحد الشرطيين كان يقول للرجل فى بطء : نحن شاهدنا ما حدث . هذا الشخص اعتدى عليك . ومن حقك أن تسجل شكوى ضده . نحن شهود .

التفت الرجل إلى رأفت وسأله : ماذا يقول العسكرى ؟

وحين ترجم له رأفت رفع يديه إلى رأسه كأنه يحيى الشرطى وقال لرأفت:

– قل له انى متنازل عن الشكوى. أنا مسامح الرجل. لا أريد شكوى ولا يحزنون.هيا بنا.

وظل يجذب رأفت من ذراعه بينما كان يترجم للشرطيين ما قاله، ولكن الشرطى قال متجهما:

ـ حتى لو تنازل عن الشكوى فيجب أن يحضر معنا كشاهد. هذا الشخص ارتكب جريمة اعتداء ويجب أن يحاسب عليها.

غير أن الرجل كان مستفزا هذه المرة بعد أن استمع إلى الترجمة. أخرج من جيبه جواز سفر أحمر وقال فى غضب:

ـ قل للعسكرى إن الشرطة لا علاقة لها بى. أنا عندى حصانة.لا أريد شكوى ولا أريد شهادة وهيا بنا من هذا المكان.

راجع الشرطى جواز السفر بدقة ثم رده بعد أن رفع يده بالتحية. وقال ليوسف زاجرا:

ـ أشكر سمو الأميرلأنه تنازل عن حقه، ولا تعد لمثل هذه الأعمال.

ولكن يوسف كان يقف ذاهلا . لم ينبس بحرف .

وبعد أن انصرف الشرطيان قال رأفت للأمير:

– تحب سموك أن أؤدبه ؟

فدفعه الأمير دفعة قوية فى ظهره وهو يقول :

– إمش انجر ! .. ساعة الجد تختفى والآن تريد أن تعمل لى فيها محمد كلاى!.. انجر من هنا !

وانصرف بسرعة وهو ينفض جلبابه .

وتفرق الجمهور الذي كان يحيط للفرجة . كان منه كثير من المشتركين في المظاهرة وكان هتاف المتظاهرين يبتعد : «بيجين .. شارون .. قاتلان» .

حين لمحنى يوسف نظر فى وجهى نظرة زائغة فقلت له بهدوء :

– ليس هذا يا يوسف هو الأمير الذى يجب أن تصفى حسابك معه.

أفاق عندما قلت له ذلك . ظل يتأملنى فترة ثم جذبنى نحوه فجأة وهمس فى أذنى :

– إسمع . أترك هذه المدينة . الأمير لا يطيقك . الأمير يستطيع أن يفعل أى شىء .

ـ ماذا قلت ؟

ـ لم أقل شيئا .

تركنى وانصرف بسرعة ، وجريت أنا أيضا لألحق بالمظاهرة .

★★★

بعد المظاهرة كنا نسير صامتين ، جنبا إلى جنب، بريجيت وأنا .

حل محل الانفعالات الكثيرة المضطربة إحساس الهمود والفراغ الذى يصحب كل نهاية .

وقادتنا أقدامنا إلى الحديقة الكبيرة فى الميدان الرئيسى التى كانت مزدحمة بالرواد فى يوم العطلة المشمس . فى المدخل كان لاعبو الشطرنج الواقفون حول رقعة كبيرة مرسومة على الأرض يتأملون الأفراس والطوابى وأيديهم حول ذقونهم قبل أن يتقدم لاعب لينقل القطعة التى استقر عليها رأيه بكلتا يديه . وخطر لى للحظة أنه لو كان خالد هنا للعبنا معا فى هذه الحديقة وكان سيسعده هذا الجمهور . ولكنى تذكرت . لا ، لم يكن هذا سيسعده . ترى هل وصله خطابى؟ سأعرف ذلك فى المكالمة المقبلة . هل سيفيد بشىء ؟.. هل سيصبح مثل يوسف؟ .. هل مازال هناك شىء يمكن أن أفعله ؟

جلسنا على أحد مقاعد الحديقة وأنا أقول:

- لم أتوقع أن تأتى للمظاهرة . أعرف رأيك فى هذه الأشياء . لكنك ظللت تهتفين من أول المظاهرة وصمدت حتى نهايتها . كثيرون انصرفوا فى منتصف الطريق .

قالت شاردة بصوت خافت متعب بعد كل تلك الهتافات التى أطلقتها :

- نعم ، لا سيما بعد تلك المشاجرة السخيفة عند المقهى . أظن أن ذلك الشخص تعمد أن يفسد المظاهرة . منذ البدء كان يطلق هتافات ويحدث ضجة . هل تعرفه؟

لم أرد عليها . كانت تلك الفكرة قد خطرت لى منذ البدء ، أن يكون يوسف ومن معه موفدين لإفساد المظاهرة، ولكنى أردت أن استبعدها . قلت لنفسى هو ليس شريرا .

مالت بريجيت برأسها على كتفى فمددت يدى وأحطتها بها فقالت بصوت خافت:

- شكرا .

نظرت إلى وجهها ، وكانت تبتسم وإن ظل الشرود فى عينيها وأكملت :

- أعرف أنك تخجل حين نتصرف أمام الناس كحبيبين ولكنى اليوم أحتاج إليك ..

ثم تذكرت شيئا آخر فقالت : ولو أنى لم أغير رأيى . من يتعذب يتعذب وحده ومن يموت يموت وحده . لن تعيد مظاهرتنا الحياة لأى واحد مات فى بيروت . هل تعرف من قابلت اليوم ؟ بيدرو إيبانيز!

- وماذا جرى له ؟

قالت بلهجة متحيرة :

- هذا ما أود أن أعرفه . كان غريبا وتجاهلنى تقريبا حين تحدثت إليه . كنت أخاف أن يقتله العمل الشاق فى دنيا العمل السرى ولكن يبدو أن ما حدث له أسوأ من ذلك. لماذا لم يتركه مولر فى حاله؟.. فى كندا ، فى النمسا، فى بلده، فى أى مكان ..

- ماذا حدث له ؟

ولكن فى تلك اللحظة كانت طفلة فى حوالى الخامسة تلبس فستانا أحمر تتقدم من بريجيت وسألتها برزانة :

- كم الساعة ياسيدتى ؟

أشارت بريجيت إلى معصمها وهى تقول : ليس معى ساعة مع الأسف ..

ثم التفتت نحوى فقلت : الثانية والربع.

أرادت الفتاة أن تنصرف ولكن بريجيت قالت لها وهى تفتش فى حقيبتها : لماذا تسألين عن الساعة ؟

- وعدت ماما أن أرجع فى الثانية والنصف.

- إذن مازال هناك وقت . وبما أنك بنت عاقلة وتحترمين مواعيدك فسأعطيك هدية صغيرة . خذى. اشترى ما تشائين بهذا المبلغ قبل أن ترجعى إلى ماما .

قدمت إلى البنت عملة معدنية صغيرة ، فبدت فى وجهها السعادة وشبت على قدميها ، ثم قبلت بريجيت فى خدها بتلقائية قبل أن تجرى عائدة إلى مجموعة الأطفال الذين كانت تلعب معهم .

تابعتها بريجيت ببصرها ثم راحت تتنقل بصرها بين الأشجار . وكانت أمامنا شجرتان عاليتان توهجت أوراقهما باللون الأحمر القانى وظلتا مميزتين وسط الأشجار الأخرى التى وشاها الخريف بالصفرة . أطلقت ضحكة خافتة وهى تصعد ببصرها مع الشجرة وقالت:

- ومع ذلك فسيوحشنى عشاق الارتفاعات!

تعودت منذ زمن طويل على انتقالاتها المفاجئة فلم أعد أسألها عن شىء . عرفت أنها ستحكى ما خطر لها من تلقاء نفسها.

قالت بشىء من الحيرة : لا أعرف لماذا هم دائما آسيويون. (ثم ترددت لحظة) لا . يوجد أيضا من جنسيات أخرى ولكنهم قلة.

ثم سكتت وعادت إلى الشرود . فقلت

- من هم هؤلاء يا بريجيت؟

هزت رأسها وكأنها تفيق وقالت : ماذا؟ .. عن أى شىء تسأل؟

- كنت تتحدثين عن عشاق الارتفاعات . من هم؟

عادت تضحك من جديد دون روح وهى تقول : آه ، هؤلاء؟.. ألم أقل لك إنهم كانوا يظهرون فى كل فوج سياحى؟ آتى بهم إلى هنا أحيانا ، وأحدثهم عن هاتين الشجرتين اللتين نقلوهما من أمريكا . أحكى لهم التاريخ وكيف أمكن بعد تجارب كثيرة أن تنجح زراعة الشجرتين فيفاجئوننى بالسؤال عن ارتفاعهما . يدونون ذلك بكل دقة فى مفكرات صغيرة يحملونها . يكتبون أيضا ارتفاع برج الكاتدرائية .

كل شيء عال يستوقفهم وكأنهم مكلفون بحساب الارتفاعات فى العالم . هل تعرف السبب؟

كانت عيناها متسعتين بالدهشة وكأنها تسألنى عن لغز عصىّ . فابتسمت وأنا أقول لها : لا . لا أعرف يا بريجيت . ولكن لماذا سيوحشونك؟ .. اليابانيون لا يتوقفون بعد الصيف مثل الآخرين . يأتون هنا على مدار السنة .

فكررت ورائى - نعم ، يأتون على مدار السنة .. ثم قامت فجأة وهى تقول : هيا بنا ننصرف . أنا جائعة .. هل عندك فى البيت شيء نأكله ؟

- هناك أشياء فى الثلاجة .

- هيا بنا إذن . اليوم سأعدُّ لك غداء خاصا .

★ ★ ★

قبل أن نصعد إلى الشقة فتحت صندوق البريد ، الذى تراكمت فيه رسائل عدة أيام .

لم يكن هناك غير الصحف ورسائل الإعلانات ، ولكنى وجدت أيضا رسالة من القاهرة عليها طوابع حكومية داخل ظرف صغير مثل خطابات مصلحة الضرائب التى كنت أتلقاها فى القاهرة .

أمازالت هذه المصلحة تتذكرنى بعد كل تلك السنين فى الغربة؟

عندما ذهبت بريجيت إلى المطبخ لترى ما يمكن أن تعده للغداء ، وضعت الصحف جانبا وفتحت الخطاب . قرأته وأنا واقف ، ثم أعدت قراءته . خيّل إلى أننى لم أفهم .

كانت نصف صفحة من ورقة صفراء خشنة مملوءة بالأختام وبالتوقيعات تعلوها عبارة «رئيس مجلس الإدارة» وتحتها السيد فلان ثم «نظرا لما قرره مجلس الإدارة من ضرورة خفض النفقات تنفيذا لتوجيهات السيد ... فقد تقرر إلغاء وظيفة المراسل الصحفى فى مدينة ... على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه. توقيع، عن رئيس مجلس الإدارة».

- غير صحيح !

وتلك الرسالة الرقيقة التى بعث بها رئيس التحرير منذ أيام؟ الرسالة التى لم تشر من قريب أو بعيد إلى قرارات التقشف؟

ظهرت بريجيت عند المدخل وسألتنى ماذا هناك؟

فقلت : غير صحيح !

ولكنى عندما نقلت لها الخبر ، ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

- بل صحيح جداً !

- كيف ؟ أنا أقــول لك هنــاك غلطة !.. هل تعرفين أنت أخبــار القـــاهرة أفضــل منى؟

هزت رأسها بالنفى وقالت : لا .. لا أعرف أخبار القاهرة، ولكن أعرف الأخبار هنا.

قلت فى ذهول : ماذا تعرفين عن الأخبار هنا؟.. وما علاقتها بهذه الرسالة؟ تقدمت منى بهدوء وقالت :

- منذ أيام قال لى المدير إنه لم يعد يستطيع استبقائى فى الشركة ، لأن الشرطة سألته عن تصريح العمل. نصحنى أيضا ألا أبحث عن عمل آخر فى المدينة لأنه سيكون هناك باستمرار من يسأل عن تصريح العمل . قال لى كل الحقيقة كآخر دليل على الصداقة . كآخر نصيحة .

- ولكن لماذا ؟

وضعت يدها على كتفى وأشارت باليد الأخرى إلى الخطاب المفتوح وقالت وهى تكاد تصرخ :

- حاول أن تفكر!

ثم صرخت بالفعل وهى تدفن وجهها فى كتفى.

- هذا عالم ماسياس وسمو الأمير! لا فائدة!

★ ★ ★

لم يكن صعبا أن أفهم ولكنى حاولت أن أقطع كل شك . فشلت مرات كثيرة فى الاتصال برئيس التحرير الذى كان أيضا رئيسا لمجلس الإدارة ، وأدركت أنه يتهرب من الحديث معى وعندما نجحت فى الاتصال به أخيراً ، كانت لهجته مليئة بالاعتذار وهو يكرر «ليس بيدى .. ليس بيدى أقسم لك». ولكنه رفض أن يقول لى بيد من . قال إنه يمكن أن يبذل مجهودا ليجدد لى شهرا آخر حتى استكمل علاجى .

ولم يكن يعنينى كثيرا أن أبقى فى المدينة شهرا آخر .

كانت بريجيت تدبر نفسها للرحيل . قررت أن تعود إلى النمسا لتبقى فترة مع أبيها قبل أن ترى ما يمكن أن تفعله .

انتهى كل شىء ولم يعد بيدك ، أنت، ما يمكن أن تفعله . لم يبطىء كثيرا ذلك اليوم.

خشيت نهايته فجاءت أسرع مما توقعت . ظللت تحارب هواجسك وأنت تتخيل تلك النهاية : ستهجرك بريجيت !.. ستجد شابا من سنها ، شخصا من بلدها، يحب الرقص كما تحب هى، ويحب مثلها تسلق الجبال والتزلج على الجليد وتلك الأشياء التى كانت تذكرها عرضا فى حديثها معك والتى لا تعرف أنت عنها شيئا. هل ستصحو ذات يوم فتجد منها رسالة وداع ، أو تجدها قد اختفت دون وداع؟ هل تأتى النهاية حين تسقط أنت مرة أخرى بعد أن تتمرد تلك الشرايين التالفة ، فلا تكون صحوة أخرى ولا شفاء آخر؟

هل تأتى النهاية دون صخب على الإطلاق؟ ينوى الحب وتقتله العادة والسأم؟ كل شىء تخيلته فى لحظات الرعب من أن تختفى بريجيت من حياتك . كل شىء غير أن ينهى العالم، كما قالت هى ذات مرة، ما بينك وبينها. غير أن ينقض ذلك السيف من المجهول فيبترنى منها .

كانت هناك صبارة جف فيها كل شىء غير أشواكها المشرعة التى تخز لحمها العجوز ، صبارة لا تموت ولا تحيا، مددت لها يدك فبعثت أوراقها الميتة

لتكون شجرة من أشجارك الوارفة التى تحبينها، تفرعت فيها الأغصان ونبتت الأزهار، وها هو ذلك السيف يبتر الأغصان كلها دفعة واحد، لكى يعرّى مرة أخرى الصبارة والأشواك .

لكى ترجع العيون المفتوحة فى الليل تحدق فى الظلمة .

ذلك ما يحدث - فصارع إذن تلك الخيل التى تداهمك ، صارعها وحيدا أو معك الصبر أو دون الصبر . أرنى ما يمكن أن تفعله .

ها هى بريجيت هناك - تحبك كما أحبتك فى البدء - تشعر برعشة يديها بين يديك مثلما شعرت بها فى أول يوم، تقرأ فى عينيها ذلك العشق الأول، ثابتا مثلما كان، وها أنت حتى الآن مازالت طفلا أبديا فى قلب الحب الطفل، حين تحتويها يسقط عنك فجأة ثقل السنين وثقل الهموم وتطفو خفيفا فى نشوة الحب التى لا تنتهى. فحاول إذن أن تقبض على ذلك الأثير الذى سبحت فيه لحظة البعث القصيرة تلك . حاول منعه من أنه يتبدد أو أن يتلاشى .

قل لها فلنعش فى مدينة أخرى . فلنحاول أن نعمل بعيدا عن هنا، فستقول لك سئمت الهرب، و(هم) فى كل مكان .

قل لها فلنتزوج فستقول لك أشباحنا كثيرة وستطاردنا أينما نكون . نحن أقصى مانستطيعه هو ما صنعناه بالفعل : أننا اختلسنا من الزمن لحظاتنا تلك .

قل ما شئت . فسترجع الصبارة، والرمال التى شربت النبع تتحول تحت أقدامك حجارة صلبة مدببة .

ضع فى الظلمة خططا وحلولا فسيبدّدها النهار .

إركع . إبك . توسل . أرنى ما تستطيع، فها هى الليلة الأخيرة تأتى .

ها أنتما فى عصر يوم - كعصر ذلك اليوم الذى دخلت فيه تلك الشقة أول مرة، ولكن الستائر مسدلة والغرفة معتمة .

الغرفة خالية لم يبق فيها شىء.

ترقدان معا على الأرض الخشنة . تحيطها بذراعك وتحيطك بذراعها ، صامتين هامدين بعد أن حملتكما الموجة لآخر مرة .

تهمس لك بعد فترة :

– يمكنك ألا تأتى غدا . أستطيع أن أذهب وحدى .

– أعرف . لكنى سآتى .

تهمسين : هل تعرف من جاء ليودعنى اليوم؟

– مدير الشركة؟

– لا . كان المدير لطيفا مع ذلك وكان كريما . اشترى الأشياء القليلة التى تستحق الشراء فى الشقة .

– إذن جاء ليودعك؟

– جاء فى الصباح .. دخل من الشرفة .. لم يكن قد بقى فى الشقة غير ما تراه . تلك المائدة الصغيرة والمقعدان ..

– من دخل من الشرفة يا بريجيت؟

– .. دخل ثم شقشق بتحية الصباح . ظل يحدق فى الغرفة، أعجبه صدى رفيف جناحيه فى الغرفة الفارغة فظل يدور ويدور وأنا أقف دون حركة . فى مكانى هنا جنب الشرفة لكى لا أزعجه ، وأخيراً حطَّ على المائدة وراح ينظر نحوى فى صمت وشقشق مرتين بصوت خافت . فهمت رسالته وقلت إنى أشكره، فظل يدور ببصره فى الغرفة لليمين ولليسار ، وأخيرا رفع ساقه النحيلة وهرش بها رأسه . فتش فى رأسه عن شىء آخر يقوله لى لكنه لم يجد . فدار مرة أخرى فى الغرفة ثم اندفع للخارج، لمسنى جناحه وهو يخرج . هل مات صديقك إبراهيم؟

نهضت بجذعى فجأة وأنا أهتف – لا ! لماذا تقولين ذلك؟

ظلت تثبت عينيها فى وجهى وقالت دون أن تتحرك – أنا أسألك هذا كل شىء. لست ساحرة ولا عرافة ، ولكنى مع ذلك رأيت موتا فى عينيه فى أول مرة قابلته فيها . كان يجذبنى وكان يخيفنى . احتجت مرة أن أشرب كثيرا، أن أفقد وعيى لكى أتخلص من مطاردته وأنجو من سحره ، ولكن كان هو الذى تخلص من سحرى . أنت تعرف ما كان بيننا، أليس كذلك ؟

– نعم ، أعرف، ولكن لمَ قلت هذا الآن؟ يعذبنى أنى لا أعرف شيئا عنه .

– قلت لك أنا لست عرافة وأنا أيضا لا أعرف شيئا عنه.

– وهل أحببته.

– أبدا . كان مملتنا بالدنيا.

ثم مدت ذراعها وجذبتنى لأرقد مرة أخرى إلى جوارها .

قالت : أنت الذى أحببت . أحببت صمتك وأحببت ثرثرتك وأحببت ما لم تقله بالصمت ولا بالثرثرة .

اقتربت منى. التصقت بى وقالت وهى تتحسس وجهى بأناملها: أحببت أن أشاهد نفسى أتغير معك، أحببت أن أراك تفقد السنين لتكون لى وأكسب السنين لأكون لك . كانت هناك واحدة لم تضع منها الفرحة وحدها، بل ضاع منها حتى الحزن والألم. واحدة شاهدت نفسها تتلاشى . وحين وجدتك استردت نفسها ثم أصبحت أكبر وأكبر ..

ثم قلت فى همسك باستسلام كامل وأنت تمسدين شعرى :

– والآن ها هى مرة أخرى تتلاشى .

غمغمت فى يأس : ولكن لابد أنه توجد طريقة.

فكررت ورائى : بالطبع لابد وأنه توجد طريقة .

ثم نزلت بأصابعها على فمى وقالت : ولكن لا تسألنى..

ثم نهضت ومالت بجذعها فوقى . انحنت بوجهها فوق وجهى . صنع شعرها خيمة أحاطتنى وصنع عطرها هالة أحاطتنى وبسطت ذراعيها جناحين حولى، وحلقنا معا، مرة أخرى . مرة أخيرة.

★ ★ ★

عندما ذهبت فى ظهر اليوم التالى لأصحبها بالسيارة إلى المطار كانت تنتظرنى أمام الباب بمعطف المطر وقبعة سوداء فوق رأسها وقد تركت شعرها

الطويل ينسدل على ظهرها . ورأيت وأنا أضع الحقيبة خلف السيارة مائدتها الصغيرة والمقعدين فى كومة أمام المدخل .

قالت عندما تحركت السيارة : مازال الموعد مبكرا . لا أحب الانتظار طويلا فى المطار. فلنتجول قليلا .

- إلى أين تحبين أن نذهب ؟

- إلى أى مكان. أحببت هذه المدينة الصغيرة. قلت لنفسى هنا سأنسى العالم وسينسانى العالم..

لكنها غيرت رأيها فورا : لا . لاداعى لذلك. لا أحب أن تكون آخر مرة أراها فى هذا الجو الغائم. هى مدينة حزينة جدا تحت هذا السحاب.

- هناك غابة جميلة فى طريق المطار إن أحببت أن نبقى هناك لحظة..

- لا. ولا حتى هذا . عندما تأتى النهاية يحسن ألا تطيل فيها .

- كما تشائين .

لزمت الصمت .. لم يعد عندى شىء أقوله. لم أعد أنا . رأيت نفسى، مثلها، منذ مدة أتلاشى. لم تغب عنى أنا أيضا الفرحة وحدها، بل غاب حتى الحزن والألم.

أسندت بريجيت رأسها إلى مقعد السيارة وقالت:

- إذن فأين السلام يا صديقى؟

فقلت دون وعى - أن ننام، أن نحلم.

اعتدلت فى مقعدها فجأة وهتفت : أنت قلت!

- ماذا قلت؟

- أن ننام، أن نحلم!.. ألم تكن تسأل عن طريقة؟.. ها أنت أجبت! وبالنوم ننهى ضنى القلب وآلاف الفواجع التى هيىء لها الجسد . ذلك هو الكدح الذى بقلبك تبتغيه! ألم يكن هذا هو الشعر الذى تفكر فيه؟

- نعم.

- تلك هى السكينة التامة!.. أنت قلت فلا تتردد. لأنه فى الواقع ياصديقى، حتى بدون هذا الشعر من يحتمل هذه الدنيا؟.. من يحتمل غطرسة المتكبرين والطغاة والأمراء وآلام الحب المخذول والانتظار الطويل واستحالة العدل وهزيمة الرقة أمام الوحشية وكل تلك الأنانية وكل ذلك الظلم من يحتمل هذه الدنيا؟ أنت قلت!

نزعت حزام الأمان لمقعدها فجأة وهى تكرر فى لهاث تقريبا:

- نعم، نعم، أن ننام، أن نموت. ثم إنه ليس من الضرورى أن يكون ذلك بالخنجر!.. ألست معى؟

ثم مدت يدها، ثم مالت بجسمها كله نحوى وراحت تدفع مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وأنا أصرخ : لا!.. لا يا بريجيت.. ليس الآن.. ليس هكذا.. لا!

وكانت هى تتابع باقتناع كامل - لماذا لا؟ لماذا ياصديقى؟.. هل تستمتع بالفعل بهذه الدنيا الكلبة؟ ما الذى تريده منها؟

وكانت تضغط بقدمها على قدمى وأنا أحاول أن أدفعها بعيدا عنى بكتفى أحاول أن أدفعها بعيدا بجسمى وكانت السيارة تندفع إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فجذبت فرامل اليد قبل أن تنزلق من الحافة.

وتوقفت السيارة فى صرير عنيف وهى ترتج.

وكنت أنحنى على مقود السيارة وأنا ألهث وسمعتها تقول مبهورة الأنفاس بصوت خافت:

- أرأيت؟. أنت لست مستعدا بعد!

★ ★ ★

رفضت بريجيت أن أودعها .. أخذت حقيبتها أمام المطار ورجتنى ألا أدخل معها. قالت أكره مواقف الوداع.

قبلتنى فى وجنتى قبلة خاطفة. قبلة صديق لصديق عابر قبل أن تستدير وتتجه إلى الباب الزجاجى بسرعة . لم أكن أستطيع حتى أن أبقى لحظة لأراقبها قبل أن تختفى.. كانت أبواق السيارات أمام المطار تستحثنى أن أخلى الطريق .

انتهت وانتهى كل شيء .

ولكن بينما أقود السيارة قلت هناك شيء أخير يجب مع ذلك أن أفعله فى هذه المدينة . حساب أخير يجب أن أصفيه.

★ ★ ★

عبرت الجسر الطويل ودخلت ضفة النهر الأخرى.

نادرا ما جئت هذاالحى وقليلا ما أعرفه . صعدت فى الطرق الجبلية ولكن كل الشوارع كانت تتقاطع ، وكانت كلها متشابهة.

أوقفت السيارة ورحت أراجع الخريطة التى معى وأفتش عن موضع العنوان الذى حصلت عليه.

تلفت حولى ولم أجد أحدا أسأله. لا يتجول الناس على أقدامهم فى هذا الحى. لم يكن هنـــاك شيء غير أسوار القصور العالية تطل منها قمم أشجار التنوب المخروطية الخضراء.

وكان غيم وكانت عتمة.

تركت السيارة ودونت اسم الشارع الذى وقفت فيه . وأخذت معى الخريطة وقلت سأبدأ من هذه النقطة.

سرت والخريطة فى يدى، وكان الطريق يصعد فى الجبل، فبدأت ألهث وأبطأت خطواتى.

شعرت بالتعب فجلست على جذع شجرة مقطوع وكنت من مكانى أطل على المدينة فى ضفة النهر الأخرى. ولكن ضبابا كثيفا كان يغلف المدينة فبدت مبانيها كتلا رمادية متباعدة. بدت شبحا لمدينة. وجاءتنى وأنا أنظر إلى المدينة تلك العبارة التى تطاردنى منذ مدة: سيمر الزمن وسيأتى بعدنا من يعرف لم تعذبنا .

سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا. لا . لم يقل تشيخوف ذلك. قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن السعادة . ولكن هل سيذكرنا حقيقة أحد؟.. هل ستذكرني هنادي؟.. هل سيلد عذابنا تلك السعادة؟.. بأية معجزة؟

قمت بعد أن استرحت قليلا.

صعود آخر.

لافتات صغيرة بأسماء الشوارع، أرقام الفيلات والقصور، ولكن لا توجد لافتات بأسماء ساكنيها .

عطر زهور نفَّاذ وأشجار عطرها يكاد يخدرني.

كنت مخدرا بدونها. كان رأسي يدور من جهد الصعود المستمر.

ولكن، بناء على الخريطة، هذا هو المكان.. قالت هو قصر كبير، لكني لا أرى شيئا غير السور العالي والبوابة الحديدية ومن ورائها الأشجار يخترقها ممر مستقيم أمام البوابة، لكنه يدور ويختفي بعدها.

لا أرى شـــيئا من ذلك القصر. ولكن هناك على الأقل لافتة بجوار البوابة الحديدية. نعم.

أحاول أن أقرأ. كانت الحروف كبيرة ولكني مع ذلك لم أستطع أن أقرأ بسهولة من الزغللة في العينين وعتمة الضباب. اقتربت كثيرا. لم يكن هناك أيضا أسم لساكن القصر. كانت العبارة تقول: احترس . كلاب شرسة! وتحتها اضغط على الجرس، وتكلم في البوق. عندما ضغطت على الجرس جاء ني بعد فترة عبر مكبر الصوت صوت عميق هندي اللكنة.

– من هناك؟

– أنا .. أريد أن أقابل الأمير حامد.

– هل هناك موعد؟

ترددت لحظة ثم قلت: نعم.

– انتظر لحظة من فضلك.

غاب طويلا ثم جاء صوت ليندا:

– هل أنت متأكد أن هناك موعدا مع سمو الأمير؟

– قال لى إن بيته هو بيتى. قال أستطيع أن آتى فى أى وقت.

– انتظر لحظة من فضلك.

غابت أيضا فترة طويلة. لم يرجع صوتها، بل جاء الصوت الهندى:

– سمو الأمير يقول إنه ليس هناك موعد. وإنه لا يريد أن يستقبل أحدا اليوم.

– أبلغه مع ذلك أن هناك شيئا مهما أريد أن أقوله له. شيئا يهم الأمير كثيرا.

فى هذه المرة رجع بعد الصمت الطويل صوت ليندا. بدا كأنها تقرأ من ورقة مكتوبة لأنها رددت بصوت رتيب:

– سموه يكرر أنه لا يريد أن يقابل أحدا. سموه لا يريد أن يسمع منك شيئاً. يقول إنك تضايقه وهو لا يحب من يضايقه. سموه يسأل: لم لا ترحل من هنا بسرعة مثلما رحلت صديقتك؟

– إذن قولى له إننى ..

ولكن الصوت انقطع من الهاتف وبدأ النباح فجأة. نباح شرس كعواء متصل يقترب من البوابة، ثم حشد من كلاب ناصعة البياض، طويلة السيقان، طويلة الأنياب، تصك بمخالبها البوابة الحديدية وتكشف أنيابها وهى تزمجر وتحدجنى بعيون نارية شريرة وهى تتواثب وتعوى.

ابتعدت عن البوابة ولكن الزمجرة الوحشية كانت تتصاعد وتتصاعد، يجاريها نباح من القصور الأخرى. تعاونت كل كلاب الحى لطرد الغريب ولاحقنى نباحها وأنا أهبط من طريق لأصعد فى طريق آخر.

ها هو الأمر إذن. لا شىء غير نباح الكلاب. لن تصفى حسابك مع الأمير، لن تصفى الحساب مع الكلاب. لن تصفيه مع الحجّاب. نعم، ياصديقى أفهم أن

يردّني الحجاب ولكن ماذا عن الكلاب؟ لن تصفى مع العالم أى حساب. كل شىء ينتهى. أنت وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت وإيلين ويوسف. أنت وخالد ومنار. كل شىء ينتهى. فماذا تنتظر؟ لماذا لم تطع بريجيت عندما حانت اللحظة؟.. أن تكونا معا إلى الأبد بعيدا عن العالم، بعيدا عن الأمير، بعيدا عن الحرب التى لا تستطيع أن توقفها، عن الدماء التى لم ترقها ولكنك تغوص فيها. لماذا لم تواتك الشجاعة؟.. لماذا لم تكن مستعدا؟..

مرة أخرى تلك الشوارع التى تصعد وتهبط. مرة أخرى أفقد الطريق . فقدته من زمن طويل. أمسكت الخريطة ورفعتها. قربتها إلى عينى . كانت خطوطاً متعرجة تثقبها نقط سوداء. لم أر شيئا .

الضباب الآن ستار يحجب كل شىء . ستار من نقط ندية منمنمة تتموج ومن خلفها تترجرج القصور والأشجار.

أهبط، لا أستطيع الآن أن أصعد. إنس الخريطة وانس السيارة واتبع فقط كل الطرق التى تهبط فى اتجاه النهر. إهبط باستمرار!.. أخيرا أصل حديقة صغيرة على شاطىء النهر. حديقة مهجورة وسط الضباب والبرد . ولكنى أجلس لاهثا. النهر أمامى ممر ساكن من الرصاص والمدينة كتلة رمادية من نقط رجراجة..

لكن صوتا يخترق الصمت، صوتا مقرورا من البرد ... شبح يتدثر بمعطف يجلس إلى جوارى ويسألنى بصوت مرتعش:

– هل تريد؟

– نعم أريد.

– ماذا تريد؟

– أن أفهم . من أكثر من خمسين سنة أحاول أن أفهم. حاول الطفل وحاول الرجل ورجع الطفل ومات الرجل وكله دون فائدة . مائة سنة لا تكفى.

– تريد بخمسين أو تريد بمائة. أسرع!.. الشرطة بعيدا ليست...

اتضحت اللكنة الأجنبية واللغة المكسورة وقلت لنفسى أنا أعرف هذا الصوت،

أنا سمعت هذا الصوت من قبل.

– أسرع، حشيش مغربى أو أفغاني؟.. بخمسين أو بمائة؟.. أسرع الشرطة بعيدا ليست ، الصنف معي. تعال معي...

أدرت وجهي ولم أره. كان الوجه يترجرج أيضا ... رأيت وجها من نقط منمنمة له حاجبان كثان تحت طاقية الرأس فقلت بصوت ضعيف – بيدرو..!

ولكن هل هو بيدرو بالفعل؟

قبل أن أكمل الاسم كان قد قام وجرى . اختفى.

هتفت فخرج صوتى ضعيفا: انتظر!.. انتظر!.

رجع مرة أخرى.

رجع بخطوات بطيئة . وكنت أنا أنزلق على المقعد . رغبتى لا تقاوم فى أن أتمدد عليه .

رفعت عينى ولكنه لم يكن بيدرو. كان شرطيا، وكان يتحول هو أيضا إلى نقط منمنمة، راحت تتموج، وراحت تصغر وراحت تغيب.

وكان الصوت يأتى من بعيد.. ياسيد ياسيد .. هل أنت بخير؟

لم أكن متعبا . كنت أنزلق فى بحر هادىء .. تحملنى على ظهرى موجة ناعمة وصوت ناى عذب.

وقلت لنفسى: أهذه هى النهاية؟ ما أجملها! وكان الصوت يأتى من بعيد .

كان الصوت يكرر ياسيد!.. يا سيد!.. ولكنه راح يخفت وراح صوت الناى يعلو.

وكانت الموجة تحملنى بعيدا .

تترجرج فى بطء وتهدهدنى.. والناى يصحبنى بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام وإلى السكينة .

تمـــت

بهاء طاهر

چنيف – ١٩٩٥

كلمة ختامية

●● هذه رواية ، أساسها الخيال . ولكن هناك مع ذلك أشياء حقيقية .

فى الفصل الأول : قصة تعذيب بيدرو ايبانيز ومصرع شقيقه فريدى فى شيلى. الاسمان حقيقيان والوقائع حقيقية مع شىء من التصرف .

فى الفصل السادس : شهادة الممرضة النرويجية عما حدث فى عين الحلوة شهادة حقيقية ، وهى مزيج من أقوال منشورة وحوار شخصى أجراه المؤلف معها . وقد غيرت اسمها الحقيقى .

فى الفصل العاشر : المقال المنسوب الى برنار ، الشخصية الروائية . نص لمقال حقيقى .

وفى الفصل الأخير : شهادة الصحفى الأمريكى رالف حقيقية ، الاسم حقيقى ، والوقائع حقيقية .

هذا ، ودم الشهداء .

بهاء طاهر